تأليف
الشيخ رضا علي حجازي العاملي

سمات المتقين

على متن خطبة إمامهم أمير المؤمنين عليه السلام

- منطقهم الصّواب..
- ملبسهم الاقتصاد..
- مشيهم التواضع
- غضوا أبصارهم عمّا حرّم الله عليهم..
- وقفوا أسماعهم على العلم النّافع لهم..

تقديم
المرجع الديني سماحة آية الله العظمى السيد
كاظم الحسيني الحائري (دام ظله)

www.haydarya.com

سمات المتقين

على متن خطبة إمامهم

أمير المؤمنين عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

سِمَاتُ المُتَّقِين

عَلى مَتْن خطبَة إمَامِهِم

أمِيرِ المؤمنين عليه السلام

تأليف

الشيخ رضا علي حجازي العاملي

تقديم المرجع الديني سماحة آية الله العظمى

السيد كاظم الحسيني الحائري (دام ظله)

دار المحجة البيضاء

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م

حارة حريك - شارع الشيخ راغب حرب - قرب نادي السلطان

ص.ب: ٥٤٧٩ / ١٤ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧

E-mail:almahajja@terra.net.lb

www.daralmahaja.com

info@daralmahaja.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾

صدق الله العلي العظيم

ـ من رزق التقىٰ رزق خير الدنيا والآخرة.

ـ عليك بتقوىٰ الله فإنه رأس الأمر كله.

(رسول الله ﷺ)

ـ إن التقوىٰ أفضل كنز، وأحرز حرز، وأعزّ عزّ.

ـ بالتقوىٰ فاز الفائزون.

ـ أوصاكم بالتقوىٰ وجعلها منتهى رضاه، وحاجته من خلقه.

ـ التقوىٰ منتهى رضى الله من عباده وحاجته من خلقه.

(أمير المؤمنين عليه السلام)

تقديم المرجع الديني سماحة آية الله العظمى السيد كاظم الحسيني الحائري(دام ظله)

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين

وبعد: فقد طالعت قسماً من كتاب «سمات المتقين» لمؤلفه سماحة حجة الإسلام والمسلمين الشيخ رضا علي حجازي العاملي (حفظه الله) قد كتبه على متن خطبة إمام المتقين أمير المؤمنين عليه السلام فوجدته كتاباً نافعاً للمؤمنين.. مؤثراً في النفس.. مهذباً للأخلاق.. فأنا أوصي الأخوة المؤمنين حفظهم الله بمطالعة هذا الكتاب والإستفادة منه فجزاه الله على تأليفه النافع هذا خير الجزاء..

وقد تربّى المؤلف (حفظه الله) عندنا، ونهل من علومنا، في الفقه والأصول ردحاً من الزمن في قم المقدسة، واستفاد أيضاً من أبحاثنا الأخلاقية، وكان مشغولاً بالدرس والتدريس في الحوزة العلمية المقدسة بقم... فعلى المؤمنين حفظهم الله أن يلتفوا حوله، ويهتدوا بهداه، وأوصيه ونفسي بتقوى الله والتزام جانب الإحتياط، والسلام عليه وعلى من بحضرته من المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

٥ صفر ١٤٢٥ هجرية

كاظم الحسيني الحائري

مقدمة المؤلف

لا يرتاب ذو عقل بأن الإنسان مؤلف من بعدين مادي وروحي وكما أنه لا بد للبُعد المادي (وهو الجسد) من غذاء وإلا فإنه سيضمحل ويتلاشى، فكذلك البعد الروحي لا بد له من غذاء وإلا فإنه سيبور ويضمح.

وغذاء كل شيء بحسبه، فغذاء البدن الطعام والشراب، وأما غذاء الروح فالحكمة والعلم فعن أمير المؤمنين عليه السلام: (قوت الأجسام الغذاء، وقوت العقول الحكمة، فمتى فقد أحدهما قوته بار واضمحل).

فمن لم يستوفِ حظّه من العلم والحكمة فقد قضى على روحه بالموت، وإن كان يأكل ويشرب ويتحرك..

ليس من مات فاستراح بميت وإنما الميت ميت الأحياء

فكل من استيقظ وتنبّه من نوم الطبيعة العميق تفطّن إلى أن أول درجات عروجه في عالم المعنى والإنسانية هو طلب العلم والحكمة يقول أمير المؤمنين عليه السلام: (كمال الدين طلب العلم والعمل به)[1].

ولكن الشأن أن نوفق للاشتغال بتحصيل العلوم النافعة التي تؤدي

(١) البحار ج ١، ص ١٧٥.

بنا إلى السمو الروحي والسعادة الحقيقية التي مآلها الخلود في النعيم الأبدي، فإن العلم كثير وأبوابه وفنونه تكاد لا تحصى عدداً، والعمر قصير لا يخوّل الإنسان إدراك جُلّه فضلاً عن كُلّه يقول أمير المؤمنين عليه السلام: (خذوا من كل علم أرواحه، ودعوا ظروفه، فإن العلم كثير، والعمر قصير)[1]، ويقول عليه السلام: (العمر أقصر من أن تعلم كل ما يحسن بك علمه، فتعلم الأهم فالمهم)، (والعلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك)[2]، فلا بد للعاقل إذن من الاشتغال بالأولى فالأولى من العلوم، ولا يشتغل بما لا طائل تحته تاركاً ما هو نافع وموصل إلى المقصد، ولا يضرب في الفضول ويترك المأمول.

إذن يجب أن نطلب من العلوم الأولى فالأولى.. والأهم فالمهم..

ولكن كيف نحدد الأولى من صنوف العلم وفنونه التي لا تحصى كثرة..؟؟

أقول للإجابة على ذلك لا محيص عن تحديد غاية الخلق أولاً، فإذا أدركنا الغاية التي خلقنا الله لأجلها عرفنا أن أولى العلوم بالطلب والتحصيل هو ما يوصل إلى تلك الغاية،

فليس أحمد للإنسان في طيات حياته من أن يرى نفسه منشغلاً في طريق الهدف، وعلى الصراط المؤدي إلى علة صنعه، والغاية من خلقه.. فما هي غاية الخلق..؟؟

إن الله تعالى خلق الإنسان وسخر له عالم الإمكان، يقول تعالى في محكم كتابه العزيز:

- ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾[3].

---

(١) نزهة الناظر وتنبيه الخاطر للحلواني ص ٩.

(٢) منية المريد ص ١٠٣.

(٣) سورة لقمان، الآية: ٢٠.

ـ ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾[1].

ـ ويقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[2].

خلق تعالى السماوات والأرض وسخر ما فيهما للإنسان، وخلق الموت والحياة كل ذلك ليبلوه في ميدان العمل، ويختبره في موارد الطاعة ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[3].

.. وألهم نفسه فجورها وتقواها، فهل يفلح بتزكيتها وترقيتها إلى مقام التقوى فيكون قد أكرمها؟ أم يتسافل ويهوي بها في مهاوي الخيبة فيكون قد دسّاها؟

فجعل تبارك وتعالى محل كرامته تقواه فقال عز من قائل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

وجعل الطاعة سبب تشريفها يقول الإمام السجاد عليه السلام: (فإن الشريف من شرفته طاعتك).

فغاية الخلق الطاعة العبادة والتقوى ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

فالتقوى هي ما نادى به الأنبياء بأجمعهم وكانت الغاية من بعثتهم إلى الخلق.

فهي دعوة الأنبياء جميعاً:

ـ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الشعراء: ١٠٦].

ـ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الشعراء: ١٢٤].

ـ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾﴾ [الشعراء: ١٤٢].

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ١٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٩.

(٣) سورة الملك، الآية: .

- ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾﴾ [الشعراء: ١٦١].
- ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الشعراء: ١٧٧].
- ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الصافات: ١٢٤].
- ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٤٤].

والتقوى هي خير الدنيا والآخرة فعن رسول الله الأعظم ﷺ: «من رزق التقى رزق خير الدنيا والآخرة»(١).

والتقوى هي رأس الأمر وسنامه ففي وصيته ﷺ لأبي ذر الغفاري: «عليك بتقوى الله فإنه رأس الأمر كله»(٢).

و«التقوى منتهى رضى الله من عباده، وحاجته من خلقه»(٣).

و«التقوى غايةٌ لا يهلك من أتبعها، ولا يندم من عمل بها، لأن بالتقوى فاز الفائزون، وبالمعصية خسر الخاسرون»(٤) (وستتضح عظمة التقوى بشكل جلي ومفصل في مقدمة الكتاب إن شاء الله).

فإذا ثبت أن غاية الخلق هي عبادة الله، وطاعته، وتقواه، وثبت أنه على العاقل أن ينشغل بمهمات العلوم، وأهم العلوم ما أوصل إلى الغاية، فإنه سيثبت أنه من أهم العلوم التي يلزم أن تطلب العلم الموصل إلى تقوى الله، فإنه أولى العلوم وأحقها بالطلب والنشر والتحقيق والبحث بعد علم العقائد الحقة، لأنه الطريق إلى التقوى التي هي سر الفوز في لعالمين (فمن رزق التقوى رزق خير الدنيا والآخرة)، وانه لا تقوى بلا علم، فعن إمامنا الصادق عليه السلام عن رسول الله ﷺ: «من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح»(٥).

---

(١) كنز العمال خ ٥٦٤١.
(٢) البحار ج ٧٠، ص ٩٨٩.
(٣) غرر الحكم.
(٤) كنز العمال ج ٤٤٢١٦.
(٥) أصول الكافي ج ١، ص ٤٤.

فأحرى بالمؤمن خلال هذا العمر القصير أن يدأب في تحصيل ما ينال به الفوز في دنياه وآخرته، دون أن ينفق ساعات عمره وسنيه فيما لا طائل تحته ولا ثمرة له من أبحاث لا تفيده في مقام تزكية النفس وسلامة القلب، وإلا فإنه سيندم يوم القيامة، يوم الحسرة والندامة، لأنه يومٌ لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم طاهر مزكّى.

أعتقد أنه أصبح جلياً لماذا اخترت هذا الباب من العلم للبحث والتصنيف..

فالتقوى في تحصيلها تحتاج إلى معرفةِ ما ينبغي فعْلُه من الخصال المحمودة، وبالمقابل ما يلزم تركه من أضداد تلك الخصال، فارتأينا أن نبحث في صفات وسمات المتقين ليكون العلم بها مقباساً يُستضاءُ به للوصول إلى حقيقة التقوى وتجسيدها في نفوسنا وأعمالنا وبالتالي لتحقيق الغاية من الخلق.

وبعد أن فكرت في نص جامع لسمات المتقين (على الإجمال) أَتَّخِذُه متناً معتبراً متلقَّفاً بالقبول أدرج عليه في هذه الأبحاث، لم أجد أجمع ولا أبلغ من كلام سيد المتقين وإمامهم أمير المؤمنين الإمام علي ابن أبي طالب عليه السلام في خطبته الخالدة الموسومة بخطبة المتقين، حيث انه عليه السلام كان في مقام بيان واستقصاء سمات المتقين لأنه أنشأها في مقام الإجابة لطلب مُلحٍّ من أحد العباد السالكين من أصحابه عليهم السلام وهو همّام حيث لم يكتفِ بالوصف الإجمالي للمتقين، بل التمس من الإمام التفصيل حيث قال: يا أمير المؤمنين صف لي المتقين حتى كأني أنظر إليهم. وخاصة بعد أن وجدت أن هذه الخطبة الرائعة لإمام المتقين عليه السلام الغزيرة في مضامينها الجزيلة في ألفاظها الراقية في عالم المعنى والسلوك والأخلاق، لم تُتَنَاول بالشرح الوافي، ولم أرَ من غار في بحرها القمقام، وجال في ميادين معانيها البعيدة المرام.

ولأجل حسن الاستفادة من أبحاث الكتاب أذكر بعض الملاحظات أرى أنه ينبغي التنبيه عليها:

١ ـ إن هذه الأبحاث التي بين يديك هي أبحاث عمليّة مجالها ميدانُ العمل، وهذا النمط من الأبحاث لا يكفي فيه مجرد تعلمه وإتقانه نظرياً، بل لا بد من التدبر فيه أولاً بعد تعلمه (فإنه لا خير في علم بلا تدبر)، من ثُم العمل به وإلا فسيكون وبالاً على حامله يوم القيامة فورد في روايات أهل البيت عليهم السلام:

أن أهل النار يتأذون من رائحة العالم غير العامل بعلمه.

وان العالم غير العامل بعلمه هو مستودع.

وأن من أشد الناس حسرة يوم القيامة رجل وصف خيراً وخالفه، أو رجل علّم العلم ولم يعمل به فدخل المتعلم الجنة بذلك العلم ودخل هو النار لتركه العمل بما علم.

ويقول تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ...﴾.

وفي تفسيرها ان الذي حُمِّل العلم أي تعلمه من قبل الرسول صلى الله عليه وآله ثم لم يَحْمله أي لم يعمل به، كمثل الحمار الذي نُحمّله كتباً، فإنه لا يدري حقيقتها ولا يعمل بما فيها.

وجاء رجل إلى الإمام علي بن الحسين عليه السلام فسأله عن مسائل، فأجاب، ثم عاد ليسأل مثلها، فقال علي بن الحسين عليه السلام: مكتوب في الانجيل: لا تطلبوا علم ما لا تعلمون ولمّا تعملوا بما عَلمتم، فإن العلم إذا لم يُعْمَل به لم يزد صاحبه إلا كفراً، ولم يزدد من الله إلا بعداً[1].

(١) منية المريد ـ الشهيد الثاني ص ١٤٦.

لذلك أنصح الأخوة المطالعين لهذه المطالب:

أولاً: بقراءتها بحثاً، بحثاً، أي يقرأ كل عنوان على حِدى وباستقلال، ثم يتدبر بمضامينه جيداً ويتمعن بمراميه، ولا تطالَع تصفحاً وسرداً، فهذه المطالب الأخلاقية تختلف عن غيرها في أن غايتها السلوك والتطبيق العملي، لذلك قد يقال لها الحكمة العملية، وقد يطلق عليها مدركات العقل العملي لأن من شأنها أن تطبق وتعمل.

ثانياً: أن يعكس القارئ هذه المفاهيم المطروحة على شخصيته ليرى مواقع الخلل والنقص في نفسه كي يعمد إلى إصلاحها.

ثالثاً: أن يشحذ سيف الهمة والإرادة والعزم لأجل مجاهدة نفسه وترويضها طبقاً لما يريده الشرع المبين، وأن يسعى جاهداً كي يصبغ ذاته بصبغة الله «ومن أحسن من الله صبغة..».

فكلما وجد شائبة في أخلاقه وسلوكه أصرّ على تغييرها منصاعاً ومسلماً لحكم الشريعة والعقل، وإلا فسوف لا يفيده العلم بالعلاجات نظرياً فحسب، تماماً كالذي يصف له الطبيب خلطة طبية كدواء فيعلم بموادها وطريقة مزجها إلا أنه لا يستعملها، فهل يا ترى سوف يفيده علمه ذاك ويشفيه من مرضه ما لم يقدم على تناول الدواء؟!!!

بل أكثر من ذلك فإن علمه سيكون حجة عليه وخزي وندامة يوم القيامة كما ورد في الحديث النبوي: (... فليكف وليمسك عن الحجة على نفسه، والخزي والندامة يوم القيامة).

رابعاً: إني أنصح بالعودة إلى مطالعة هذه المطالب من حين لآخر، وعدم الاكتفاء بقراءتها مرة واحدة، فإن من شأن الأمور التي لها علاقة بتزكية النفس وتهذيبها أن تكرر على الذهن كي تتحقق وتتمكن ملكة الفضيلة في النفس، وبهذا يفسر التكرار في الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة المتعلقة بالجانب التهذيبي.

٢ ـ قد يأخذ منك العنوان الواحد كي تستوفي مطالعته خمسة عشر دقيقة إلى ثلاثين دقيقة.. وإنك تسأل متى أستطيع تفريغ نفسي هذا المقدار من الوقت؟

أقول لك: كثيراً ما نتلف أوقاتنا الساعة، والساعتين، وربما الثلاثة بأحاديث جانبية، أو بأمور لا طائل تحتها، فلا نبخلنّ على أنفسنا بنصف ساعة نغذي فيها أرواحنا، ولنبتكر أساليب تروقنا، وأوقاتاً تناسبنا لذلك، فمثلاً ضع الكتاب قرب سريرك وعندما تأوي إلى فراشك أمسك به فقبل أن تستسلم للنوم تكون قد أنهيت مطالعةَ بحثٍ من أبحاثه.. أو جِدْ طريقةً تتلاءم مع ظروفك ومزاجك تجعلك تعتاد على المطالعة بمعدّل نصف ساعة إلى ساعة في اليوم على أقل تقدير.

٣ ـ حاول أن تتكلم مع زملائك وإخوانك في الموضوع الذي قرأته، فإنه مما يرسّخ المطلب في ذهنك، ويجعلك تلتفت إلى دقائق البحث ولوازم الأفكار المطروحة فيه.

٤ ـ اكتب بعض الأحاديث والروايات التي أعجبتك ولفتت انتباهك على ورقة صغيرة أو دفتر صغير ولتكن في جيبك، ثم حاول أن تحفظها كي تنمو ثقافتك وتتسع وتثرى موادك الحفظية.

٥ ـ إن أي بحث تتناوله في أي صفة وسِمَة من السمات ستجده بحثاً مستقلاً، لا يتوقف فهمه والاستفادة منه على مطالعة ما قبله ولا ما بعده من الأبحاث، وهذا يجعلك قادراً على الانتقائية في مطالعة الأبحاث التي بين يديك، أي لك أن تنتقي أي عنوان تحتاج إلى بحثه والاطلاع عليه دون أن تكون ملزماً بالتسلسل في مطالعة مطالب الكتاب.

٦ ـ إلفاتاً لنظر الاخوة المبلغين أقول: إن المفاهيم التي بين دفتي الكتاب يمكن أن تجعل سلسلة محاضرات أخلاقية وتربوية تقع موقع تأثير وفائدة في مجال التبليغ والدعوة إلى الله تعالى، وهذا ما قمت به

في أكثر من مكان ولاقى نجاحاً ملحوظاً، وانعكس تأثيره على نفوس وسلوكيات كثير من الاخوة والاخوات.

٧ ـ إن هذا الكتاب يتميز بجزالة أسلوبه وغزارة مضمونه، فلا يحذو حذو الأسلوب القديم في العرض الذي لا يخلو من إبهام أو صعوبة وإغلاق في العبارة مما لم يعد يتناسب مع متطلبات عصرنا التي من جملتها تسهيل العرض والبيان وعدم التعقيد في العبائر، وبنفس الوقت لم يعتمد أسلوب زيادة العبارة والألفاظ مع قلة المضمون مما يجعل الكتابة مبتذلة.

وهو يعتمد التحليل المعتضد بالنقل، المؤيد بالشواهد والقصص التي تقوي تأثير المطلب في النفوس، وتمنع تطرق الملل إلى القارئ.

ربنا لقد أتيناك ببضاعة مزجاة فأَوفِ لنا الكيل وتصدق علينا..

سيدي أتوجه إليك بولي أمرك القائم المؤمل...

سيدي يا سلطان العصر وإمام الزمان وولي نعمتنا، أرواحنا وأرواح العالمين لتراب مقدمك الفداء، أقدمك بين يدي حاجتي لتكون شفيعي عند ربي وربك في قبول هذا الجهد المتواضع في تبليغ شريعة جدك المصطفى محمد ﷺ، وفي أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وذخراً لي في يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار وترى كل نفس ما عملت من خير محضراً.

الفقير إلى رحمة ربه الغني
رضا علي حجازي العاملي
في غزة
ربيع الثاني ١٤٢٤هـ ـ ١/٦/٢٠٠٣م

مقدمة عن التقوى

- معنى التقوىٰ
- التقوىٰ في القرآن
- التقوىٰ لدى المعصومين عليهم السلام
- لماذا يطلب السالك التفصيل في معنى التقوىٰ وفي سمات المتقين؟

«مقدمة الكتاب»
التقـوىٰ

هي مناط كل فلاح، ومفتاح كل فوزٍ ونجاح، وأساس كل خيرٍ وسعادة في الآخرة وفي هذه الدنيا دار التكليف والكدح والكفاح، يقول النبي الأعظمﷺ: «من رزق التقوى رزق خير الدنيا والآخرة» [كنز العمال: خ ٥٦٤١]. وبعد أن نذكر معنى التقوى سوف نستدل على ذلك كله من خلال كتاب الله تعالى وأقوال المعصومينعليهم السلام.

التقوى ماذا تعني؟

التقوى مشتقةٌ من الوقاية، والوقاية هي حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره قال تعالى: ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي حفظهم منه.

وقال تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا...﴾ أي إحفظوا أنفسكم من ألم وعذاب النار.

والتقوى هي: جعل النفس في وقاية مما يخاف، هذا على العموم.

وأما التقوى في الاصطلاح الشرعي فهي:

حفظ النفس عما يؤثِم ويهلك وذلك بترك المحظور من المعاصي والآثام التي زجر الشرع عنها، وبفعل الواجبات والأمور الراجحة التي ندب الشرع إليها، وبالطبع إن للتقوى درجات أدناها ترك المحرمات

وفعل الواجبات ثمّ تترقى إلى ترك المكروهات بل وترك بعض المباحات (ومن رتع حول الحمى فحقيقٌ أن يقع فيه).

وإلى فعل المستحبّات والراجحات...

سئل الإمام الصادق عليه السلام عن تفسير التقوى فقال عليه السلام: «**أن لا يفقدك الله حيث أمرك ولا يراك حيث نهاك**» [البحار: ج ٧٠ ص ٢٨٥].

إن كل من كان ذا عقيدةٍ في الحياة لا بدّ أن يكون له أهداف وغايات يريد الوصول إليها وتحقيقها، وفي طيّ طريقه نحوها لا محيص عن وجود موانع وعوائق من شأنها أن تحول دون وصوله إلى مبتغاه، فلا بدّ أن يحفظ نفسه عنها وأن يتجنبها كي يتسنى له تحقيق أهدافه والوصول إلى غاياته.

وهذا الحفظ للنفس ـ في طريق السلوك نحو الهدف ـ عن موانع ومعوقات تحقيق الهدف هو التقوى، وهذا موجودٌ في كلٍ من أراد الخروج عن حدّ البهيمية إلى الإنسانية لذلك يوجد تقوى سياسية وتقوى اجتماعية... يجب على السياسي والإجماعي تحقيقها للوصول إلى غاياته السياسية أو الاجتماعية.

والتقوى في الشريعة لمن يعتنق الدين الحنيف هي حفظ النفس عن معوقات الوصول إلى السعادة الدنيوية والأخروية والحياة الحقيقية والفوز في كلا الدارين، وموانع ذلك ليس إلا المحذورات الشرعية فهي التي تكف الإنسان وتحجبه عن الوصول إلى مبتغاه وهو السعادة المنشودة لكلّ ذي عقل.

فالتقوى بشكلٍ أدق هي تلك القوة الروحية والملكة النفسانية المعنوية التي تقتضي الوقوف عند المحظورات ومنع تقحم النفس في مردياتها.

فالمتقي هو الذي يتبع مرضاة الله في إقدامه وإحجامه في تروكه وافعاله (واتّبَعُوا رضوان الله) وهو الذي يضبط نفسه ويملك زمامها عندما يهيج فيها خيال الهوى، وتعصف في قلبه رياح الشهوات المهلكة، ويزين له الشيطان فعلها ويحسن له اقتحامها، فإنه يقف في وجه أعاصير الهوى والشيطان حافظاً لنفسه عن الوقوع في حبالتها يَردّ عنها ويقيها، ومع ذلك يحلّيها بالفضائل وخصال الخير والصلاح كي تَرِد آمنةً فتنال كل سرور وسعادة في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدرٍ في الآخرة، وتنال الحياة المعنوية والسعادة الروحية والطمأنينة والسكينة في الدنيا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ...﴾.

«اعلموا عباد الله إن المتقين ذهبوا بعاجل الدنيا وآجل الآخرة، فشاركوا أهل الدنيا في دنياهم، ولم يشاركوا أهل الدنيا في آخرتهم، سكنوا الدنيا بأفضل ما سُكِنَت وأكلوها بأفضل ما أُكِلَت فحظوا من الدنيا بما حَظِيَ به المترفون وأخذوا منها ما أخذه الجبابرة المتكبرون، ثم انقلبوا عنها بالزاد المبلّغ، والمتجر الرابح، أصابوا لذة زهد الدنيا في دنياهم وتيقنوا انهم جيران الله غداً في آخرتهم» [نهج البلاغة: كتاب ٢٧].

مع القرآن في نظرته إلى التقوى

☐ التقوى طريق الوصول إلى الفلاح والفوز:

قال تعالى: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩].

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠].

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

- البر والخير في التقوى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ﴾.

- التقوى ترفع أصحابها يوم القيامة: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [البقرة: ٢١٢].

- إن الله مؤيد المتقين وهو معهم:

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣].

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

والملاحظ في هاتين الآيتين الشريفتَين وجود الأمر من رب لعزة تبارك وتعالى بتحصيل العلم بكونه تعالى مع المتقين يرعاهم بألطافه الخفية، والجلية ويؤيدهم وينصرهم، وعدم الاكتفاء بالظن والوهم دون العلم واليقين بذلك.

وهذا الحث منه تعالى على تحصيل العلم بذلك لما فيه من إحداث السكينة في قلوب المؤمنين والاطمئنان إلى العاقبة المحمودة.

☐ **التقوى سبب النجاة في الدنيا والآخرة:**

- ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النمل: ٥٣].
- ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ [فصلت: ١٨].
- ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم: ٧٢].
- ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الزمر: ٦١].

☐ **التقوى تنفي الخوف والحزن عن أصحابها:**

- ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥].

☐ **التقوى توجب تيسير صاحبها لليسرى:**

- ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥].

☐ **التقوى توجب الأجر العظيم من الله تعالى وتكفير السيئات:**

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٢].

- ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥].

☐ **المتقون جزاؤهم الجنة وهم في مقعد صدق عند مليك مقتدي:**

- ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾...﴾ [الذاريات: ٢٥].
- ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [الطور: ١٧].

- ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤].

- ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾ [القلم: ٣٤].

- ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [المرسلات: ٤١].

- ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ [النبأ: ٣١].

- ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [آل عمران: ١٥].

- ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ...﴾ [الزمر: ٢٠].

☐ التقوى تستجلب بركات السماء والأرض:

- ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

☐ التقوى توجب التذكر والإبصار:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

☐ التقوى توجب الأمن من كيد الأعداء:

- ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا...﴾ [آل عمران: ١٢٠].

☐ التقوى توجب المغفرة من الله والرحمة منه تعالى:

- ﴿وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٢٩].

ـ **إن التقوى من عزم الأمور:** ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

□ **التقوى تحدث في نفس المتقي قوةً يَفْرُق بها بين الحق والباطل:**

ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩].

فالتقوى تنير البصيرة وتحدث في القلب قوة التمييز بين الحق والباطل في الاعتقادات وفي ميدان العمل، فالوصول إلى الحق يحتاج إلى مبتنيات في شخصية المرء فلا يمكن للمرآةِ الكدِرة أن تعكس صورةً صافيةً واضحة، ولا يمكن للنفس المقبلة على الشهوات المنهَمِكة بالمعاصي أن تهتدي إلى الحق في خِضَمّ الشُبُهَات التي قد تكون كقطع الليل مظلمة، فإن الإنسان يحتاج إلى تحكيم العقل في أفعاله وتروكه فإذا أخذ العقل زمام المبادرة في سلوكيات المرء يصل المرء إلى الصواب ولكن إذا حالت دون أحكام العقل الموانع كانت بمثابة الضجيج الذي يحول دون سماع صوته، وكالغبار المثار أمام الناظر فيحجبه عن الرؤيا فعن رسول الله ﷺ: «. . **رب ذي عقل أشغله هواه عما خلق له حتى صار كمن لا عقل له**»[1] فاتباع الهوى والشهوات يجعل غشاوةً أمام العقل تحول دون الوصول إلى الصواب، والهوى هو عدو العقل، والعقل هو صديق الإنسان، يقول الإمام علي عليه السلام: «**صديق كل امرئ عقله وعدوه جهله**» فالهوى سيكون عدو الإنسان لأنه عدو الصديق وعدو الصديق عدو، يقول عليه السلام: «**أعداؤك ثلاثة: عدوك، وعدو صديقك، وصديق عدوك**» فإذا نهيت النفس عن الهوى وتخلصت من حباله سوف تكون قد قضيت على عدو عقلك أي عدو صديقك، وسيحكم عقلُكَ

(١) إرشاد القلوب.

حينئذٍ حكمَه من دون أيّ مانعٍ أو مشوش على حكمه، والذي يدفع عن العقل عدوه (الهوى واتباع الشهوات) ليس إلا التقوى هذه القوة المعنوية الروحية التي ترفض الشهوات المرجوحة وتدفع المرء عن ارتكاب المعاصي والمآثم. وعليه فالتقوى هي التي تجلي حكم العقل، وتكشف غبار البصيرة لتكون نافذةً لامعةً قديرةً على تشخيص الحق وتمييزه عن الباطل.

فاتضح إذن كيف تكون التقوى سبباً لتواجد الميزان الصحيح والفرقان القويم في القلب الذي يكشف عن الواقع السليم فيرجحه ويجري على مقتضاه ويجعل الأمر الباطل السقيم في خانة الهجران والرفض ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾.

☐ **التقوى غاية العبادة:**

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة: ١٨٣].

☐ **التقوى دعوة جميع الأنبياء:**

- ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الشعراء: ١٠٦].

- ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الشعراء: ١٢٤].

- ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾﴾ [الشعراء: ١٤٢].

- ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾﴾ [الشعراء: ١٦١].

- ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الشعراء: ١٧٧].

- ﴿وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الصافات: ١٢٤].

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٤٤].

□ **التقوى إحسان وأصحابها لا يَضِيع أجرهم في الدنيا والآخرة:** ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

□ **التقوى سبب العلم الإلهي:** ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

□ **بالتقوى يكون العبد شاكراً لخالقه:** ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣] «اعملوا آل داوود شكراً...».

□ **التقوى وصية الله إلى خلقه من الأولين والآخرين:** ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

□ **التقوى هي دليل صدق إيمان الإنسان:** ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧].

﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ١١٢].

□ **التقوى تستنزل الرحمة الإلهية:** ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

□ **التخويف للعباد غايته التقوى:** ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦].

□ **التقوى تجنب صاحبها النار:** ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾...﴾ [الليل: ١٧].

□ **التقوى ميزان الكرامة عند الله:** ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

□ **التقوى خير الزاد:** ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

□ **التقوى توجب العاقبة الحسنة:** ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

﴿فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

□ **التقوى تؤدي بصاحبها إلى جنّات الخلد:** ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ﴾ [الفرقان: ١٥].

□ **التقوى تفتح طريق الاهتداء بالقرآن الكريم:** ﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١ ـ ٢].

□ **التقوى توجب محبة الله للعبد المتقي:** ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [آل عمران: ٧٦].

﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤].

﴿فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

□ **الذي يتعظ بالمواعظ هو صاحب التقوى:**

﴿هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [آل عمران:].

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

□ **التقوى توجب قبول الأعمال لدى المولى:** ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

☐ **المتقون يحشرون إلى الرحمن وفدا:** ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥].

☐ **إن الذين يستفيدون من الفرقان ويكون لهم ضياءٌ وذكرى هم المتقون:** ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

☐ **الآخرة بما فيها للمتقين:** ﴿وَٱلْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

☐ **التقوى توجب المقام الأمين:** ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾﴾ [الدخان: ٤٤].

☐ **التقوى توجب صلاح الأعمال وغفران الذنوب:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠].

☐ **الله يجعل مخرجاً للمتقي من المضائق ويرزقه من حيث لا يحتسب:** ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ...﴾.

وأما المعصومون عليهم السلام فماذا يقولون عليهم السلام في التقوى؟

لقد تظافرت الروايات عن المعصومين عليهم السلام التي تحث على التقوى وتبين أهميتها وكونها رأس الأمر كله وأن فيها خير الدنيا والآخرة:

☐ فعن رسول الله الأعظم صلى الله عليه وآله: «**من رزق التُّقَى رُزِقَ خير الدنيا والآخرة**» [كنز العمال: خ ٥٦٤١].

وفي وصيته صلى الله عليه وآله لأبي ذر الغفاري: «**عليك بتقوى الله فإنه رأس الأمر كله**» [البحار: ج ٧٠ ص ٩٨٩].

وهاتان الروايتان تبينان بأبلغ بيان وأوجزه وأخصر طريقة وأوضحها كيف أن التقوى هي بيت القصيد وأنها الهدف المنشود الذي يفوز من يظفر به ويصل إليه. فهي مختصر وجامع لإرشادات الأنبياء ومواعظهم وتوصياتهم للفوز بسعادة الدارين.

ـ ويقول صلى الله عليه وآله: «**من اتقى الله عاش قوياً وسار في بلاد عدوه آمناً**» [البحار: ج ٧٠ ص ٢٨٣].

ـ ويقول صلى الله عليه وآله: «**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**» [الترغيب: ج ٣ ص ٦١٢ ـ ٦١٣].

ـ ويقول صلى الله عليه وآله: «**كن بالعمل بالتقوى أشد اهتماماً منك بالعمل بغيره**

فإنه لا يقل عمل بالتقوى، وكيف يقل عمل يتقبل لقول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾» [البحار: ج ٧٠ ص ٢٨٦].

ـ ويقول عليه السلام: «لو أن السماوات والأرض كانتا رتقاً على عبدٍ ثم اتقى الله لجعل الله له منهما فرجاً ومخرجاً» [البحار: ج ٧٠ ص ٢٨٥].

ـ وروي عنه عليه السلام: «خصلة من لزمها أطاعته الدنيا والآخرة، وربح الفوز بالجنة قيل: وما هي يا رسول الله قال: التقوى، من أراد أن يكون أعزّ الناس فليتق الله عزّ وجل ثم قال: ومن يتقي الله يجعل له مخرجاً».

ـ وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «اتقوا الله حقّ تقاته: أن يُطَاع فلا يعصى ويُذكَر فلا ينسى» [الدر المنثور: ج ٢ ص ٥٩].

☐ وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام:

ـ «إن التقوى أفضل كنز، وأحرز حرز، وأعز عزّ، فيه نجاة كُلِّ هارب ودَرْكُ كل طالب، وظَفَرُ كلِ غالب» [البحار: ج ٧٧ ص ٣٧٤].

ـ «التقوى غايةٌ لا يهلك من اتبعها، ولا يندم من عمل بها، لأن بالتقوى فاز الفائزون، وبالمعصية خسر الخاسرون» [كنز العمال: ج ١٦ ص ٤٤٢].

ـ وسئل عليه السلام أيّ عملٍ أفضل؟ فقال: «التقوى» [البحار: ج ٧٠ ص ٢٨٨].

ويقول عليه السلام: «أوصاكم (أي ربكم) بالتقوى، وجعلها منتهى رضاه، وحاجته من خلقه فاتقوا الله الذي أنتم بعينه، ونواصيكم بيده» [نهج البلادة: خ ١٨٣].

ـ «التقوى منتهى رضى الله من عباده، وحاجته من خلقه» [غرر الحكم].

أقول: إذا تأمل المتأمل بهاتين الروايتين الأخيرتين يصل إلى جواب سؤال يطرحه كلُّ ذي لُبّ آمَنَ بالله وباليوم الآخر وهو: أن الإنسان بعد التوحيد يتوجه همُّه إلى تحقيق طاعةِ المولى والوصول إلى رضاه فيقف سائلاً ما الذي يحقق هذا الهدف والغاية المقدسة وماذا يريد تعالى وما حاجته من خلقه؟؟ وأمير المؤمنين عليه السلام يبيّن الجواب عن هذا السؤال فيقول عليه السلام إن منتهى رضى الله على عباده هو بأن يتقوا، وإن حاجته تعالى من خلقه أن يتقوه، فيبقى على العبد بعد أن عرف ما يحقق رضاه تعالى أن يبذل قصارى جهده في هذه الدنيا التي هي رأس ماله للحصول على التقوى وبالتالي على رضا الله تعالى فإنه يقول عليه السلام:

- **«أوصيكم عباد الله بتقوى الله التي هي الزاد وبها المعاد، زاد مبلغٌ ومعادٌ منجح»** [نهج البلاغة: خ ١١٤].

- **«أوصيكم عباد الله بتقوى الله فإنها خير ما تواصى العباد به، وخير عواقب الأمور عند الله»** [النهج: خ ١٧٣].

- **«أوصيكم عباد الله بتقوى الله، فإنها الزمام والقوام، فتمسكوا بوثائقها، واعتصموا بحقائقها»** [النهج: خ ١٩٥].

- **«أوصيكم بتقوى الله فإنها حق الله عليكم والموجبة على الله حقكم، وأن تستعينوا عليها بالله، وتستعينوا بها على الله... ألا فصونوها وتصوَّنوا بها»** [النهج: خ ١٩١].

- **«أوصيكم بتقوى الله... وأشعروها قلوبكم، وارحضوا بها ذنوبكم... ألا فصونوها وتصونوا بها»** [النهج: خ ٢٧].

أقول: إن في الروايتين الأخيرتين مطلب مهم جداً هو من خصائص التقوى وهو أن العبد يستعين على التقوى بالله وبالمقابل يستعين بالله على التقوى، وأنه يحفظها ويصونها وفي نفس الوقت يصون نفسه ويحفظها بواسطتها، ألا يشعر هذا بالتنافي يا ترى لأنه سيرجع

المحفوظ حافظاً والحافظ محفوظاً في ذات الوقت فالعبد هو الحافظ للتقوى ومحفوظ بها، والتقوى حافظة للعبد ومحفوظة به؟؟

والجواب: أنه إذا كان النظر إلى الحافظية والمحفوظية من حيثيتين يرتفع التنافي الظاهر بدواً، فإن الإنسان يبذل جل وسعه كي يحافظ على التقوى وذلك يتطلب منه حذراً شديداً وجهاداً للنفس متواصلاً مريراً فإذا حصَّل التقوى وحافظ عليها كان الله تعالى عاضداً له ومعيناً وحافظاً وناصراً: «**إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون**» فمن يحافظ على التقوى كان الله معه ومن كان الله معه لا يذل ولا يخزى بل يكون في مقام أمين: «**إن المتقين في مقام أمين**».

فالعبد يبادر أولاً إلى تحصيل التقوى والمحافظة عليها، وهذا يكون بتوفيق الله وعونه وألطافه (واستعينوا عليها بالله)، والنتيجة أن التقوى ستكون نعم العون على الله أي على ثواب الله الجزيل، والخلاص والنجاة من عقابه «وأن تستعينوا عليها بالله (باستدرار رحمته وعطفه وألطافه) «وتستعينوا بها على الله» (أي على نيل ثوابه والأمن من عقابه) فصونوها وحافظوا عليها كي تصونكم في الدنيا والآخرة.

أما في الدنيا فإن التقوى تصون العبد لأنها توجب بصيرة نافذة في النفس تنجي العبد من الشبهات فيرى الحق حقاً فيتبعه ويرى الباطل باطلاً فيجتنب عنه: «**اعلموا أن من يتق الله يجعله له مخرجاً من الفتن ونوراً من الظلم**» [النهج: خ ١٨٣].

وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله: «**أنه من يتق الله يجعل له مخرجاً من شبهات الدنيا**» [مجمع البيان: ج ١٠ ص ٣٠٦].

وكذلك بالتقوى جعل الله مخرجاً للعبد من المصائب والبلايا.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**يا أبا ذر... لو أن السماوات والأرضين كانتا على عبد رتقاً ثم اتقى الله لجعل الله له مخرجاً**».

وقال عليه السلام: «**إن تقوى الله دواء داء قلوبكم وبصر عمى أفئدتكم، وشفاء مرض أجسادكم، وصلاح فساد صدوركم، وطهور دنس أنفسكم، وجلاء غشاء أبصاركم، وأمن فزع جأشكم، وضياء سواد ظلمتكم**» [نهج البلاغة: خ ١٩٨].

«**... فمن أخذ بالتقوى... هطلت عليه الكرامة بعد قحوطها وتحدَّبَتْ عليه الرحمة بعد نفورها، وتفجرت عليه النعم بعد نضوبها. ووبلت عليه البركة بعد إرذاذها**» [نفس الخطبة].

ويقول عليه السلام: «**التقوى حصن حصين لمن لجأ إليه**» [غرر الحكم].

- «**الجأوا إلى التقوى فإنها حصن منيعة من لجأ إليها حصنته ومن اعتصم بها عصمته**» [غرر الحكم].

- «**اعلموا عباد الله أن التقوى دار حصن عزيز، والفجور دار حصن ذليل، لا يمنع أهله ولا يحرز من لجأ إليه**» [النهج: خ ١٥٧].

- «**إن التقوى في اليوم الحرز والجنة، وفي غد الطريق إلى الجنة مسلكها واضح وسالكها رابح**» [النهج: خ ١٩١].

- «**التقوى مفتاح الصلاح**» [غرر الحكم].

فكأن الصلاحَ بيتٌ إذا أردت أن تدخله لا بد لك من فتحه والفتح لا يكون إلا بمفتاح وهو التقوى. فلا تدخل بيت الصلاح وتتلبس بسيماء الصالحين إلا بعد تحليك بالتقوى، فهي مفتاح مقامات الصالحين والأولياء.

- «**إن تقوى الله مفتاح سداد، وذخيرة معاد وعتق من كل ملكة، ونجاة من كل هلكة، بها ينجح الطالب، وينجوا الهارب وتنال الرغائب**».

وفي هذه الرواية أيضاً تركيز على أن التقوى هي مفتاح التوفيق

والتسديد من الله تعالى فمن أراد دخول دار الصالحين من دون تقوى فإنه سوف يبقى يحوم حوله ولا يسدّد للدخول إليه، كالذي يدور حول بيت ليدخله ولم يحصل على مفتاحه فإن النتيجة أنه سيبقى خارج الدار.

وأيضاً في الرواية دلالة على أنه بالتقوى يكون الانعتاق من ربقة الشهوات والملكات التي تستعبد عقل الإنسان وتنحدر به إلى حضيض البهيمية بعد أن كان مؤهلاً للارتقاء إلى قمة التحرر والإنسانية، فإن التقوى هي تعتقه من تلك النزعات لتجعله في حرز وفي حصن مالكاً لقراره، حراً في موقفه لا تخضعه حفنة مال، ولا يخدعه بريق الدرهم والدينار، ولا يُسْكِرُهُ حبُّ الجاه والترأس، ولا يغريه سحرُ غريزة... فالتقوى دار حصن عزيز والفجور دار حصن ذليل، لا يمنع أهله ولا يحرز من لجأ إليه.

يقول عليه السلام: «**الجأوا إلى التقوى فإنها جنة منيعة من لجأ إليها حصنته ومن اعتصم بها عصمته**».

فهذه التعابير المتعددة التي وردت في ألسنة الشرع: كالعصمة، والانعتاق من كل ملكة غير صالحة، والعزة، والتحصن، والتحرز، ونُعِتَ بها صاحب التقوى أو كانت منبثقة عن التقوى ترجع كلها في الحقيقة إلى أمر في غاية الأهمية يمثل مبدأ مهماً من مبادئ الشريعة وهو أن الله تعالى قد خلق الخلق وقضى (تبارك وتعالى) بحكمه وبمحكمته أن تكون الحياة الحقيقية، وكل المفاهيم المرتبطة بالإنسانية، والقيم، كالعزة، والكرامة، والشرف، والحرية... الخ هي وليدة ومستبْطَنَة لشيء واحد هو طاعة الله جل شأنه.

«**فإن الشريف من شرفته طاعتك والعزيز من أعزته عبادتك**».

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ...﴾.

- ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾.

فإن الحياة والسعادة الحقيقيتين يكمنان في الاستجابة لدعوة الله تعالى ورسوله أي لطاعته تعالى، ومن يعرض عن ذكر الله تعالى فلا يطمحَنّ لسعادة بل تنتظره معيشة ملؤها الضنك والضيق والشقاء...

هكذا قضى وأراد رب العالمين، ومن يتق الله تعالى فقد حقق تلك الغاية المنشودة وهي طاعته تبارك وتعالى وقطع دابر الخطايا: «ألا وبالتقوى تقطع حمة الخطايا» وبشكل تلقائي سوف يحصل إذن كل ما يترتب على التقوى كنتيجة لقانون إلهي رباني فإن المتقي سيتحول إلى إنسان حرٍ معتَق من الملكات الفاسدة، عزيز متحصن من الشبهات، «**فمن أخذ بتقوى الله هطلت عليه الكرامةُ بعد قحوطها، وتحدّبَت عليه الرحمة بعد نفورها، وتفجرت عليه النعم بعد نضوبها، ووبلت عليه البركة بعد إرذاذها**» [خطبة ١٩٨].

«**إن تقوى الله دواء داء قلوبكم، وبصر عمى أفئدتكم، وشفاء مرض أجسادكم، وصلاح فساد صدوركم، وطهور دنس أنفسكم، وجلاء غشاء أبصاركم، وأمن فزع جأشكم، وضياء سواد ظلمتكم**» [خطبة ١٩٨].

فإن هذه المعاني سوف تراها حتى بمن هجرته العناوين البراقة في الدنيا وحتى بمن لم يدع له الدهر ذهباً يختزنه، ولا دراهم يكنزها، فإنك سترى المتقي عزيزاً بلا عشيرة وغنياً بلا مال...

«**من أراد عزاً بلا عشيرة وغنى بلا مال وملكاً بلا سلطان فلينتقل من ذل معصية الله إلى عز طاعته فإنه واجد ذلك كله**» وبالمقابل إن المتلبس بمعاصي الله تعالى العاكف على لذاته ومشتهياته المحرمة سوف تجده ذليل النفس فقيرها، جزعاً في المُلّمات، دائم الاضطراب حتى في حالة الغنى والعز الظاهريين، تأسره الشهوات فيظهر أبشع من عبد الرق

«**عبد الشهوة أقبح من عبد الرق**» «**ما أقبح بالمؤمن أن تكون له شهوة تذله**» فهو أذل من عبد الرق لأن الأخير يملكه شخص واحد، ولكن عبد الشهوات هو ريشة في مهب ريحها، فإن بطنه تملكه فتذله أكلة، وإن فرجَه يملكه فيجعله أسير الهوى، فيذهب ماء وجهه وكرامته، وإن حبه للشهرة والبروز يملكه فيجعله يقتحم كل سدود القيم للوصول إلى لقب أو إلى سيطرة قد تدوم أياماً وتزول،.. فهو مسترَقٌ دائماً وفي كل الأوقات، وهو ذليل في الواقع وإن كان عُمْشُ العيون قد يرونه ببريق دنانيره، أو جاذبية ألقابه عزيزاً، ففي المناجات:

«**إلهي ألبستني الخطايا ثوب مذلتي، وجللني التباعد منك لباس مسكنتي وأمت قلبي عظيم جنايتي**» فالعز والشرف والكرامة بالطاعة والتقوى فحسب، والمذلة لاصقة بصاحب الخطايا المقيم عليها، وهذه إرادة الله تعالى، وأظن أن هذا المطلب المهم جداً قد اتضح بما لا يلابسه شك، فليلجأ العاصي إلى التوبة وليتجلبب بجلباب التقوى والطاعة لله وليدخل حصنها الحصين ودارها العزيز المنيع فإنها النجاة للهارب وبها ينجح الطالب وتنال الرغائب..

ولا يَظُنّنَّ بأنه إذا التجأ إلى التقوى وطاعة الله سوف يجلس في صومعة تاركاً الدنيا بما فيها، بل إن الذي ينظر بعين البصيرة يجد بأن المؤمن المتقي لا يفوته شيء من الطيبات في الدنيا وإنما الذي حُرِّمَ عليه هو الخبائث والفواحش «**قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن..**» «**يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث**» وبالمقابل فإنه تعالى يقول: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ * قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾.

فأهل التقوى لا ينبذون من الدنيا إلا خبائثها وفواحشها وأما

طيباتها فإنهم يأخذونها حلالاً طيباً ويتمتعون بها، ويشاركوا أهل الدنيا فيها، يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«اعلموا عباد الله إن المتقين ذهبوا بعاجل الدنيا وآجل الآخرة فشاركوا أهل الدنيا في دنياهم، ولم يشاركوا أهل الدنيا في آخرتهم، سكنوا الدنيا بأفضل ما سُكِنت، وأكلوها بأفضل ما أُكِلَت، فحظوا من الدنيا بما حظي به المترفون، وأخذوا منها ما أخذه الجبابرة المتكبرون، ثم انقلبوا عنها بالزاد المبلّغ، والمتجر الرابح، أصابوا لذة زهد الدنيا في دنياهم، وتيقنوا أنهم جيران الله غداً في آخرتهم» [نهج البلاغة: كتاب ٢٧].

إلى هنا اتضح نقلاً وتحليلاً بما لا يعتريه شك ولا شبهة كيف أن خير الدنيا والآخرة وسعادتهما يكمنان في التقوى، وقد أُمرنا أن نتقي الله حق تقاته **«يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون»** وعن ابن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وآله: **«اتقوا الله حق تقاته أن يُطاع فلا يعصى، ويُذكَر فلا ينسى»**.

وعن أبي بصير قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله تعالى اتقوا الله حق تقاته قال عليه السلام: **«يُطاع فلا يُعصى، ويذكر فلا يُنسى، ويُشكَر فلا يكفر»**.

وبعد العلم بذلك ينقدح في النفس حالةٌ تُهيّجُ النفسَ وتدفعُها لبذل الوسع وقصارى الجهد من أجل التحلي بالتقوى والوصول إلى مقام المتقين، وذلك للفوز بخير الدنيا والآخرة فيأتي فوراً إلى الذهن سؤال يطلب جواباً بإلحاح وهو ما راود همَّام[1] طويلاً حتى طرحه على أميره

(١) أحد الزهاد المتعبدين من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام الذي كانت خطبة المتقين إحدى بركات سؤاله الذي سأله للإمام عليه السلام إذ قال له: يا أمير المؤمنين صف لي المتقين حتى كأني أنظر إليهم.

وأمير المؤمنين عليه السلام وهو السؤال عن صفات وسمات المتقين التي من تحلّى بها وتجلبب بجلبابها كان في عداد المتقين وسلكهم، ينال ما ينالون، له ما لهم وعليه ما عليهم. قال يا أمير المؤمنين صف لي المتقين حتى كأني أنظر إليهم، وقد يجاب بادئ ذي بدء بجواب مجمل يختصر التقوى بجملات قصيرة في اللفظ جزيلة في المعنى والمضمون مثلاً كالرواية الأخيرة التي تفسير تقوى الله حق تقاته بأن:

«يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر».

أو كراوية إمامنا الصادق عليه السلام عندما فسر التقوى بقوله:

«أن لا يفقدك الله حيث أمرك، ولا يراك حيث نهاك».

أو كما أجاب أمير المؤمنين عليه السلام همام: **«يا همام اتق الله وأحسن فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون»**.

ولكن هذا الإجمال لا يشفي غليل طالب الحقيقة المتجرد لها، الملتمس العروج نحو الكمال، الذي يعيش هم الوصول إلى مرضاة الله تعالى، فإنه لا يقنع بهذا المقدار كما لم يقنع همام بهذا القدر الموجز من قول أمير المؤمنين حتى عزم عليه بالتفصيل فاستجاب له الإمام عليه السلام.

السالك المريد لماذا يطلب التفصيل؟

ـ إنما يطلب السالك التفصيل في صفات المتقين **«صف لي المتقين حتى كأني أنظر إليهم»**:

أولاً: لأنه يريد بجدّ الوصول إلى الغاية وهي **«تقوى الله حق تقاته»** والذي يكون جادّاً في طلب المبتغى تراه يدخل جداً بتفاصيل العناوين المساعدة على الوصول. بخلاف من لا تهمه الغاية كثيراً فإنك تراه غير مكترث للتفاصيل وإن أُملِيَتْ عليه بل قد يضيق صدره بها.

فمثلاً التاجر الذي يريد أن يزور مركزاً تجارياً مهماً في بلد لم

يسافر إليه من قبل، فإنك تراه يسأل بدقة مَنْ سافر قبله إلى ذلك البلد عن تفاصيل العناوين والأمور التي تسهّل الوصول إلى مقصده، وقد تشاهده يُحضر قلماً وقرطاساً يكتب بعض الأرقام والأسماء حرصاً منه على عدم نسيانها، بخلاف من لا تهمه التجارة ولا ذلك المركز التجاري شيئاً فإنه ينتظر انتهاء ذلك الحديث بل قد يتأفف من التاجر السائل ناسباً إليه الإطناب والتطويل في السؤال عن هذا الأمر. فكذلك السالك إلى الله الذي يهمه الوصول إلى التقوى، فإنك تراه منهمكاً بجمع التفاصيل التي تعينه وتسهل عليه الوصول إلى المبتغى بخلاف الذي لا يأخذ المعادلة الأخروية بجد، ولا يتعاطى معها تعاطي الموقِن، فإنه قد لا يتفاعل مع سرد التفاصيل ويكتفي بالعام المجمل بل باللون الباهت العام لمفهوم التقوى.

وثانياً: إن المهتم بإحراز التقوى التي هي بيت القصيد، وسنام الأمر يعلم جيداً أن دونها الصعوبات، والمطبات والشبهات، واختلاط الحق بالباطل، والشيطان بالمرصاد يصول ويجول في ميدان القلب، والنفس الأمارة بالسوء تعاضده بهواها المهلك، فقد يشتبه عليه الأمر في بعض الموارد ولا يستطيع الجزم بما هو الصواب لتقارب الدعاوي ولكون كل دعوى حاملة لما يُدّعى دليلاً لها، فصاحب هذه الدعوى يقول التقوى تفرض القيام بالعمل الفلاني، وصاحب تلك الدعوى يقول بل من تحلّى بالتقوى وصفات المتقين فعليه فعل خلاف ذلك، وكلٌ يدَّعي وصلاً بليلى، وكلٌ يدعي أنه يطيع الله تعالى ويعمل لمرضاته ولمصلحة الشريعة المقدسة، فإن كان ـ والحالة هذه ـ يوجد تحديد وتفصيل لصفات المتقين بما هو صريح لا يقبل الحمل على محامل متعددة لإجماله، فإن السالك المريد سوف تتضح له معالم الحق بأدنى تأمل فيعرف الصواب فيتبعه ويجتنب عن الدعوى الباطلة المتلبِّسَة بلباس الحق، وعليه فمع تفصيل حدود التقوى سيسلك المؤمن سبيل التقوى

بوضوح وبدون التواءات، بخطىً أسهل وأسرع في الوصول إلى الاكتمال كاشفاً القناع عن وجه الحقيقة والصواب، طارداً بذلك الشكوك والشبهات التي هي لواقح الفتن ومكدرة لصفو المنائح والمنن.

فكم من أشخاص ضللوا لاتباعهم أناساً وحسن ظنهم بهم وبما يفعلون، مع أنهم في الواقع لم يكونوا من المتقين، وإنما ضلَّ بهم من ضلَّ لجهلهم الصفات الحقيقية للتقوى والمتقين، فلو كانوا قد أدركوها وعقلوها لرفضوا أولئك وحكموا عليهم بالضلال.

وثالثاً: إن المؤمن يطلب التفصيل في صفات المتقين ليقيّم سلوكه، ويحدِّد درجته، ويرى أين هو على طريق العروج الروحي والاكتمال الأخلاقي، ثم ليتدارك تقصيره بعد رفع حجاب الغرور والعجب عن قلبه، فغالباً بعد سرد تفاصيل التقوى وما يَتَحَلّى بهِ الكُمَّل من المتقين، يتصاغر المرء أمام نفسه، ويشعر بتقصيره وبأنه أمام بحر متلاطم من الفضائل لا بد له لكي يصل إلى منتهاه من خوض عبابه ومصارعة أمواج الهوى والشيطان فيه. مع أنه ينظر إلى نفسه لا يزال على شاطئه تتكسر منتهى أمواجه على أطراف قدميه بمنتهى الهدوء!

وهذا الشعور بالقصور مع الشوق إلى الكمال والخوف من انتهاء المدة قبل التأهب والعدة، شعور قاتل عند من اشتعلت الحقيقة في قلبه، وكان «**من اليقين على مثل ضوء الشمس**» [نهج البلاغة: خ ٨٦]، وكان من أهل المواعظ كهمّام صاحب أمير المؤمنين عليه السلام فإنه بعد إتمام الإمام عليه السلام وصفه للمتقين صَعَقَ هَمَّامُ صعقةً كانت نفسُه فيها فقال عليه السلام: «هكذا تفعل المواعظ بأهلها، أما إني كنت أخافها عليه».

وأمَّا مَنْ دون همّام في درجته فإنه ينتفع من ذكر «سمات المتقين» بالتذلل في النفس وذهاب العجب عن القلب، والاشتغال بتدارك

التقصير، والنظر إلى نقص النفس وعيبها، وصرف النظر عن عيوب الناس فإنه لا شيء أفسد لدين المرء من العجب، ولا شيء يقف في طريق الاكتمال كالغرور فإنه مقبرة النجاح، وقاطع لطريق التسامي والعروج.

ولا يخفى على ذي مسكة أنه أروع وأجمل ما يمكن أن يجعل متناً للغوص في سمات المتقين هو كلام إمامهم (إمام المتقين) ويعسوب الدين سيدنا ومولانا أمير المؤمنين عليه السلام، وذلك من خلال خطبته في نهج البلاغة الموسومة بخطبة المتقين، وهي منقولة بمضامينها في مصادر أخرى معتبرة. فلنشرع بمعونة الله تعالى متوكلين عليه مستمدين منه التوفيق لما فيه رضاه، والنفع لعباده المؤمنين.

مدخل للشروع في ذكر سمات المتقين

- إن الله خلق الخلق:
  - غنياً عن طاعتهم.
  - آمناً من معصيتهم.
  - قسم بينهم معايشهم.
  - المتقون هم أهل الفضائل.

قال عليه السلام:

«أما بعد فإن الله تعالى خلق الخلق حين خلقهم غنياً عن طاعتهم آمناً من معصيتهم لأنه لا تضره معصية من عصاه ولا تنفعه طاعة من أطاعه، فقسم بينهم معايشهم ووضعهم من الدنيا مواضعهم».

استهل الإمام عليه السلام كلامه ببيان مسألة ترتبط بذكر صفات المتقين، وهي أن الأوامر والنواهي والأفعال والتروك التي يقوم بها العبد وتستجمعها التقوى، إنما يعود نفعها إلى العبد نفسه ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦].

وإذا أمر ذو الكمال المطلق (تباركت أسماؤه وجل ثناؤه) بشيء لا يأمر به لمنفعة تعود إليه، وكذلك إذا نهى عن شيء لا يكون لدفع ضرر عنه، بل هو تعالى الغني المطلق الذي لا ينتفع بطاعة من أطاعه، ولا يتضرر بمعصية من عصاه **«ولم يخلق ما خلقه لتشديد سلطان، ولا تخوف من عواقب زمان، ولا استعانة على ند مثاور، ولا شريك مكاثر، ولا ضد منافر، ولكن خلائق مربوبون وعباد داخرون»**[1].

إذن فليس للإنسان أن يمن على ربه بعبادته وجهاده ويعجب بعمله وإن كثر بنظره، لأنه إنما يعمل لنفع نفسه، فالله تعالى خلق الخلق

(١) خطبة ٦٥ من النهج.

ليبلوهم ويختبرهم ودلهم على طريق الفوز والفلاح والنجاح في تكاليفهم وامتحاناتهم ليجزيهم بعد ذلك أحسن الجزاء فهو تعالى خلقهم ليخلدهم بعد الامتحان في النعيم المقيم، فالنفع يعود إليهم «**والله لا يرضى لعباده الكفر**» ولكن من أبى وتمرد ولم يستجب لنداء الحق ولم يمتثل أوامره ولم ينته عن نواهيه فزاؤه جهنم جزاء موفوراً.

«.. فقسم بينهم معايشهم ووضعهم من الدنيا مواضعهم»

يقول تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

فالناس معادن كالذهب والفضة. ونتيجة ذلك أنهم في درجات متفاوتة من حيث قربهم وبعدهم عن الفضائل، فمن الناس من ليس بينه وبين الفضيلة والفضائل أي صلة بل يعد في المجتمع وفي العرف العقلاني والمتشرعي من أهل الرذائل، وذلك لكثرة تلبسه بأعمال مخالفة للشرع، والعقل، والذوق الإنساني، ولعدم توقع أن يصدر منه العمل الخيّر إلا نادراً وبالاتفاق.

وهنا قاعدة ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام وهي: «أنه من أكثر من فعل الشيء عرف فيه» وطبيعي طبقاً لهذه القاعدة أن يقال لمثل هذا النموذج بأنه ليس من أهل الخير والفضائل بل سيعرف بأنه من أهل الرذائل والموبقات. ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ...﴾.

وهناك قسم ثان من الناس متوسطون، لا يصدق على أحدهم أنه يكثر من الفضائل أو يكثر من الرذائل، فلا يصح أن يطلق عليهم عنوان أهل الرذائل والموبقات، ولا عنوان أهل الفضائل، ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة].

وثمةَ قسم ثالث من الناس قد أكثروا من فعل الخير والفضائل فعرفوا بها، فأينما ذُكِروا وُسِمُوا بالخير والفضيلة، وأينما حَضَروا حضر ذكرُ القيم، وأينما حلوا حل الخير معهم، فلكثرة تلبسهم بذلك ولنيلهم الحكمة العلمية والحكمة العملية لاق بهم أن يُنْعَتوا بأهل الفضائل، ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ...﴾ فأمير المؤمنين عليه السلام بعد أن بَيّن على نحو الإجمال بأن درجات الناس في الدنيا مختلفة قرباً وبعداً بلحاظ الكمالات المعنوية جعل المتقين هم القسم الثالث من الناس فقال عليه السلام: «**فالمتقون فيها هم من أهل الفضائل**».

فاحرص يا أخي على أن تنال بحقٍ هذه السِّمَة وأن تتحلى بالقيم الإنسانية لكي تُنْعَت بأنك من أهل الخير والفضائل أولاً عند الخالق تبارك وتعالى وفي الواقع، وثانياً لدى المنصفين من الناس، ومن أهل العقل والتدين، وهذا لا يتطلب منك مظهراً حسناً فحسب بل يحتاج إلى تهذيب النفس والوصول إلى حسن السريرة، والقلب السليم فإنه «**من حَسُنَتْ سريرتُه حُمِدَت سيرته**» وأيضاً يتطلب الإكثار من فعل الخير، والعمل الصالح، فمن طمع بأن يكون من المتقين - وكل مؤمن يرجو ذلك بعد أن عرف أن في التقوى خير الدنيا والآخرة - فلا بد أن يسعى بجد لتحصيل ذلك وإلا فإنه سيكون مخدوعاً وممن (**يرجو الآخرة بغير عمل**) ويرجو أن يكون من أهل التقوى دون أن يكون من أهل الفضائل. وهذا لا يكون لأن أمير المؤمنين عليه السلام بيَّن صراحة بأن (**المتقين هم أهل الفضائل**) وغير من يعرف بالخير والفضيلة ليس من المتقين وإن أحب أن يُنعَت بذلك..

فخلاصة إذن لا بد أن يكون من أهل الفضائل ثبوتاً، أي في عالم النفس وفي الواقع، وسينعكس ذلك على الخارج وتحمد سيرته إثباتاً «**فمن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس**» ويقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ هذا

ولكن أن ينعت المرء بأنه من أهل الفضائل فإنه وصف إجمالي جداً يحتاج إلى تفصيل وإلى إفراد كل فضيلة وكل صفة للمتقين على حدة، وهذا ما قام به أمير المؤمنين عليه السلام، فذكر السمات التي من تَحَلَّى بها وجَسّدَها في نفسه فإنه يندرج في عداد المتقين الذين هم يوم القيامة في مقام أمين في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

السمّةُ الأولى
منطقهم الصواب

الصواب في المنطق، واستقامة اللسان

وفيها أبحاث:

- معنى الصواب في المنطق وأهميته
- استقامة الإيمان باستقامة اللسان
- تقييم اللسان إيجاباً وسلباً
- تقييم الصمت وعلة امتداحه
- حزم الصالحين بشأن اللسان
- ثمرات تهذيب اللسان

☐ آفات اللسان:

- الكذب
- النميمة
- الغيبة
- الوجهان واللسانان
- الاستهزاء
- أذية المؤمن وإهانته والاستخفاف به وتعييره وسبّه و...

السِّمَةُ الأولى:

«الصواب في المنطق واستقامة اللسان»

يقول عليه السلام: «منطقهم الصواب».

الصواب في المنطق في مقابل الخطأ فيه، فإن المتقي يقول ما ينبغي قوله وتحققت شروط النطق به، ويرتدع ويسكت عما لا ينبغي قوله ولم تحضر ظروف التصريح به، «فما كل ما يعلم يقال، وما كل ما يقال حان وقته، وما كل ما حان وقته حضر أهله» فقد يكون القول في نفسه صادقاً ولكني منهي عن التلفظ به في الشرع، كالنميمة ونقل الكلام من شخص لآخر، فحتى لو كان القائل للكلام صادقاً في نقله فإنه مأثوم موزور. وربّ كلمة في غير موضعها سلبت نعمة وجلبت نقمة وإن كانت في نفسها صادقة إلا أنه ليس من الصواب التصريح بها.

وبالمقابل قد يكون القول في نفسه قبيحاً عقلاً وشرعاً إلا أنه لملابسات معينة قد يجب التصريح به، كالحلف كذباً على شيء أمام ظالم لإنقاذ نفس مؤمنة من الهلاك.

فباختصار الصواب في المنطق هو مراعاة أحكام الشرع والعقل الأولية والثانونية، فأوّلاً لا بد من اجتناب الكلام المحرم كالكذب، والغيبة، والنميمة، وشهادة الزور، والحلف الكاذب، والخوض في

الباطل، والفحش، والبهتان، والسباب، والسخرية، والمزاح الخارج عن الحد الشرعي، والمراء..

ثم لا بد من الإتيان بالواجب من الكلام الذي يوجبه العقل والشرع، وعدم السكوت عن الحق والحكمة فإنه «**لا خير في الصمت عن الحكمة**».

وثانياً التنزّه عن الكلام فيما لا يعني وعن الفضول. والحرص على اشتغال اللسان بالخير وذكر الله (**فأفضل العبادة أن يضل لسانك رطبا بذكر الله**)، وقد ورد أنه: «**قل خير أو فاصمت**». وهنا شيء ملفت يستوجب السؤال وهو:

أنه لماذا أمير المؤمنين عليه السلام صَدَّر صفات المتقين بهذه الصفة وهي أن «**منطقهم الصواب**». لماذا لم يبدأ كلامه الشريف مثلاً بقوله: «فأما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن...» أو بقوله عليه السلام: «حانون على أوساطهم مفترشون لجباههم وأكفهم وركبهم وأطراف أقدامهم يطلبون إلى الله تعالى في فكاك رقابهم»؟

أليس هذا غريباً حيث أنه يتبادر إلى الأذهان من المتقي الورع، الصلاة، والخشوع، والعبادة، وتلاوة القرآن، والعمل الصالح.. ولا يتبادر منه أولاً صفة تتعلق باللسان والنطق؟؟!

أقول هذا سؤال مهم، والإجابة عنه أهم فإنها تفصح عن مطلبٍ أساسي في سلوك الإنسان إلى الله تعالى، وعُرُوجِهِ نحو الكمال، ونيله لمرتبة التقوى العظيمة، فإنك عندما تسمع قول أمير المؤمنين عليه السلام: «**لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه**»[1] وقوله عليه السلام: «**والله ما أرى عبداً يتقي تقوى تنفعه حتى يخزن لسانه**»[2]

(١) نهج البلاغة خطبة ١٧٦.
(٢) المصدر.

يزول استغرابك وينفتح أمامك باب لطالما كنت غافلاً عنه مع أنه في غاية الأهمية للترقي في درجة إيمانك واكتمالك. فإنك كنت تهتم بصلاة، وبحج، وزيارة، وصيام و...، ولكن هل أنت تعتبر كلامك من عملك؟

وأي لون من أعمالك هو؟!

إنه عمل إن فسد أضر بالأعمال الأخرى كلها، فعن إمامنا زين العابدين عليه السلام قال: «**إن لسان ابن آدم يشرف كل يوم على جوارحه فيقول: كيف أصبحتم؟ فيقولون: بخير إن تركتنا، ويقولون الله الله فينا، ويناشدونه ويقولون: إنما نُثاب بك ونُعاقب بك**»[1] وعن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله: «**إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تستكفي اللسان أي تقول له: اتق الله فينا فإنك إن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا**»[2].

فمن أطلق عَذْبَة اللسان، أدخله مداخل السوء، والذنوب، وأخرجه عن حد التقوى يقول أمير المئمنين عليه السلام: «**لا يسلم أحد من الذنوب حتى يخزن من لسانه**»[3] ويقول عليه السلام: «**والله ما أرى عبداً يتقي تقوى تنفعه حتى يخزن لسانه**» فإذا خرج عن التقوى بسبب ارتكابه للذنوب عن طريق اللسان فإن أعماله سوف لا تكون مقبولة ولا مستقيمة لأنه: «**إنما يتقبل الله من المتقين**» فإذن مع عدم استقامة اللسان سوف لا يستقيم العمل يقول الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله:

«**ما عَمِلَ مَنْ لم يحفظ لسانه**» [البحار: ج ٧٧].

فقد يطوف الرجل بالبيت الحرام ويفرح بالثواب العظيم المترتب

(١) البحار ج ٧١، ص ٢٧٧.
(٢) المحجة ج ٥، ص ١٩٣.
(٣) البحار ج ٧٨، ص ١٧٨.

على تلك العبادة، ثم يرجع إلى محل إقامته فيؤذي مؤمناً بكلامه فأين يبقى ثواب الطواف بالبيت إذا كانت أذية المؤمن معصية فظيعة في الشريعة المقدسة تصل إلى حد إرصاد الحرب للواحد القهار فعن إمامنا الصادق عليه السلام يقول الله تعالى: «**من أهان لي ولياً فقد أرصد لمحاربتي**» [وسائل الشيعة: ج ٨ ص ٥٨٨].

وفي حديث آخر يقول تعالى: «**ليأذن بحرب مني من آذى عبدي المؤمن**» [المصدر ص ٥٨٧].

وفي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الصدود لأوليائي، فيقوم قوم ليس على وجوههم لحم، فيقال هؤلاء الذين آذوا المؤمنين، ونصبوا لهم، وعاندوهم، وعنفوهم في دينهم ثم يؤمر بهم إلى جهنم**» [المصدر].

وكما في إرشاد القلوب للديلمي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**من آذى مؤمناً ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيساً من رحمة الله، وكان كمن هدم الكعبة والبيت المقدس، وقتل عشرة آلاف من الملائكة**».

أقول: صحيح هذه الرواية قد تحمل على الإعانة على قتله كما في صريح العديد من الروايات، إلا أنه انظر إلى لحنها كيف يغلظ على من يؤذي المؤمن ويشدد العقوبة عليه!!

نقل الشيخ المظاهري عن أحد الصالحين أنه رأى في المنام أحد العلماء فسأله عن حاله فقال: إني في راحة وأحسن حال، لولا ذاك العقرب الذي يلسعني في رجلي من حين لآخر!! وعندما سأله عن السبب أجاب: آهٍ آهٍ من تجريحات اللسان»[1].

(١) اليوم الآخر ص ١٥١ (بتصرف).

وينقل السيد دستغيب عن أحد العلماء أنه رأى والده في عالم الرؤيا فسأله قائلاً: لما رأيتك في المنام رأيت جسمك منوّراً ولكن كانت شفتاك ملوثتان بالدم والقذارة، فما سبب ذلك؟ وهل يمكنني مساعدتك للتخلص من هذه الحال؟ فأجابه: إن الحل الوحيد فقط بيد والدتك العلوية، لأنني كنت أهينها في الدنيا وأأذيها بلساني حيث كان اسمها «سكينة» وكنت أناديها (سگو) (وهو لفظ فارسي معناه الكلب) فإذا تمكنت من إرضائها فإنني أتخلص من ورطتي.

يقول ناقل الحديث: لما استيقظت سألت والدتي فقالت: أجل يا ولدي كان والدك (رحمه الله) يقول ذلك في حياته وبعد أن علمت عذابه فإني أسامحه»[1].

فإذا لم يستقم العمل سوف لا يستقيم القلب وذلك لأن استقامة القلب سلامتُه من الذنوب، واشتغالُه بذكر الله تعالى، ومع استرسال اللسان وإطلاقه في الشر والخير سوف لا يبقى القلب سليماً من الذنوب. وعليه فسوف لا يستقيم. وإذا لم يستقم القلب لا يستقيم الإيمان كما قال عليه السلام: **«لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه»**.

فانظر إلى العاقبة الوخيمة والمصيبة المهلكة التي يوصل إليها عدم ضبط اللسان وتهذيبه..

إنها عدم زكاة الأعمال.. إنها عدم استقامة الإيمان الذي هو رأس مال العبد لنيل مرضاة الله والجنة.

فإذا كان لا بد لنا أن نهتم بنظافة قلوبنا وطهارتها لكي يستقيم إيماننا ويصدق علينا بأننا حقاً من أهل الإيمان والتقوى. فإن ذلك يستدعي منا الاهتمام بمنطقنا وجعله منطق صواب وذلك لا يكون إلا

(١) القصص العجيبة ص ٢١١.

بالالتفات إلى ما نقول، والتدقيق فيه قبل النطق به وبأن نحسب كلامنا من أعمالنا، يقول عليه السلام: **«اخزن لسانك وعد كلامك يقل كلامك إلا بخير»**[1].

وعن الصادق عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: **«من لم يحسب كلامه من عمله كثرت خطاياه وحضر عذابه»**[2] وعنه صلى الله عليه وآله: **«من رأى موضع كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه»** أي علينا أن ننتبه إلى أن هذه الكلمات التي تخرج من أفواهنا بسهولة بالغة تُكْتَب علينا إما عملاً صالحاً وإما معصية، فهل نحن متيقظون؟ هل نحن ملتفتون لذلك؟!

إن كثرة كلامنا تدل على عكس ذلك، وكأننا لا نؤمن بأن الكلام داخل في دائرة التكليف والعمل وإلا فلماذا إطلاق اللسان في كل ما يخطر بالبال، وكل ما تهواه النفس من دون قيد ولا شرط، لماذا نعد شرب الخمر معصية، ولا نعد الكلمة النابية الفَظَّة التي نؤذي مؤمناً بواسطتها معصية. أو كلمة السخرية بالآخرين.. أو المزاح المهين.. الخ.

قال أمير المؤمنين عليه السلام لرجل يتكلم: **«إنك تملي على كاتبيك صحيفة يوصلانها إلى ربك فانظر على من تملي وإلى من تكتب»**.

يتوجب على كل مؤمن التفكر في عاقبة إرخاء العنان للّسان للوصول إلى الإذعان القلبي واليقين بخطورة ذلك، فإن هذه ستكون الخطوة الأولى في طريق استقامة المنطق. وهي التي ستكون دافعاً إلى المرحلة الثانية وهي تقييد اللسان في مقام العمل، والنتيجة ستكون ثمرات عظيمة دنيوية وأخروية سيجنيها المؤمن على رأسها استقامة قلبه وإيمانه.

---

(١) البحار ج ٧١، ص ٢٨١.

(٢) أصول الكافي ج ٢، ص ١١٥.

فهنا ثلاثة عناوين لا بد إذن من التعرض إليها:

الأول: تبيين وعرض الأمور العقلية والشرعية التي تجعل الإنسان يذعن بخطورة إرسال اللسان وعدم ضبطه، بعد ذكر أصل نعمة وجود اللسان وإيجابياته إذا قَيَّده العقل.

الثاني: كيف ينعكس الاعتقاد الجازم والإذعان القلبي بخطورة اللسان على السلوك العملي للمؤمن، وكيف تَعَاطَى المقبلون على الآخرة عملياً مع هذا الأمر.

الثالث: ما هي نتائج وثمرات ضبط اللسان وتهذيبه؟

تقييم اللسان سلباً وإيجاباً، وبيان شدة خطره إذا أطلق

«الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان»

إن اللسان نعمة إلهية عظيمة في حد ذاته، لذلك تجد أن رب العالمين تعالى يذكر نعمة «البيان» بعد ذكره لنعمة الخلق والإيجاد. والبيان هو تبيين وإبراز الإنسان لمقاصده، ومن مصاديقه المهمة بل هي الأهم «البيان باللسان» أي الكلام.

وقد ذهب بعض المفسرين إلى تفسير البيان وحصره بالكلام فقال: «البيان باللسان» أي الكلام. وقد ذهب بعض المفسرين إلى تفسير البيان وحصره بالكلام فقال: «البيان هو الكلام الذي يبين به عن مراده وبه يتميز عن سائر الحيوانات»[1]. وإن كان الصحيح بنظرنا ان البيان أعم من ذلك..

وكذلك يذكر الله تعالى اللسان في مقام تعداده للنعم الإلهية فيقول تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ... ﴾ ويقول الإمام

(١) مجمع البيان ج ٦، ص ٨٥.

الصادق عليه السلام: «فزن كلامك واعرضه على العقل والمعرفة فإن كان لله وفي الله فتكلم به» إلى أن يقول عليه السلام: «... فيه (أي في الكلام) رضا الله ونشر آلائه ونعمائه في عباده، ألا ترى أن الله لم يجعل فيما بينه وبين رسله معنى يكشف ما أسرَ إليهم من مكنونات علمه ومخزونات وحيه غير الكلام فثبت بهذا أنه أفضل الوسائل وألطف العبادة... واللسان ترجمان الضمير وصاحب خبر القلب وبه ينكشف ما في سرّ الباطن وعليه يحاسب الخلق يوم القيمة» [مصباح الشريعة: ب ٤٦ في الكلام].

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام في تبيان عظمة نعمة اللسان:

- «ما الإنسان لولا اللسان إلا صورة ممثلة أو بهيمة مهملة»[١].
- «ما من شيء أجلب لقلب الإنسان من لسان»[٢].
- «اللسان ترجمان الجَنَان»[٣].
- «اللسان ترجمان العقل»[٤].
- «جمال الرجل فصاحة لسانه»[٥].

وعن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: «الجمال في اللسان»[٦].

وعن الصادق عليه السلام: «من عذب لسانه زكى عقله».

وعنه عليه السلام: «إن من البيان سحراً»[٧].

---

(١) غرر الحكم.
(٢) غرر الحكم
(٣) غرر الحكم
(٤) غرر الحكم.
(٥) كنز العمال خ ٢٨٧٧٥.
(٦) البحار ج ٧٧، ص ١٤١.
(٧) تحف العقول ص ٤٦.

ومن لطائف هذه النعمة الإلهية «أي اللسان» أنه يتعرض لكل موجود ومعدوم ومتخيل وموهوم، ولجميع مدركات الحواس الخمسة، فترى الإنسان يتحدث عن المبصرات، والمسموعات، والمذوقات، والملموسات، والمشمومات، ويدخل في تفصيل كل صنف منها ووصفه والحديث عن خصائصه وبهذا يختلف اللسان عن باقي الحواس، فإن كل حَاسَّة لا تصل إلا إلى مدركاتها فحسب، فالعين وحاسة البصر لا تدرك إلا المبصرات، ولا تدرك الأصوات المسموعة، ولا تحس ولا تذوق ولا تشم، وهكذا حاسة السمع فإنها تلتقط الأصوات المسموعة وتدركها دون القدرة على إدراك المبصرات وتمييز الألوان، وهكذا باقي الحواس، لذلك يقول الشيخ الرئيس أبو علي سينا: «من فقد حساً فقد علماً».

وأما اللسان فيتناول بالبيان والإفصاح جميع المدركات لجميع الحواس، فمجال اللسان رحب ولا مؤونة، ولا مشقة في تحريكه، فما أسهل أن يطلق الإنسان لسانه بالكلام، ومن هنا حصل التهاون من الخلق بشأن اللسان، وصعُبَ عليهم تقييده بقيد العقل والشرع، فكانت العواقب الوخيمة لذلك..

فاللسان ككل نعمة، خلقها الباري تعالى للفائدة، ولنفع بني الإنسان ولكن إذا صُرِفَت واستُعمِلت في المجال الذي خُلقت له، وللهدف الذي وجدت لأجله، فمع النفع الكبير والفائدة العظيمة للّسان قد يُسبب للمرء الهلاك، ويوقعه في هاوية الذنوب والآثام، فإنه إن لم يُحبس ولم يقيد ـ إلا لما فيه خيرٌ للدنيا والآخرة ـ مهلك لصاحبه عاقر له..

يقول الإمام علي عليه السلام: **«اللسان سبع إن خلي عنه عقر»**[1].

(١) البحار ج ٧١، ص ٢٨٧.

ويقول عليه السلام: «**اللسان كلب عقور إن خليته عقر**»[1].

وفي وصيته لابنه محمد بن الحنيفة: «**واعلم يا بني أن اللسان كلب عقور إن أرسلته عقرك**».

فمع عظمة شأن اللسان إذا استعمل بالحكمة، وفي رضا الله تعالى والخير والصلاح.

كما يقول عليه السلام: «**لا خير في الصمت عن الحكم**».

ويقول تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾.

فإنه مع ذلك أخطر ما يكون على الإنسان فيما لو أُطلق في كل شيء من دون تدبر قبل النطق، فإنه سيجرُ الدواهي على صاحبه دنيا وآخرة.

☐ آثار اللسان الوخيمة دنيوياً:

أما الآثار الوخيمة للّسان دنيوياً نذكر منها ما يلي:

يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«**رب لسان أتى على إنسان**» [غرر الحكم].

«**كم من دم سفكه فم**» [غرر الحكم].

«**كم من إنسان أهلكه لسانه**» [غرر الحكم].

«**رب كلمة سلبت نعمة، فاخزن لسانك كما تخزن ذهبك وورقك**» [البحار: ج ٧١].

«**دع الكلام فيما لا يعنيك وفي غير موضعه فربّ كلمة سلبت**

(١) النهج حكمة ٦٠.

نعمة، وأنت على مهجة»، حُكي أن شخصاً حلّ ضيفاً على أحد الحكام، فجاؤوا إلى المائدة بطيرين مشويين، فابتسم ذلك الرجل، قال له: لماذا ضحكت. قال: ذكرني هذان الطيران بقصة غابرة، ففي أيام الشباب عندما كنت من قطّاع الطرق أخذت أموال أحد التجار وأردت قتله، وكان يلحّ عليّ بأن لا أقتله، وفجأة حطّ طيران بالقرب منا، فالتفت ذاك التاجر إلى الطيرين وقال: أريد منكما أن تشهدا على هذا وأنني قُتِلْتُ مظلوماً، وطبعاً أنا سخرت منه لقوله ذاك ولإشهاده للطيرين ثم قتلته، والآن هذان الطيران ذكراني تلك الحادثة فابتسمت لذلك، فعندها صاح الحاكم: يا جلاّد خذه واضرب عنقه فإن هذين الطيرين قد شهدا عليه.

«زلة اللسان تأتي على الإنسان».

«المرء يعثر برجله فيبرى، ويعثر بلسانه فيقطع رأسه» [البحار: ج ٧١].

«حد السنان يقطع الأوصال، وحد اللسان يقطع الآجال» [غرر الحكم].

وفي الحديث القدسي: **«يا ابن آدم إذا وجدت قسوة في قلبك أو سقماً في بدنك، أو نقصاناً في رزقك فاعلم أنك تكلمت بما لا يعنيك»**.

☐ آثار اللسان المهلكة أخروياً:

وكذلك تعالَ معي لنرى الآثار المهلكة للّسان على صعيد الدّين والآخرة.

عن رسول الله ﷺ: **«إن أكثر خطايا ابن أدم في لسانه»**.

أقول وهذا يدل على أن الإنسان إذا ختَم على لسانه، ولم يستعمله إلا بالخير فإنه سيكون قد اجتنب أكثر خطاياه، ومن هنا جاءت فضيلة الصمت والحث الكبير عيه كما سيأتي.

وقال معاذ لرسول الله ﷺ: أنؤاخذ بما نقول فقال ﷺ:

«ثكلتك أمك يا ابن جبل، وهل يكب الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم».

ـ وفي الكافي: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أوصني قال: احفظ لسانك، قال: يا رسول الله أوصني قال: احفظ لسانك، قال: يا رسول الله أوصني قال: احفظ لسانك، ويحك وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم».

ـ وفيه عن الصادق عليه السلام عن رسول الله ﷺ: **«من لم يحسب كلامه من عمله كثرت خطاياه وحضر عذابه».**

ـ وعن بلال بن الحارث قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أنها تبلغ به ما بلغت، فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة»** فكان علقمة يقول: كم من كلام منعنيه حديث بلال بن الحارث»[1].

ـ وعنه ﷺ: **«إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوي أبعد من الثريا»**[2].

ـ وفي رواية أخرى: **«يا أبا ذر إن الرجل ليتكلم بالكلمة في المجلس ليضحكهم بها فيهوي في جهنم ما بين السماء والأرض»**[3].

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: **«ليخزن الرجل لسانه، فإن هذا اللسان جموح بصاحبه والله ما أرى عبداً يتقي تقوى تنفعه حتى يخزن لسانه».**

أقول: إن العبد ليفرح عندما يسمع ثواباً عظيماً على عمل فيعمله،

(١) المحجة ج ٥، ص ٢٠٦.
(٢) المحجة ج ٥، ص ٢٠٦.
(٣) الذنوب الكبيرة ج ١.

كما لو سمع مثلاً بأن صيام يوم المبعث يعدل صيام سبعين سنة، فيصوم ذلك اليوم مغتبِطاً مسروراً بهذا الثواب الذي سيناله، ولعله يتمادى في تفكيره أكثر من ذلك، فيحدث نفسه بالأمن والنجاة لقيامه بمثل هذه الأعمال التي وَعَدَ الله عليها الثواب الجزيل والأجر العظيم. ولكنه ينسى أن عدم ضبط لسانه، وتركه مرخى العنان سيوقعه بمعاصٍ يترتب بالمقابل عليها سيئاتٌ عظيمة، قد تطغى على حسنات تلك الأعمال وتغرقُها في بحرها، وتُحرقُها بنارها، وحديث النبي الأعظمﷺ مشهور عندما قال: إن من ذكر التسبيحات الأربعة غرس الله له شجرة في الجنة، فقال بعض الحاضرين: ما أكثر أشجارنا إذن في الجنة يا رسول الله، فقال لهﷺ: ولكن احترز من أن ترسل عليها ناراً تحرقها».

فكما أنه توجد أعمال صالحة وعد الله عليها ثواباً كبيراً. كذلك يوجد أعمال محرّمة توعّدَ الله فاعلها بالعذاب العظيم، ورتب عليها الإثم الكبير، وكثير منها يكون من اللسان، فمن كذب كذبةً خرج من قلبه نتن حتى يبلغ العرش، ولعنه سبعون ألف من الملائكة..

وعن الصادقعليه السلام: **«إذا قال الرجل لأخيه المؤمن أف خرج من ولايته، وإذا قال أنت عدوي كفر أحدهما»** [الكافي].

وعن الباقر عن رسول اللهﷺ: **«سباب المؤمن فسوق»**.

وعن الصادقعليه السلام: **«من روى على مؤمن رواية يريد بها شينه وهدم مروءته ليسقط من أعين الناس أخرجه الله من ولايته إلى ولاية الشيطان فلا يقبله الشيطان»**[1].

كما تُلاَحِظ هذه الآثام العظيمة والعقوبات الغليظة إنما ترتبت على عمل اللسان على عدة ألفاظ سهلة المؤنة، بل بعض الأحيان على لفظ

(١) أصول الكافي ج ٢، ص ٣٥٨.

واحد ككلمة «أف»، فلكي يثبت الثواب الكبير وينفع صاحبه لا بد من اجتناب ما يترتب عليه الإثم الكثير أيضاً.

الصمت... تقييمه... وعلة امتداحه

ومن هنا نصل إلى نتيجة مهمة، وهي علة الترغيب الجزيل في الصمت فإن الصمت ليس بحد ذاته حسناً، فإنه أمر عدمي، فهو عدم الكلام، وإنما يصير حسناً ويكثر الترغيب فيه لشدة خطورة الكلام، إذا لم يصب مواضع الخير، وطاش سهمه إلى مواضع الشر، وكثيراً ما يطيش هذا السهم ويخطئ يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«**إحذروا اللسان إنه سهم يخطئ**» [غرر الحكم].

فيمكن لنا (لتوضيح الأمر) أن نقسم الكلام إلى أربعة أقسام:

فإما أن يكون الكلام فيه ضرر محض دون أن يكون فيه منفعة، فلا بد أن يسكت المكلف عنه.

وإما أن يكون فيه ضرر وفيه أيضاً منفعة، إلا أن ضرره أكثر من منفعته فأيضاً ينبغي للعبد أن لا يتكلم به.

وإما أن يكون لا ضرر فيه ولا منفعة، فهذا سيكون فضول واشتغال باللغو الذي لا فائدة منه، وهو خسران للعمر الذي هو رأس مال العبد، فأيضاً ينبغي للعبد أن يتجنبه.

وإما أن يكون فيه منفعة دون ضرر أصلاً فهذا هو الذي يصفى ويتبقى للعبد ليتكلم به. وعلى هذا التقسيم سوف يختزل من الكلام الذي يتكلم به الإنسان ثلاثة أرباعه، ويبقى ربع وحتى هذا الربع الذي يبقى والذي في حد ذاته نافع مفيد، فإنه قد يقترن برياء، أو تصنع، أو تزكية نفس، ويكون ذلك خافياً لدقته وصعوبة تشخيصه والالتفات إليه.

فلا بد من التدبر في المنطوق قبل نطقه فإنه كما قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«إن لسان المؤمن من وراء قلبه، وإن قلب المنافق من وراء لسانه، لأن المؤمن إذا أراد أن يتكلم بكلام تدبره في نفسه، فإن كان خيراً أبداه وإن كان شراً واراه، وإن المنافق يتكلم بما أتى على لسانه لا يدري ماذا له، وماذا عليه»[1].

ويقول أيضاً عليه السلام: **«لسان العاقل وراء قلبه، قلب الأحمق وراء لسانه»**[2].

وإن الكلام في وثاقك ما لم تتفوه به، فإذا تفوهت به أصبحت في وثاقه.

فمن عرف ذلك كله، وعرف الآفات المهلكة للّسان التي سنذكرها فيما بعد أدرك عمق قول رسول الله صلى الله عليه وآله: **«من صمت نجا»**.

وكذلك قول السيد المسيح عليه السلام عندما قالوا له: دلنا على عمل ندخل به الجنة، فقال: **«لا تنطقوا أبداً قالوا: لا نستطيع ذلك قال: فلا تنطقوا إلا بخير»**.

وقيل: إن الأصل في الإنسان الصمت، ولا يخرج عن الأصل إلا بدليل وحجة.

وفي «مصباح الشريعة» عن إمامنا الصادق عليه السلام:

«الصمت شعار المحققين بحقائق ما سبق، وجف به القلم، وهو مفتاح كل راحة من الدنيا والآخرة...».

ويذكر الإمام عليه السلام فوائد الصمت فيقول عليه السلام:

وفيه (أي وفي الصمت):

ـ رضا الرب.

---

(١) نهج البلاغة خطبة ١٧٦.

(٢) النهج حكمة ٤٠.

- وتخفيف الحساب.
- والصون من الخطايا والزلل.
- قد جعله الله ستراً على الجاهل.
- وزينا للعالم.
- ومعه عزل الهوى.
- ورياضة النفس.
- وحلاوة العبادة.
- وزوال قسوة القلب.
- والعفاف، والمروة، والظرف.

«فاغلق باب لسانك عما لك منه بدلا، سيما إذا لم تجد أهلاً للكلام، والمساعد في المذاكرة لله وفي الله.. وإنما سبب هلاك الخلق ونجاتهم الكلام والصمت، فطوبى لمن رزق معرفة عيب الكلام وصوابه، وعلم الصمت وفوائده، فإن ذلك من أخلاق الأنبياء، وشعار الأصفياء، ومن علم قدر الكلام أحسن صحبة الصمت، ومن أشرف على ما في لطايف الصمت وائتمنه على خزائنه كان كلامه وصمته كله عبادة، ولا يطلع على عبادته هذه إلا الملك الجبار»[1].

وقال أبو الحسن الرضا عليه السلام: «من علامات الفقه الحلم والعلم والصمت، إن الصمت باب من أبواب الحكمة، إن الصمت يكسب المحبة، إنه دليل على كل خير»[2].

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «إذا رأيتم المؤمن صموتاً وقورا فادنوا منه فإنه يلقي الحكمة».

(١) مصباح الشريعة ب ٢٧ في الصمت.
(٢) الكافي ج ٢ ص ١١٣.

وعن النبي ﷺ: «امسك لسانك فإنها صدقة تصدق بها على نفسك، ولا يعرف عبد حقيقة الإيمان حتى يخزن من لسانه»[1].

وعن الإمام الرضا عليه السلام: «كان الرجل من بني إسرائيل إذا أراد العبادة صمت قبل ذلك عشر سنين»[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «لا يزال العبد المؤمن يُكتَب محسناً ما دام ساكتاً فإذا تكلم كتب مُحسِناً أو مسيئاً»[3].

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «كان أبو ذر يقول: يا مبتغي العلم، إن هذا اللسان مفتاح خير ومفتاح شر، فاختم على لسانك كما تختم على ذهبك وورقك»[4].

وعن النبي الأعظم ﷺ: «ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن، الصمت وحسن الخلق»[5].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «من كثر كلامه كثر خطؤه، ومن كثر خطؤه قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه، ومن مات قلبه دخل النار».

وعنه ﷺ: «أخزن لسانك إلا من خير فإنك بذلك تغلب الشيطان»[6].

وعنه أيضاً ﷺ: «الناس ثلاث غانم وسالم وشاجب: فالغانم (أي الرابح والفائز) الذي يذكر الله، والسالم الساكت، والشاجب (الهالك)

(١) المصدر ص ١١٤.
(٢) المصدر ص ١١٦.
(٣) المصدر ص ١١٦.
(٤) المصدر ص ١١٤.
(٥) المحجة ج ٥، ص ١٩٤.
(٦) المصدر السابق.

الذي يخوض في الباطل»[1].

وعنه أيضاً ﷺ: **«من كان يؤمن باليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»**[2].

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: قال رسول الله ﷺ لرجل أتاه:

«ألا أدلك على أمر يدخلك الله به الجنة؟ قال: بلى يا رسول الله، قال ﷺ: أنل مما أنالك الله، قال: فإن كنت أحوج ممن أنيله؟ قال: فانصر المظلوم، قال: وإن كنت أضعف ممن أنصره، قال: فاصنع للأخرق يعني أشر عليه، قال: فإن كنت أخرق ممن أصنع له، قال: فاصمت لسانك إلا من خير، أما يسرك أن تكون فيك خصلة من هذه الخصال تجرك إلى الجنة؟»[3].

أتصوّر أن هذا المقدار كاف كي يذعن المرء بخطورة إطلاق اللسان، وإرخاء العنان له، على صعيد الدين والدنيا، فإذا نالك التسديد الإلهي، وسلم قلبك ورضخ لتلك الحقائق، فاستنقذ نفسك من بين الغافلين الجهلة الذين يطلقون عذبة ألسنتهم في كل حسن وقبيح ويخوضون في كل ما تطاله مخيلتهم.

واشحذ سيف الإرادة لتكون مراقباً ومدققاً في كل كلمة تطلقها، زائناً لها بميزان العقل والشرع، ولكي تتأنّى وتتمهّل قبل الكلام والنطق وتسأل نفسك: هل هذا الذي أريد قوله فيه لله رضا ولي وللآخرين فائدة أم لا؟ أو لا أقل من أن لا يكون فيه سخط لله وضرر للنفس وللآخرين.

---

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.
(٣) أصول الكافي ج ٢، ص ١١٣، ب الصمت.

- **حزم الصالحين بشأن اللسان**: فإن السالكين إلى الله تعالى الذين يحذرون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار، يُسأَلُ فيه المرء عن كل لفظة تلفظ بها، «**وما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد**»، قد نظروا إلى مسألة اللسان بحزم شديد. لشدة ما أذعنت به قلوبهم من خطره، فمثلاً نرى:

الربيع بن خثيم: كما في رواية في مصباح الشريعة:

كان يضع قرطاساً بين يديه فيكتب كل ما يتكلم به ويحاسب نفسه عشيته، ما له وما عليه، ويقول: «آوه نجا الصامتون وبقينا».

وكان بعض أصحاب رسول الله ﷺ: يضع حصاة في فمه، فإذا أراد أن يتكلم بما علم أنه لله وفي الله ولوجه الله، أخرجها فإن كثير أصحابه ﷺ كانوا يتنفسون تنفس الغرقى ويتكلمون تكلم المرضى؟[1].

وروي أن **لقمان الحكيم** دخل على داود وهو يسرد الدرع ولم يكن رآها قبل ذلك فجعل يتعجب مما يرى فأراد أن يسأله عن ذلك فمنعته الحكمة، فأمسك نفسه ولم يسأله فلما فرغ قام داوود ولبسها فقال: نعم الدرع للحرب، فقال لقمان الصمت حكم وقليل فاعله، وقيل: كان قد يتردد إليه سنة وهو يريد أن يعلم ذلك ولم يسأل. وذلك لأنه لا يعنيه. وقد قال النبي ﷺ: من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.

أقول: وقد تستغرب عندما تسمع أو تقرأ مثل هذه النماذج من تصرفات السالكين، وذلك للفرق الشاسع، والبون البعيد، بين ما أَلِفْتَه من عامة الناس في المجتمع من التراخي والتهاون الكبيرين في قضايا الدين والآخرة، وإفراغ الوسع والتدقيق في مسائل الدنيا ومتاعها، وبين ما هو الحق الذي أدركه السالكون إلى الله ببصائرهم، من خساسة

(١) مصباح الشريعة ب ٢٧ في الصمت.

الدنيا، وعدم لياقتها واستحقاقها لنيل اهتمام العبد، وصرف عمره العزيز في تَقَصِّي حساباتها، وإنما الذي يستحق السعي وبذل الجهد والوسع والكدح هو الآخرة ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا . . . ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾.

فتراهم مقبلين على شأنهم، يحاسبون أنفسهم حساب الشريك لشريكه، فيعمدون إلى إصلاحها، وتنقيتها من كل شائبة، فترى أنفسهم نقية صافية تظهر عليها وتؤثر فيها أي شائبة أو غباشة مهما صغرت، انظر إلى ابن خثيم كيف يتأوه ويتأفف من بضع كلمات عدَّها بمنظاره ورؤياه فضولاً، مع أنه كان قد كتب كل ما قاله في نهاره، «آوه نجا الصامتون وبقينا»، وتبصَّر في عمل لقمان الحكيم كيف كان يشتهي التعرف على شيء جديد لم يكن قد رآه من قبل، ولكن كانت الحكمة دائماً تغلبه على الصمت. وكيف أنه التذَّ بنتيجة الصمت، وقال عندما تعرَّف على الدرع من دون سؤال: «الصمت حكم وقليل فاعله»، وهو الذي سئل ما حكمتك فقال: «لا أسأل عما كُفيت، ولا أتكلف ما لا يعنيني».

فهؤلاء تعاملوا مع معادلة الآخرة وسوقها وتجارتها بمنتهى الجديَّة والحزم والحذر من الخسران والعواقب غير الحميدة، كما نتعامل نحن مع معادلة الدنيا في سوقها وتجارتها.

ألم تر أن الموظف المحاسب في شركة تجارية عليه أن يُقدِّمَ كشفاً دقيقاً لكل داخل وخارج من أموال الشركة أو المؤسسة كل يوم أو كل أسبوع.. فتراه آخر اليوم أو آخر الأسبوع يجلس مع مستندات القبض والتسديد لساعة أو لساعات. وقد يطول به الأمر ليس إلا لملبغ وجيز لم يظهر في الحساب فيقلقه ويجلب حيرته! أين ذهب هذا الدرهم؟ كيف نقص؟! أو من أين زاد؟! مع أنه قد يكون في ذلك اليوم ارتكب كبيرة في الدين أو كبائر... قد كذب.. وغش المسلمين.. وتعاطى المعاملة

الربوية.. ولكنه لا يكترث لذلك فإنه ليس من همومه، أو لعله آخر همه ليفكر به، تماماً أصحاب الآخرة ترى الفرد منهم منكبًا ولكن على تجارته مع الله في سوق الآخرة، من أول يومه إلى آخره، عَسِراً مع نفسه، فهي منه في تعب، دائم المراقبة لأعماله وأقواله، مدقِّقاً في كل لفظ يتلفظ به. حتى لو اضطر لى وضع ما يمنع تسرعه في الكلام كالحصى في فمه مثلاً فَعَل، أو إلى كتابة ما يقوله لكي لا تشرد كلمة، أو تطيش وينساها، أيضاً فعل، ثم يأخذ في آخر يومه بالمحاسبة، فيحاسب نفسه بدقة ويأخذها بالشدّة، محاسبة الشريك للشريك، حتى على اللفظة الزائدة، أو الكلمة التي في غير موضعها، فلا بد أن يقدم للكرام الكاتبين كشفاً خالياً من الشوائب، فإن هذا الكشف سيُعْرَض على رسول الله ﷺ وعلى الأئمة عليهم السلام، فإنه يسعى أن تكون تجارته في سوق الآخرة رابحة فينال رضا الله تعالى ويبيض وجهه أمام أولياء نعمته آبائه الروحانيين عليهم السلام يقول الرسول الأعظم ﷺ: «**أنا وعلي أبوا هذا الأمة**». إذا عرفت ذلك زال استغرابك من سلوكهم وتصرفاتهم. فباختصار إن تعاطيهم مع المعادلة الأخروية الغيبية كتعاطينا نحن مع المعادلة الدنيوية المادية.

الثمرات والفوائد الجليلة لتهذيب اللسان

ثم بعد اليقين بخطورة اللسان، هذا السبع العقور إذا أرسلته، والجري العملي على طبق هذا اليقين، وما يقتضيه من الحذر وتهذيبه أيّما تهذيب. وإفراغ تمام الوسع، والسعي الدائب لأجل كونه مؤتمِراً بأوامر سلطان العقل والشرع.

بعد ذلك سيحصل للمكلف قوة وملكة السيطرة على كلامه، وفضيلة العدل المتعلقة بلسانه، أي عدم قول ما ينبغي أن يسكت عنه، وعدم السكوت عما ينبغي أن يقوله، فيضع كل كلام في موضعه، وهذا ما أراده أمير المؤمنين عليه السلام أمير الفصاحة، والبلاغة، والكلام، من قوله: «**منطقهم الصواب**» كصفة أولى من صفات المتقين.

وعندها يكون اللسان مستقيماً، فيستقيم القلب، ويستقيم الإيمان بتبعه، وهذه من أعظم ثمرات استقامة اللسان، «**لا يعرف عبد حقيقة الإيمان حتى يخزن لسانه**»[1] وستستقيم أعماله وتقواه، وتكون نافعة له «**والله ما أرى عبداً يتقي تقوى تنفعه حتى يخزن لسانه**» وذلك لأنه سيتجنب كثيراً من الذنوب بل أكثرها.

«**إن أكثر خطايا ابن آدم في لسانه**»[2] فعندها سيرتفع ما يبنيه من بناء

(١) البحار ج ٧١، ص ٢٩٨.

(٢) المحجة ج ٥، ص ١٩٤.

بالأعمال الصالحة، لأنه يبني ولا يهدم، ومع الذنوب والخطايا الناشئة من عدم حفظ اللسان سوف يبني ويهدم يكاد لا يرتفع له بناء، «**ما عَمِلَ من لم يحفظ لسانه**»[١] وتستقيم باقي أعضاء الإنسان باستقامة اللسان وتأمن من الاعوجاج فإن مع طلوع كل صباح تقول الأعضاء للسان: «**اتق الله فينا فإنك إن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا**»[٢].

وسينجو ويسلم من أكثر المشاكل الاجتماعية لأن رأس مسبباتها اللسان والكلام في غير موضعه، «**نجاة المؤمن في حفظ لسانه**»[٣] «**الصمت حكم والسكوت سلامة**»، وسينجو من كثير من النقم فإنه «**رب كلمة سلبت نعمة وجلبت نقمة**» وسيسلم دينه، وكذلك «**من حفظ لسانه ستر الله عورته**»[٤] «**وأكرم نفسه**»[٥] وأراحها «**راحة الإنسان في حبس لسانه**»[٦] لأن الذي يطلق لسانه من دون تدبر وروية، يكن قلبه مشغولاً دائماً في مستلزمات كلامه، فإنه بعد أن أطلق الكلام أصبح في وثاقه، وصار مسؤولاً عنه، فلا بد أن يُنْتَقَد بأمور ويُسْأَل عن توضيح أمور، فعليه أن يأتي بالمبررات والتوضيحات، والبراهين على ما تفوَّه به.

يقول صاحب كتاب قابوسنامه الذي هو أحد أمراء إيران: أتيت من مكة إلى تركيا، وحللت عند سلطان تركيا، وفي إحدى الجلسات ذكرت مسألة غريبة أثارت حالة من الاشمئزاز لديه، ففي أثناء الحوار قلت: إن في إيران دودة خضراء موجودة بكثرة إذا كانت بقرب الماء ودُهست تحوّل طعم الماء إلى المرورة.

---

(١) البحار ج ٧٧، ص ٨٥.
(٢) المحجة ج ٥، ص ١٩٣.
(٣) البحار ج ٧١، ص ٢٨٣.
(٤) البحار ج ٧١.
(٥) غرر الحكم.
(٦) البحار ج ٧١.

سكت السلطان ولكن بان على وجهه الاشمئزاز مني، فقررت حينئذٍ أن أبرهن على أنني صادق فيما نقلته، فكتبت إلى إيران أن يرسلوا إليّ شهادات العلماء والمعنيين من الخبراء بصحة كلامي، بقيت فترة إلى أن جاء في الجواب فأتيت به إلى السلطان فنظر في الكتاب والشهادات ثم قال: كنت أعلم أنك لا تكذب ولكني أسألك: الكلام الذي يحتاج المرء في إثباته إلى أربعين شاهداً أو أكثر، لماذا يتفوه به الإنسان»، فقلبه تراه دائماً مشغولاً في الدفاع عن النفس، ورفع اللائمة عنها، وكثيراً ما يندم على ما تكلم به وتمنى لو أنه تأنّى ولم يقله، بخلاف الذي يمسك لسانه إلا فيما يعنيه، فإنه في غنى عن ذلك فهو مرتاح من هذه الناحية، وهو آمن من الندامة وحسرتها، «**من سجن لسانه أمن من الندامة**»[1].

ولنتكلم عن بعض آفات اللسان الموبقة التي لا بد من اجتنابها لكي تَتَحَصّل في نفس الإنسان، الصفة الأولى من صفات المتقين وهي «الصواب في النطق»، ومن دون تجنبها سيفقد المرء هذه الصفة وبالتالي سوف يخرج عن حدود التقوى. وسأتعرض إلى ما هو مورد ابتلاء لدى عامة الناس، بل حتى لدى المثقفين الملتزمين.

(١) غرر الحكم.

آفات اللسان

- الكذب
- النميمة
- الغيبة
- اللسانات والوجهان
- الاستهزاء
- أذية المؤمن وإهانته.. الاستخفاف به.. تعييره.. سبُّه...

آفات اللسان

الكذب

- أسبابه
- التغليظ في تحريم الكذب
- عذاب القبر والصورة البرزخية للكذاب
- آثار الكذب السيئة في الدنيا
- لا يفرق في تحريم الكذب بين الصغير والكبير والجدّ والهزل
- قول (يشهد الله) كذباً حرام ومن أعظم الذنوب
- الكذب في الرؤيا محرَّم
- ترك الكذب سبب ارتفاع الدرجات
- مستثنيات الكذب:
  - الكذب لدفع ظلم الظالم
  - الكذب لإصلاح بين المؤمنين
  - الكذب في الحرب

الكَذِب

إن من الآفات المستشرية في المجتمع بين عامة الناس، وكذلك تتواجد بنسبة ملحوظة في أوساط الملتزمين بالظواهر الشرعية، آفة الكذب الأثيمة فإنها تكاد أن لا يحسب لها حساب في معادلة الصلاح والفساد. والطاعة والمعصية، في معادلة التقوى واللاتقوى، فإنك قد تجد إنساناً يدعي الصلاح والانضباط والجرأة، ويعدّ نفسه وجيهاً في قومه ولكنه يكذب، ولا يعد الكذب مُخِلاً بما يَعْتَدُّ به من نفسه، بل لا يلتفت إلى ذلك.

وقد تجد شخصاً مؤمناً ملتزماً بطقوس الإيمان الظاهرية، ولكنه يكذب، ولا ينتبه إلى أنه بكذبه قد أخل بآداب الباطن لتلك الطقوس، وأنه بفعله القبيح هذا قد خسر فرصة تذوّق طعم الإيمان الحقيقي وابتعد عنها أميالاً **«لا يجد عبد طعم الإيمان حتى يترك الكذب»**[1] بل قد يخرب إيمانه بهذه الصفة الرذيلة **«إن الكذب هو خراب الإيمان»**[2] فما أسباب شياع هذه الآفة الأخلاقية في المجتمع، وتساهل الناس فيها إلى حد أنهم قد يغفلون عن أنها عامل سلبي كبير يحط من درجة الكمال والإيمان لدى الشخص؟.

---

(١) أصول الكافي ج ٢ ب الكذب ح ١١.
(٢) أصول الكافي ج ٢ ب الكذب ح ٤.

هناك عدة أسباب بنظري لذلك:

أولاً: عدم الإدراك والعلم بخطورة الكذب على الإيمان، وعلى المروءة والمصداقية. فإن الكثير قد تهاونوا بهذه المسألة واعتادوا على الكذب لأنهم وإن كانوا يشعرون بنسبةٍ ما بقبح الكذب في قرارة أنفسهم، ولكن لم يذعنوا بشدة خطره واهتمام الشريعة الكبير بالزجر عنه. لكي تحدث في أنفسهم إرادة وتصميم للإقلاع عنه، فهؤلاء إذا عرفوا وأذعنوا بأن هذه الصفة القبيحة مهلكة للدين، ومذهبة للمروءة، والكرامة، والمصداقية عند الناس في الدنيا ـ كما سنبين ذلك فيما سيأتي ـ فإنهم سيتخلصون من الكذب ولو كلفهم جهاداً مريراً مع النفس.. فالمهم أن يوقنوا بما قاله أمير المؤمنين عليه السلام:

«ثمرة الكذب المهانة في الدنيا، والعذاب في الآخرة»[1].

«الكذب في العاجلة عار، وفي الآخرة عذاب النار»[2].

ثانياً: اقتناص هذه الصفة من المحيط الذي ينشأ الشخص ويتربى فيه، ابتداء من الأبوين عندما يراهما عملياً منذ الصغر يطلقان الكذبة تلوى الأخرى وهو يراقب بادئ الأمر مع ارتسام علامات الاستفهام في مخيلته، فلا يجد نفسه بعد مدة إلا ويمارس لاشعورياً وتلقائياً، نفس الدور الذي مَثّله أبواه أمامه، وإن كان يسمع منهما من حين إلى آخر: «لا تكذب..» «الكذب قبيح» «نحن لا نحب الكذب..» فإن هذه الإرشادات القولية تنسحق تحت وطأة سلوكهما الفعلي أمامه، الذي كان يتجرّعه جرعة جرعة بعد كل كذبة منهما كان يراها ويسمعها، فاستحكم واستقر في شخصيته، وتحول ذلك النهي اللفظي عن الكذب الذي يتلقاه من أبويه إلى مجرد ألفاظ جوفاء لا تعني له شيئاً في قرارة ذاته.

---

(١) غرر الحكم.

(٢) غرر الحكم.

ثم وصولاً إلى أصدقائه، ثم إلى المجتمع بدائرته الأوسع.. التجارية والحرفية.. فإن النتيجة الغالبية بالشكل الطبيعي ستكون هي الاعتياد على الكذب، ضمن إطار ما هو سائد ومنتشر في المجتمع، إلا من تدرع بدرع الإيمان القوي والعلم، والإرادة والعمل على تحصيل الفضيلة والتقوى..

ثالثاً: خباثة الذات، والعامل الوراثي، فإنك قد تجد بعض الأفراد منذ الصغر تطغى عليهم صفة الاحتيال والمواربة، والكذب، من دون أن يكونوا قد تأثروا بمحيط العائلة، لكون العائلة نزيهة مؤمنة بعيدة عن هذه الصفة القبيحة. فمن يجد في نفسه ميلاً إلى الكذب ودافعاً باطنياً، ومقتض قوياً لذلك، عليه أن ينبه نفسه إلى أن الخطر بالنسبة له مضاعف. لاشتراكه مع غيره في العامل الاجتماعي الخارجي، وزيادته عليه بالعامل الداخلي الذاتي. فجهده يجب أن يكون أكبر، وجهاده أمرّ، لكي يتخلص من هذه الرذيلة الأخلاقية.

رابعاً: بعض الشبهات الناشئة عن الفهم الخاطئ، والتفسير المشوب بهوى النفس لبعض الروايات المجوِّزة للكذب. وسنتعرض لذلك عند البحث في مستثنيات حرمة الكذب.

خامساً: الخوف من العقوبة وهذا كثيراً ما يحصل في العلاقة بين الآمر والمأمور كالمدير والموظف، والأب وولده، والأستاذ وتلميذه. والمؤمن الشجاع يعترف بخطئه إذا أخطأ ولو استلزم ذلك تحمل العقوبة، فإنه لا يكذب للتهرب من عقوبة محققة بشأنه، وإنما يفعل ذلك من خارت إرادته وضعفت همته، وقلت مروءته.

سادساً: التوصل إلى تحصيل الرزق، أو منفعة ما، فإنه مع ضعف الإيمان بالغيب وضعف التوحيد لدى المرء، تراه يتوسل بكل وسيلة للوصول إلى درّ الأرباح أكثر، ومن أهم الوسائل لذلك بنظره السطحي

الكذب، وخاصة مع ضغوط أعباء الحياة، ويبرر ذلك لنفسه بأن جميع الناس هكذا، فإذا خرجتُ عما هو عليه المجتمع وتعاطي الناس فسوف تبور تجارتي وتكسد بضاعتي ناسياً أو متناسياً أو جاهلاً وغير موقن بأن رزقه مقسوم من قبل رب العباد، وهو عليه أن يسعى في طلبه بالطرق المحلّلَة، فلا بد من تقوية التوحيد في نفسه فيرفض ساعتئذٍ الوسائل القبيحة المحرمة لتحصيل الرزق والتي من أهمها وأكثرها شيوعاً «الكذب».

سابعاً: حشرية بعض الناس وتدخلهم بما لا يعنيهم من خصوصيات الآخرين. فإنه يدعو إلى الكذب للتخلص من كشف تلك الأمور الخاصة، ولكن هذا طبعاً لا يكون مسوِّغاً للكذب ولا بد من استعمال وسائل أخرى للخروج عن ذلك كتبديل مجرى الحديث مثلاً، او إذا استدعى الأمر التورية، ولا بد من الإشارة إلى أن ديننا الحنيف أكّدَ على عدم تدخل المرء بما لا يعنيه من أمور الآخرين فعندها سوف لا نضطر الآخرين إلى الكذب في هذا المورد.

وإنما نتخلص من ذميمةٍ أخلاقيّةٍ ما إذا قضينا على أسبابها. فأولاً يجب أن نتعرف على مدى خطورة الكذب من خلال النصوص الشرعية، فيرتفع الجهل المسبِّب للتهاون، والذي يجر إلى العادة، وأيضاً يقوى الدافع النفسي، وتقوى الإرادة وتنتصر على العامل الشخصي الذاتي الإرادي، ثم بعدها نبحث عن المستثنيات من الحكم بحرمة الكذب فترتفع الشبهات التي قد أوقعت الكثيرين في شباكه بتخيل تجويز بعض أفراده.

١ ـ التغليظ في تحريم الكذب:

لم يقع بحث ولا ترديد في أصل حرمة الكذب، وفي أن بعض مصاديقه من الكبائر بل من أكبر الكبائر، وإنما وقع البحث في عد بعض مصاديقه الأخرى من الكبائر بعد التسليم بأصل حرمتها.

فالكذب لا شبهة بأنه من أعظم الذنوب وأفحشها، وأن علته أقبح علة، فهو مفتاح الشرور، ورأس الفجور، وحرمته من ضروريات الدين الحنيف، بل جميع الأديان.

وقد ذهب الفاضلان العلامة والمحقق الحليان (قدهما)، والشهيد الثاني (قده) وتبعهما الشيخ الأعظم الأنصاري (قده) إلى أن مطلق الكذب من الكبائر سواء ترتبت عليه مفسدة أم لا، وذلك استناداً إلى إطلاق جمع من الروايات التي دلت على أن الكذب من الكبائر من دون أن تفصِّل بين ما يترتب عليه مفسدة، وما لا يترتب عليه ذلك.

وقد خدش بعض الفقهاء بدلالة تلك الروايات على المطلوب، ومنهم الإمام الخوئي (قده) إلا أن مذهبه (قده) «أن الذنوب كلها كبيرة وإن كان بعضها أكبر من بعض، وإنما أطلقت الكبيرة على بعضها دون الآخر لإبراز أشديتها عن غيرها، فإن ارتكاب أي معصية وإن كانت صغيرة يوجب الانحراف عن الدين، والخروج عن الصراط المستقيم، لكون ذلك هتكاً للمولى وجرأة عليه، كما أن الخروج عن الطرق التكوينية انحراف عنها»[1].

على أي حال لم يشك أحد في تحريم الكذب، وإن كان بعض أفراده أشد من البعض الآخر، إلى أن تصل شناعته في بعض مراتبه إلى درجة فظيعة. لمفاسده المريعة التي قد تفوق مفاسد الزنا، وشرب الخمر. فيكون أفظع من الزنا، وأَشَرّ من الشراب.

فعن رسول الله ﷺ: **«إن المؤمن إذا كذب بغير عذر لعنه سبعون ألف ملك، وخرج من قلبه نتن حتى يبلغ العرش، وكتب الله عليه بتلك الكذبة زنية، أهونها كمن زنى بأمه»**[2].

(١) مصباح الفقاهة ج ١ بحث الغيبة ص ٣٢١.

(٢) مستدرك الوسائل.

وعن الباقر عليه السلام: **«إن الله جعل للشر أقفالاً وجعل مفاتيح تلك الأقفال الشراب والكذب شر من الشراب»**[1].

وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: ما عمل أهل النار؟

فقال صلى الله عليه وآله: **«الكذب، إذا كذب العبد فجر، وإذا فجر كفر، وإذا كفر دخل النار»**[2].

وهذه الروايات تنظر إلى الكذب الذي مفسدته كبيرة، كالذي يجر الأذية للمؤمنين، والتفريق فيما بينهم، وتقطيع ما أمر الله به أن يوصل، فرب كذبة هدمت أسرة، ورب كذبة وافتراء سببت مهاجرة بين أبناء عائلة واحدة إلى آخر العمر.. وكم من كذبة سفكت دماً.. وتنظر هذه الروايات إلى الكذب على الله ورسوله، وأوليائه المعصومين عليهم السلام بأن يسند إليهم من دون حجة أقوالاً لم تصدر عنهم، وتنظر إلى شهادة الزور الكاذبة التي قد يقتل مسلم بسببها أو تقطع يده..

نعم إن هذا يستوجب لعنة سبعين ألف ملك، وإن هذا يسبب الفجور بل هو الفجور بعينه، ومن تورط بذلك وأمثاله هوى في وادي الخذلان السحيق حتى يصل إلى الخاتمة السيئة نستجير بالله تعالى، ولعل النبي صلى الله عليه وآله يشير إلى ذلك بقوله: **«إذا كذب العبد فجر، وإذا فجر كفر...»** وكان أشر من شارب الخمر، مع أن الشراب يكسر كل موانع الرذيلة، ويترك الإنسان وجهاً لوجه مع الشرور.

فإن أقفال الشرور هي الكوابح التي تقف في وجه النفس الأمارة بالسوء وفي وجه الشيطان الخناس، من عقل وحكمة، وخوف من الله تعالى، وحياء من الناس، ومروءة، وشرف وكرامة، وإنسانية... فهذه

(١) الكافي ج ٢ ب الكذب ح ٣.
(٢) المستدرك.

هي الموانع التي تكبح جماح الشهوة، والغضب، والشيطان، وهذه كلها تتحطم بفعل الشراب الأثيم، فلا عقل يبقى ولا إدراك، وإذا ذهب العقل قالت له المعاني الإنسانية جمعاء خذنا معك، وعندها لا يبقى في الساحة سوى الرذيلة.

ومع كل ذلك الرواية تصرّح بأن الكذب شر من الشراب، ولعله لأجل أن الثَّمِل يصنع ما يصنع بلا شعور، بينما الكاذب يكذب عن قصد، وسابق انتباه، وقد يؤخذ على يدي الشارب للخمر فيجعل في مكان مغلق حتى يفيق من سكره فيؤمَن شره، وأما الكاذب فإنه يصطنع الشر، ويحاول إقناعك بخلاف الواقع فهو كالسراب يقرّب إليك البعيد، ويبعد منك القريب، وكلما أفنى أحدوثة مطاها بأخرى، فتتوالى أكاذيبه وشروره دون أن يرعوي أو يرتدع، ويتمادى إلى أن يدخل في الشهادة الكاذبة على مؤمن، أو في الأيمان الغموسة، أو في الغش وعدم النصيحة للمؤمنين من عباد الله مع أن «الدين نصيحة»، ويفسد جل معاملاته مع خلق الله مع أن «**الدين معاملة**» فصدقاً «**علّةُ الكَذب أقبحُ علة**» كما وصفه أمير المؤمنين عليه السلام، فإنه قد يصل بصاحبه إلى درجة يفقد إيمانه، وهو مع ذلك متمادٍ لا يرعوي، فعن الباقر عليه السلام: «**الكذب خراب الإيمان**» وفي المستدرك عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**الكذب مجانب للإيمان**» وعن الإمام الرضا عليه السلام: «**سُئِل رسول الله صلى الله عليه وآله يكون المؤمن جباناً؟ قال: نعم، قيل: ويكون بخيلاً؟ قال: نعم، قيل: ويكون كذاباً؟ قال: لا**»[1] وعنه عليه السلام: «**الكذب يؤدي إلى النفاق**»[2] وعن النبي صلى الله عليه وآله كما في البحار: «**كثرة الكذب يمحو الإيمان**».

(١) الوسائل ج ٨ ب تحريم الكذب من أبواب أحكام العشرة ح ١١.
(٢) المصدر.

ـ عذاب القبر.. والصورة البرزخية للكذاب:

نقل الراوندي في كتاب الدعوات رواية عن النبيﷺ تفيد بأن الكذّاب يُعَذّب في قبره في عالم البرزخ إلى يوم القيامة، وعالم البرزخ يتم فيه التطهير للمذنبين من ذنوبهم، فمنهم من يطهر عن قريب، ومنهم من يحتاج إلى زمن أطول، ومنهم من يحتاج لكي يطهر إلى أمد بعيد لعظم ما ارتكب من المعاصي، والكذّاب يبقى في العذاب ولا يطهر من آثار كذبه إلى يوم القيامة، ففي حديث من أحاديث المعراج يقول النبي الأعظمﷺ: «**.. رأيت كأن رجلاً جاءني فقال: قم، فقمت معه فإذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس، بيد القائم كلوّب من حديد يلقمه شدق الجالس، فيجذبه حتى يبلغ كاهله**(*) **ثم يجذبه فيلقمه الجانب الآخر، فيمده فإذا مده رجع الآخر كما كان.**

فقلت للذي أقامني: ما هذا؟

فقال: «هذا رجل كذّاب يعذب في قبره إلى يوم القيامة»(١).

فهذه الرواية تتضمن أمرين آخرين غير ما أفادته من دوام عذاب الكذاب في عالم البرزخ إلى يوم القيامة، وهما:

أولاً: الكيفية المخيفة لتعذيب الكذّاب في البرزخ، فإنها تتم بواسطة إلقام الكذّاب كلّوب من حديد في فمه بطريقة مفزعة. ولا بد أن اختيار الفم لأجل أنه المكان الذي يصدر عنه الكلام الكاذب، وأقول: هذا لون من ألوان العذاب وإلا فالكذّاب كما ورد في رواية سأذكرها فيما سيأتي (عليه ألف ألف لون من العذاب) نستجير بالله تعالى من سخطه.

(*) الكاهل: مقدم أعلى الظهر مما يلي العنق، وهو الثلث الأعلى فيه ست فقر (لسان العرب).

(١) المحجة البيضاء..

وثانياً: إن هذه الرواية ورد فيها عنوان (الكذّاب)، لا عنوان (الكاذب)، ولا بد من التفريق بين المعنيين، فإن الكذّاب بالتشديد صيغة مبالغة من الكاذب، تفيد أن صاحبها قد ترسخت فيه صفة الكذب، وأصبح الكذبُ يصدر عنه بطور مستمر دون أن يتحرز عنه بخلاف (الكاذب) فإنه اسم فاعل يفيد صدور مادة الكذب من الفاعل من دون مبالغة أو تكرار، وهذا المعنى قد يتلبس به المؤمن فينتبه ويستغفر، فالروايات التي يرد فيها عنوان (الكذاب) لا تشمل (الكاذب) أي المعنى الثاني الذي ذكرناه، ويدل على ذلك ما ورد من أن عبد الرحمن بن الحجاج قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام الكذاب هو الذي يكذب في الشيء؟ قال: «**لا، ما من أحد إلا يكون ذلك منه ولكن المطبوع على الكذب**»[1].

فاتضح أن الكذّاب هو المطبوع على الكذب، دون الكاذب، وإن كان الكاذب يرتكب محرماً بكذبه عليه أن يتوب منه فوراً، إلا أن عقوبة الكذاب (المطبوع على الكذب) أغلظ وأشد.

وإذا أردت أن تتعرف أكثر إلى التغليظ في عقوبة الكذب فانظر إلى الصورة البرزخية للكذاب، أي الصورة التي يتصور فيها في عالم البرزخ، فستجد الشيء المريع الذي ينزجر منه قلبُ كل مؤمن آمَنَ بالغيب وصدّق باليوم الآخر، ففي حديث المعراج قال رسول الله صلى الله عليه وآله للزهراء: «**ورأيت امرأة رأسها رأس خنزير، وبدنها بدن حمار، وعليها ألف ألف لون من العذاب ـ وسبب ذلك أنها كانت نمامة كذابة**»[2].

---

(١) الكافي ج ٢ ب الكذب ح ١٢.
(٢) البحار.

ـ الآثار السيئة للكذب في الدنيا:

من أهم الآثار السلبية التي يحدثها الكذب ما يتعلق بمصداقية الفرد في حياته الاجتماعية وثقة الناس به، فإن الكذّاب يُعَدّ صِفراً من حيث المصداقية، والكرامة الإنسانية، والشهامة، والمروءة، والذي يصل إلى هذا الواقع فموته خير له من حياته لأن هذه المعاني هي المائز بين الإنسان وباقي العجماوات، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**الكذاب والميت سواء لأن فضيلة الحي على الميت الثقة به فإذا لم يوثق بكلامه فقد بطلت حياته**»(١).

وعندها يجتنب الناس مصاحبتَه، ويرفضون حديثه ويشككون بكل ما يصدر عنه، حتى أنه يأتي بالحديث الصادق فلا يصدّق فيه، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**ينبغي للرجل المسلم أن يجتنب مؤاخاة الكذاب، فإنه يكذب حتى يجيء بالصدق فلا يصدّق**»(٢).

وعن الباقر عليه السلام: «**إياك ومصاحبة الكذاب فإنه بمنزلة السراب يقرب لك البعيد ويباعد لك القريب**»(٣).

ولا يقل قائل إني أتلافى ما ذُكِر بالحذاقة والذكاء، فأُمَوّه الأمرَ ولا أدع الطرف الآخر يكتشف أن القول كذب، فإن هذا من تسويلات الشيطان، وذلك لأن كذبة واحدة تُكْتَشَف تكون كفيلةً في بعض الموارد إلى نزوله من أعين الناس، وفقدان ثقتهم به، وتسويد وجهه عندهم فعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إياك والكذب فإنه يسود الوجه**»(٤) وخاصة إذا كان الله تعالى يعين على افتضاح الكذابين، فعن الإمام الصادق عليه السلام كما في

(١) غرر الحكم.
(٢) أصول الكافي ج ٢ ب الكذب ح ١٤.
(٣) أصول الكافي ج ٢، ص ٣٧٦.
(٤) مستدرك الوسائل.

الوسائل «**إن مما أعان الله على الكذابين النسيان**» فإن الكاذب يخبر بخبر ثم بعد زمن ينسى ما أخبر به، فيخبر بنقيضه فينكشف وينفضح أمره. والمعصومون عليهم السلام كثيراً ما حذرونا من هذه النتيجة المزرية التي يصل إليها الكذوب ففي الرواية: «**لا مروءة لكذوب**» «**لا يجتمع الكذب والمروءة**»[1].

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «**أقل الناس مروءة من كان كاذباً**»[2].

وعنه أيضاً صلى الله عليه وآله: «**لا رأي لكذوب**» «**الكاذب مهان ذليل**»[3].

وعن الصادق عليه السلام: «**لا تكذب فيذهب بهاؤك**»[4].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**من عرف بالكذب قلت الثقة به، من تجنب الكذب صُدِّقَتْ أقوالُه**».

ثم من يصل إلى هذا الواقع المرير يكون مُهيناً نفسه، فكيف يُقَيّم نفسَه، ويُعِزُّها، ويقدّرُها، مَنْ يداوم على الكذب، وهو يدري أنه سيوصله إلى المهانة والذل؟ فهو يزري بنفسه، ولا يفعل ذلك إلا من هانت نفسه عليه، يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «**لا يكذب الكاذب إلا من مهانة نفسه**»[5].

ومن جملة الآثار للكذب في الدنيا:

ـ أنه يورث الفقر فعن أمير المؤمنين كما في البحار: «**اعتياد الكذب يورث الفقر**».

ـ أنه ينقص الرزق فعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**الكذب ينقص الرزق**»[6].

---

(١) غرر الحكم.
(٢) المستدرك.
(٣) غرر الحكم.
(٤) البحار ج ٧٢، ص ١٩٢.
(٥) البحار ج ٧٧، ص ٢١٢.
(٦) الترغيب ج ٣.

وفي الرواية في الصادق عليه السلام كما في البحار: «**إن الرجل ليكذب الكذبة فيحرم بها صلاة الليل، فإذا حرم صلاة الليل حرم بها الرزق**».

ـ وأنه يورث الندم فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**عاقبة الكذب الندم**»[1].

لا يفرق في الكذب بين أبيض وأسود.. صغير وكبير.. مزاح وجد.. فكل الكذب محرّم:

وقد يشتبه الأمر على كثير من الناس، فيقولون نحن يصدر منا بعض الكذبات في أمور لا نتصور أن تكون محرمة، ويسمون تلك الكذيبات بنظرهم تسمياتٍ شتّى مثلاً يسمون إحداها بالكذبة البيضاء، وبعضها بالكذبة الصغيرة، وأخرى عندهم تسمى بالمزاح، وغيرها للاصطلاح وو..!!!

وعلى هذا المسار ترى البعض يكذب في يومه وليلته من الأكاذيب ما شاء الله، ويتمسك لكل كذبة بتبرير يخرجه بزعمه عن حد القبح والتحريم.

فهل يوجد في الإسلام كذبة بيضاء وكذبة سوداء؟

وهل في الكذب صغير وكبير، والصغير منه حلال؟

وهل الكذب في المزاح ليس بحرام؟

الإمام السجاد عليه السلام يختصر الطريق في رواية واحدة يقول عليه السلام كما في الكافي: «**اتقوا الكذب الصغير منه والكبير في كل جد وهزل**».

فأولاً: ما يعد عند الناس صغيراً: فإنه محرم ولا يجوز كما دلت عليه الروايات منها الرواية السابقة، ومنها كما في سفينة البحار عند

---

(١) البحار ج ٧٧.

الرسول ﷺ: «إن الكذب ليكتب حتى الكُذَيْبَة كُذَيْبَة» وقد قالها النبي ﷺ في حادثة ترويها أسماء بنت عميس تقول: كنت صاحبة عائشة التي هيأتها وأدخلتها على رسول الله ﷺ ومعي نسوة، قالت فوالله وما وجدنا عنده ﷺ قوتاً إلا قدحاً من لبن، فشرب ثم ناوله عائشة فاستحيت الجارية، فقلت: لا تردي يد رسول الله ﷺ خذي منه، قالت: فأخذته على حياء فشربت منه ثم قال ﷺ: ناولي صواحبك، فقلن: لا نشتهيه، فقال ﷺ: لا تجمعن جوعاً وكذباً، قالت: فقلت: يا رسول الله: إن قالت إحدانا لشيء لا نشتهيه أيعد ذلك كذباً؟ قال النبي ساعتئذٍ: «إن الكَذِبَ لَيُكْتَب حتى الكُذَيْبَة كُذَيْبَة».

فهذه الرواية تدل على أن أمثال هذه الإخبارات داخلة في الكذب حتى وإن كان المقام مقام مجاملة أو حياء وخجل، أو تهاون واستهتار، فهي كذيبات تكتب على الإنسان، فتكون مشمولة للروايات التي تنهى عن الكذب الصغير منه والكبير، وللروايات التي تحرم الكذب مطلقاً دون تقييد بالكبير، في بعض الروايات: «**من أتى بالصغير اجترأ على الكبير**».

فإذا كان الأمر كذلك فما أدق تكليف الإنسان في حياته الاجتماعية، وكم يجب أن يكون حريصاً في معاملاته، ومجاملاته، وأحاديثه، وأقاصيصه، لكي لا يقع في الكذب المحرم فيفقد «**منطق الصواب**» ويفقد بالتالي تقواه.

فمن نفى عن نفسه الجوع وهو جائع ارتكب محرماً، ومن نفى عن نفسه الصوم وهو صائم فقد وقع في الكذب وهو صائم، ومن قال لخادمه، أو لابنه، قل للطارق لست في الدار، مع أنه في الدار فهو كاذب، فلا بد في كل ذلك مع الضرورة من التورية، وهي أخبارٌ صادقٌ عن شيءٍ واقع، يفهم منه المخاطَبُ شيئاً آخر يوافق مراد المتكلم، وقيدت استعمال التورية بالضرورة لأن اعتياد التورية له آثار لا تحمد عقباها.

ثانياً: المزاح في الكذب: وهو على قسمين: **الأول:** ما يسمى باللّطائف والنكت كالذي يروى عن (جحا) مثلاً وغيره. وهذا لا إشكال فيه، مع وجود القرينة على إرادة الهزل.

والثاني: أن يكون الهازل مخبراً عن الواقع ولكن بداعي الهزل، كالإخبار عن قدوم شخص من السفر، أو حدوث حادثة، مع عدم المطابقة للواقع. كأن يقول لشخص إن فلاناً سأل عنك وأرسل وراءك، فيذهب إليه ويجد بأنه لم يرسل في طلبه، فهذا داخل في الإطلاقات المحرمة للكذب وسنذكرها فيما يلي ومنها (كذبة نيسان) المتعارفة، وهناك روايات متعددة ظاهرها تحريم الكذب في مقام المزاح والهزل وهي:

ما ذكرنا عن السجادعليه السلام: **«اتقوا الكذب الصغير منه والكبير في كل جد وهزل»**[1].

وفي الوسائل عن أمير المؤمنينعليه السلام: **«لا يصلح الكذب جد ولا هزل»**.

وفي وصية النبيصلى الله عليه وآله لأبي ذر: **«إن الرجل ليتكلم بالكلمة في المجلس ليضحكهم بها فيهوي في جهنم ما بين السماء والأرض»**.

«يا أبا ذر، ويل للذي يُحدّث ويكذِب ليضحك به القوم، ويل له، ويل له».

وفي خصال الصدوق عن النبيصلى الله عليه وآله: **«أنا زعيم بيت في أعلى الجنة، وبيت في وسط الجنة، وبيت في رياض الجنة، لمن ترك المراء وإن كان محقاً، ولمن ترك الكذب وإن كان هازلاً، ولمن حسن خلقه»**.

وعن النبيصلى الله عليه وآله: في بيان أشراط الساعة: «يكون الكذب عندهم

---

(١) أصول الكافي.

ظرافة، فلعنة الله على الكاذب ولو كان مازحاً»[1].

وعليه ينبغي للمؤمن أن يتحرز عن الأكاذيب التي هدفها إنشاء قلق وحزن ومضايقة في الطرف الآخر، ثم بعدها تُذْكر الحقيقة لكي تكون ألذّ لديه، ومثالها: أن يكون شخص منتظراً لنتيجة امتحان مثلاً، فأُخبِرُهُ برسوبه أولاً، ثم بعد ارتسام علامات المضايقة على وجهه أقول له إني مازح، وأمثال ذلك، وإذا كانت هذه الإخبارات الكاذبة تسبب أذية للمؤمن، فَتَحْرُم من باب آخر، وهو باب حرمة أذية المؤمن.

(١) المستدرك.

قول العبد «يشهد الله» أو «يعلم الله» كذباً، من أعظم الذنوب:

هذه مسألة شائعة بين الناس، ولا يُلْتَفَتْ لعظمها، فما أسهل أن يقول الشخص يشهد الله أني لم أفعل.. أو يعلم الله أن قيمة هذه السلعة كذا، أو أنني اشتريتها بكذا ويكون إشهاده لله تعالى على شيء كاذب لا واقع له، دون أن يكترث أو يهتم إلى ذلك، فَفِكْرُه منحصر بطريقة الوصول إلى غرضه الذي قد يكون متاعاً دنيوياً حقيراً، أو ربح درهم أو دراهم معدودات لا قيمة لها، أو إثبات مطلب لدى المخاطب يريد تأكيده في نفسه ورفع الشك من قلبه فيه، مع أنه مطلب خلاف الواقع.. الخ.

ولا يدري المسكين أنه بإشهاده الله تعالى على أمر كاذب جعل عرش الرحمٰن يهتزّ ففي الكافي عن الصادق عليه السلام: «**من قال علم الله ما لا يعلم، اهتز له العرش إعظاماً لله عز وجل**».

وفي معراج السعادة في رواية: «**إن العبد إذا أشهد الله على أمر خلاف الواقع، قال الله تعالى: ألم تجد من هو أضعف مني تشهده على ذلك**».

وفي رواية عن الوسائل: «**إذا قال العبد علم الله وكان كاذباً، قال الله تعالى: أما وجدت أحداً تكذب عليه غيري**».

وفي المحجة عن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله: «**إن من أعظم الذنوب عند الله أن يقول العبد: إن الله يعلم لما لا يعلم**».

فلنعظِّم الله تعالى ونُجِلّه عن أن نشهده على شيء كذب (معاذ الله) من أجل أمر دنيوي زائل ولنخجل من أنفسنا، بل حتى الأمور الصادقة، قد يترك المتقون الحلف عليها، وإشهاده تعالى لأجل إثباتها، تنزيهاً وتعظيماً، وإن كان عدم الحلف يُسَبِّب إضاعةَ حقهم، فكم الفرق شاسع بين هؤلاء وأولئك؟!!

اختلاق الأحلام، أو الزيادة والنقصان فيها، كذب محرم:

قد يأتي إلى ذهن الفرد، أن عالم الرؤيا والأحلام لا واقعية له، فللشخص أن يمارس هوايته بأن ينسج الأحلام كما يريد ليقصّها على الآخرين بهدف إثبات مآرب متعددة، كإيهام الآخرين بكرامته لدى الأولياء، حيث أنه يراهم في عالم الرؤيا باستمرار مثلاً، ويباركون له، ويهدونه الأوسمة، أو يبشرونه ببشائر.. إلى ما هنالك من مقاصد.

ويتهاون في الكذب في هذا المورد، لأنه موقع الأحلام فأي أثر سيترتب إذا كذب فيه؟ وهل هو إلا خيال بخيال؟!

ذاهلاً عن أن ذلك داخل في أقسام الكذب المحرم.

ففي الرواية عن رسول الله ﷺ كما في البحار: «**إن من أعظم الذنوب أن يُدعَى الرجل إلى غير أبيه، أو يري عينيه في المنام ما لم تريا، . . .**».

وفي المحجة عن النبي ﷺ: «**إن أعظم الفِرَى أن يُرِي عينيه في المنام ما لم تريا..**».

وفي رواية أخرى: «**من كذب في حلمه كُلِّفَ يوم القيامة أن يعقد بين شعرتين**».

والآن بعد أن تَبينَتْ عواقب الكذب، الدنيوية، والبرزخية، والأخروية، هل يبقى لمؤمن عذر ولو في كذبة؟!!

فمن كان حريصاً على دينه، موقناً بلقاء ربه، وبأنه سيحاسبه، وأنه حتى الكُذَيْبَة تكتب عليه كُذَيْبَة، وحتى الكذب بداعي المزاح سيسأل عنه، وأن قول «يعلم الله»، أو «يشهد الله» على أمر ليس صحيحاً، هو من الذنوب التي سيحاسب عليها، وأن نسج رؤيا كاذبة، والحديث بها هو افتراء يعاتب عليه..

من كان كذلك تراه حريصاً على أن لا يصدر منه ولو كذبة واحدة، مدققاً في أقواله قبل أن يطلقها، ففي وصية رسول الله ﷺ لأمير المؤمنين عليه السلام:

«يا علي أوصيك في نفسك بخصال فاحفظها عني... أما الأولى فالصدق ولا يخرجن من فيك كذبة أبداً»(١).

ونفسه أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «.. **وقد علمتم موضعي من رسول الله ﷺ** بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة.. ما وجد لي كذبة في قول، ولا خطلة في فعل»(٢).

وعنه عليه السلام: **«والله ما كتمت وشمة ولا كذبت كذبة»**(٣).

وعن الإمام الحسين عليه السلام: **«والله ما تعمدت الكذب منذ علمت أن الله يمقت عليه أهله وَيضُرُّ به من اختلقه»**.

ومن قال أكذب في هذا المورد الصغير فإنه لا مفسدة فيه ولا ضرر، فإنه سيعتاد على الكذب في موارد أخرى، وهكذا حتى يجترئ على الكبير، (مع أنه ذكرنا سابقاً بأنه لا فرق في حرمة الكذب بين الصغير والكبير).

يقول الإمام الباقر عليه السلام كما ورد في كتاب الكافي الشريف: «**كان علي ابن الحسين صلوات الله عليهما يقول لولده: اتقوا الكذب، الصغير منه والكبير في كل جد وهزل، فإن الرجل إذا كذب في الصغير اجترأ على الكبير، أما علمتم أن رسول الله ﷺ** قال: ما يزال العبد يصدق حتى يكتبه الله صِدّيقاً، وما يزال العبد يكذب حتى يكتبه الله كذّاباً»(٤).

---

(١) روضة الكافي ص ٧١، ح ٣٣.
(٢) نهج البلاغة خ ١٩٢.
(٣) النهج خ ١٦.
(٤) أصول الكافي ج ٢ ب الكذب ح ٢.

وإن رسول الله ﷺ كان قد نال مصداقيته عند الناس قبل البعثة بأنه (الصادق الأمين)، وكذلك نال حظوة عند الله بهاتين الصفتين، وكذلك أمير المؤمنين عليه السلام بلغ ما بلغ عند رسول الله ﷺ بصدق الحديث وأداء الأمانة، ففي الرواية أن الإمام الصادق عليه السلام قال لأبي كهمس: إذا أتيت بن أبي يعفور فاقرأه السلام وقل له: إن جعفر بن محمد يقول لك: «**انظر ما بلغ به علي** عليه السلام عند رسول الله فالزمه، فإن علياً إنما بلغ ما بلغ به عند رسول الله ﷺ بصدق الحديث وأداء الأمانة»[1].

فانظر يا أخي إلى أهمية أن يرتدع العبد عن الكذب بكل أشكال لكي يصبح صادقاً، فإنه بالصدق تنال المراتب، وتزكّى الأعمال عند الله تعالى.

يقول الصادق عليه السلام: «**من صدق لسانه زكى عمله**»[2].

(١) أصول الكافي ج ٢، ص ١٠٤ باب الصدق وأداء الأمانة ح ٥.
(٢) المصدر ح ٤.

«مستثنيات حرمة الكذب»

لقد ورد في الشريعة تسويغ الكذب في عدة موارد:

١ ـ الكذب لدفع ضرر الظالم عن النفس أو المال، وعن الأخ المؤمن أو ماله.

٢ ـ الكذب للإصلاح بين المؤمنين.

٣ ـ الكذب للمكايدة في الحرب.

المورد الأول: الكذب عند الضرورة لدفع ظلم الظالم:

لا بد لنا أولاً أن نوضح أن حرمة الكذب ليست ذاتية كحرمة الظلم مثلاً، فإنه لا يوجد عندنا ظلم حسن، وظلم قبيح، بل كل ظلم قبيح، كل ما صدق عليه أنه ظلم فهو قبيح، لذلك ورد في وصايا أهل البيت عليهم السلام: «**وإذا ظُلِمْتَ فلا تَظْلِم**» بخلاف الكذب فإنه يختلف قبحه بالوجوه والاعتبارات، فإذا وقع تزاحم بين حرمة الكذب ووجوب إنجاء المؤمن من يد الظالم مثلاً، فإما أن يكذب المكلف وينجي مؤمناً، وإما أن يصدق وتتلف نفس أخيه، فهنا لا نقول بجواز الكذب فحسب بل قد يتحول إلى واجب، وكذلك الكلام في إنجاء نفسه أو عرضه، وقد وردت روايات كثيرة تدل على ذلك أذكر بعضها:

ـ عن إسماعيل عن الرضا عليه السلام في حديث قال: «**سألته عن رجل**

أَحْلَفَه السلطان بالطلاق، أو غير ذلك فحلف؟ قالعليه السلام: لا جناح عليه.

وعن رجل يخاف على ماله من السلطان فيحلفه لينجو به منه؟ قالعليه السلام: لا جناح عليه. وسألته هل يحلف الرجل على مال أخيه كما يحلف على ماله؟ قال**عليه السلام**: نعم»[1].

ـ وفي رواية عن رسول الله**صلى الله عليه وآله**: «**احلف بالله كاذباً، ونج أخاك من القتل**»[2].

ـ وعن إمامنا الصادق**عليه السلام**: «**اليمين على وجهين... فأما الذي يؤجر عليها الرجل إذا حلف كذباً ولم تلزمه الكفارة فهو أن يحلف الرجل في خلاص امرئ مسلم أو خلاص ماله من متعد يتعدى عليه من لص أو غيره**»[3].

وينبغي التنبيه إلى مسألة مهمة في المقام، وهي أنه مرتكز في أذهان كثير من الناس تسويغ الكذب لكل ما يجلب الفائدة، ويحقق المنفعة الشخصية لديهم، فجوّزوا لذلك الكذب في أي معاملة إذا كانت ستجرُّ لهم نفعاً، وإن أَلْحَقَتْ ضرراً بالآخرين، فيُبيح البائع لنفسه الكذب في قيمة الشراء لسلعةٍ ما لكي يضاعف أرباحه، وإن كان المشتري سيُغْبَن ويتضرر.

ويتذرعون بذرائع يساعدهم الشيطان على نسجها في مخيلاتهم مرجعها إلى أن من عاش في مجتمع يكذب، فلا بد له أن يكذب، وإلا لما استطاع استدامة الحياة والمعاشرة والمعاملة، والأخذ والعطاء بين أفراد ذلك المجتمع، فالذي بناؤه أن يصدق سيجبره احتيال الناس، ونصبهم، وغشهم، وكذبهم، على أن يرجع القهقرى إلى أن يجد نفسه

---

(١) الوسائل ج ٣ ب جواز الحلف باليمين الكاذبة ص ٢٢٠.
(٢) المصدر.
(٣) المصدر السابق.

في يومٍ ما قابعاً في زاوية بيته مهزوماً، مفلساً، فإذن لا بد من التسانخ بينه وبين أفراد مجتمعه، لكي يحافظ على مقومات الحياة، وهذا يقتضي أن يمارس أخلاقهم، ومن أخلاقهم الكذب.

أقول هذا منطق ضعيف الهمّة، الذي لا يمتلك حب الإرتقاء والنفوذ إلى المعالي، ولو من بين المصاعب والمشقات، وخلاف ما يرشدُنا إليه أصحابُ الهمم العالية، المتطلعون إلى قمم الكمال وذروة اليقين والإيمان.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**علامة الإيمان أن تؤثرِ الصّدق حيثُ يضرّك على الكذب حيث ينفعك**»(١).

نعم فالمؤمن يتحمل المشاق مع الصدق، ويكون في صف الصادقين «**كونوا مع الصادقين**» ويرفض الكذب وإن كان فيه الرخاء ظاهراً، فإن فيه الهلكة في العاقبة يقول عليه السلام: «**اجتنبوا الكذب وإن رأيتم فيه النجاة، فإن فيه الهلكة**»(٢).

ويقول أيضاً: «**الصادق على شفا منجاة وكرامة، والكاذب على شرف مهواة ومهانة**»(٣).

ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «**إن العاقل لا يكذب وإن كان فيه هواه**»»(٤).

وخلاصةً أريد أن أقول إن الضرورةَ المسَوِّغَة للكذب ليست هي المنفعة الشخصية، بأن يجعل الإنسان نفسه مقياساً للخير والشر، فكل ما جرَّ له نفعاً وإن كانَ كذباً فهو حسن وجائز بل هو واجب وليخسَر مَنْ

(١) الوسائل ج ٢، ب ١٤١، ص ٢٣٥.
(٢) المستدرج ج ٢، ص ١٠٠.
(٣) النهج خ ٨٦.
(٤) البحار ج ٧٨، ص ٣٠٥.

خَسِر، وليتضرَّر من تضرّر.

بل هو دفع الضرر البدني والمالي عن النفس، وعن الأخ المؤمن، الذي قد يسببه الظالم بظلمه.

المورد الثاني: (من مستثنيات حرمة الكذب) الكذب للإصلاح بين المؤمنين:

المراد من الإصلاح الذي يجوز الكذب لأجله هو الإصلاح بين المؤمنين المتخاصمين، بأن يأتي مثلاً إلى الأول ويقول له إني كنت بالأمس مع فلان (خصمه) وقد كان يتكلم بشأنك كلاماً جميلاً، ويعرب عن مودته واحترامه لك. ثم يواجه الطرف الثاني بما واجه به الأول بكلام يجلب الودّ، ويصفّي القلوب ويعطفها على بعض، لكي يحصل التراضي والاصطلاح، وتُدْبِر الكدورة والشحناء، فهذا جائز وإن كان كذباً، فإن أصلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام، وهو مطلب ذو أهمية قصوى لدى الشريعة المقدسة، وتحقيقه مطلوب ولو عن طريق الكذب، وبالمقابل إن إيجاد الضغائن والإحَن في القلوب أمر يرفضه الدين ويزجر عنه بأشد ما يكون، وكل ما يساعد عليه فهو محرّم حتى وإن كان صدقاً كالنميمة.

ونأسف كثيراً لانعكاس الأمر في مجتمعاتنا، حيث تجد الفرد لا يصدق إلا في نميمة، وإذا قلت له: أخبر أخاك بأن خصمه المؤمن يحترمه ويحب إصلاح الأمر معه، أجاب بتورع!!: إن هذا كذب وأنا أتورع عن الكذب.

إذن هذا معنى الإصلاح الذي يسوغ الكذب، وليس كما ادعى فهمه البعض من العوام وكان سبباً في أن أصبحوا كذابين والعياذ بالله، فإنهم سمعوا مقولة أن (الكذب للإصلاح حلال)، فأخذوا يكذبون في كل ما توهموا فائدته لمصلحتهم، وإذا اكتشفت كذبهم بادروك بجواب حاضر لديهم (الكذب في الإصلاح حلال)، ففسروا (الإصلاح)

و(الإصطلاح) (بالمصلحة الشخصية) فكل ما كان يصب في مصالحهم الشخصية الكذب حلال بشأنه. نستجير بالله من الضلال، والجهالة، وهوى النفس الأمارة..!!

وهذه بعض النصوص الدالة على جواز الكذب للإصلاح بين المؤمنين:

عن الإمام الصادق عليه السلام: «**كل كذب مسؤول عنه صاحبه يوماً إلا كذباً في ثلاثة: رجل كائد في حربه فهو موضوع عنه، أو رجل أصلح بين اثنين يلقى هذا بغير ما يلقى به هذا، يريد بذلك الإصلاح ما بينهما، أو رجل وعد أهله شيئاً وهو لا يريد أن يتم لهم**»[1].

وعنه عليه السلام: «**المصلح ليس بكاذب**».

وعن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله: «**ليس بالكاذب من أصلح بين الناس فقال خيراً، أو نمى خيراً**»[2] أي ليس كاذباً الكذب المحرم شرعاً، وهناك روايات كثيرة في هذا المضمون، نكتفي بهذا المقدار.

المورد الثالث: الكذب في الحرب:

فالرواية السابقة دلت على أن الرجل لا يسأل عن الكذب في الحرب والمكيدة فيها، فإنه ورد أن «**الحرب خدعة**».

وفي رواية عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «**لا يحل الكذب إلا في ثلاث: يحدث الرجل امرأته ليرضيها، والكذب في الحرب، والكذب في الاصطلاح بين الناس**».

وهذا المضمون متفق عليه بين الخاصة والعامة كما قال المجلسي (قده).

---

(١) البحار ج ٧٢، ص ٢٤٢.
(٢) الترغيب ج ٣، ص ٤٨٨.

يبقى **المورد الرابع** وهو الكذب على الزوجة، فإني لا أتصور أن الرواية تدعو إلى إنشاء علاقة مبنية على الكذب بين الرجل والمرأة، فإن هذا مما يفقد الثقة بينهما، ومع فقدان الثقة أي اطمئنان ومودة وسكينة سيبقى في البيت الزوجي؟! فإنه بزوال الثقة من أحد الزوجين للآخر، سوف تهتز كل هذه المعاني السامية في العلاقة الزوجية مع أن الإسلام يجعل هذه المعاني مبتنيات الحياة الزوجية، وأسس العلاقة بين الزوجين يقول تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

فالسكينة والمودة والرحمة في الحياة الزوجية من آيات الله تعالى، التي تحتاج في دركها إلى التفكر، فكيف يدعو الدين إلى ما يسبب اهتزازها وزعزعتها؟ كيف يدعو إلى الكذب فيما بين الزوجين!!؟

إذن لا بد من التعمق أكثر لفهم ما ترمي إليه الرواية، فسياق الرواية سياق تقديم الدواء للإصلاح، فهي كما تقدم الكذب كدواء لإصلاح العلاقة بين الأخوين وذلك بعد افتراض داء في تلك العلاقة، وهو الخصومة بينهما، كذلك تقدم كذب الرجل على زوجته كدواء بعد افتراض مرض في العلاقة الزوجية يهددها بالخطر، وأما إذا لم يوجد المرض، فلا حاجة للدواء، فلا بد من استكشاف ذلك الداء الذي إذا وقع صرفنا له دواءه وإذا فُقِد لم نحتج إلى الكذب لكي نداويه به.

أنا باعتقادي أن الرواية تنظر إلى النساء الفضوليات أو المتطلبات في الحياة لأشياء لا يقدر الأزواج على تأمينها لهن، فتسخطن عليهم[1]،

(١) قال المحدث الجزائري في الأنوار النعمانية: قال لي يوماً واحد من مشايخي المجتهدين وكان كثير المطايبة والمزاح يا بني ينبغي لصاحب الزوجة (مقصوده الزوجة المتطلبة) أن يكون جفن عينيه وفخذه منه في ألم شديد، وذلك أنه إذا أراد الخروج من المنزل قالت له امرأته: هات لنا الشيء الفلاني، فيضع يده على عينه للوعدة لها، فإذا رجع إلى المنزل ولم يأت معه بشيء وقالت له أين ذلك الشيء الذي أوصيتك عليه ضرب يده على فخذه ويقول نسيت ولم أذكر فيكون هذان العضوان منه في الألم دائماً.

ويكون ذلك السخط بمثابة المرض للحياة الزوجية الذي يدق ناقوس الخطر فيها، فهنا يأتي دور العلاج والدواء وتبريد المواقف بالوعود والاسترضاءات وهذا الإصلاح للعلاقة في البيت الزوجي يسوِّغ للرجل الكذب كدواء للمحافظة على بناء الأسرة الذي هو أحب بناء إلى الله «**ما بني بناء في الإسلام أحب إلى الله من التزويج**».

فهكذا صِنْفٌ من النساء يستحق هكذا نوع من المعاملة، فكما تدين تدان، وبقدر ما يبذل المرء من تضحية وإنسانية، بقدر ما يستحق بالمقابل الإحسان والامتنان والإخلاص، فالمرأة التي لا تريد أن تعيش هموم زوجها، وتريد أن ترهقه بطلباتها التي تفوق مقدرته واستطاعته سيضطر الزوج في نهاية المطاف لكي يحافظ على علاقته الزوجية معها أن يكذب عليها ويعدها ويخلف وعده معها، لكي يرضيها، أنظر إلى الرواية ماذا تقول «**يحدث الرجل امرأته ليرضيها**»، فإنها تفترض سخطها مسبقاً لأن الإرضاء لا يكون إلا للساخط، فإذا لم تكن ساخطة لم يحتج الرجل إلى إرضائها بكذب ولا بغيره، فهي راضية قانعة، فلا مسوِّغ له للكذب عليها، وتعريض الثقة والمصادقية فيما بينهما إلى الزوال.

ولا فرق في المرأة المتطلبة بين التي تطالب زوجها بالواجب وهو في ضيق غير مستطيع لتأديته لها، وبين التي تتطلب منه كماليات غير ضرورية. وكذلك المرأة الفضولية التي تحب أن تتدخل في كل صغيرة وكبيرة من شؤون زوجها، أو المرأة الظنَّون بزوجها.

اللهم طهّر قلبي من النفاق، وعملي من الرياء **ولساني من الكذب فإن** علة الكذب أقبح علة، من يعتادها يصعب عليه أن يقلع عنها، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**إياك ومصاحبة الكذاب، فإن اضطررت إليه فلا تصدقه، ولا تعلمه أنك تكذبه، فإنه ينتقل عن ودك ولا ينتقل عن طبعه**»[1].

(١) غرر الحكم.

إذن من أراد أن يكون «منطقه الصواب» فعليه أن يقلع عن الآفة الأولى للّسان وهي آفة الكذب، ولننتقل إلى الكلام الآن عن الآفة الثانية وهي النميمة.

آفات اللسان

الآفة الثانية:

النَّميمة

- معنى النميمة
- ما دلّ على تحريم النميمة وشناعتها
- النمّام لا يدخل الجنة - النميمة تمنع الدعاء وهي سحر
- النميمة توجب عذاب القبر والبرزخ
- وظيفة من تنقل إليه النميمة

النميمة

وهي من آفات اللسان التي يمارسها البعض بكل سهولة، مع أنها من الموبقات التي تكون الجنة محرمة على صاحبها فعن الباقر عليه السلام: «**الجنة محرمة على المغتابين والمشائين بالنميمة**»[1] وعن النبي صلى الله عليه وآله: «**لا يدخل الجنة نمام**» وفي حديث آخر: «**لا يدخل الجنة قتات**» والقتات هو النمام.

والشيء المثير للعجب المفارقة بين التغليظ الشرعي في أمر النميمة، وبين كثرة انتشارها، وسهولة ممارستها بين أفراد المجتمع، فإن المتوقع بشأن المعصية الكبيرة، أن يقل أو يندر تواجدها خاصة في أوساط المطلعين على الشريعة، كالزنا مثلاً، وشرب الخمر، وأما النميمة فمع شدة قبحها، والتغليظ في حرمتها، وترتب الآثار المفجعة عليها، وكثرة إفسادها لذات البين، تراها متداولة ببساطة، يتفوه الشخص بها بكل طمأنينة وراحة بال، وهذا منشؤه إما الجهل، أو قلة الورع الممزوج بهوى النفس.

فلنذكر أولاً معنى النميمة، وسيتضح عند درك معناها، وجود مصاديق لها يأتي بها الفرد غافلاً، أو جاهلاً بأنها من النميمة.

---

(١) أصول الكافي ج٢ ص٣٦٩.

وثانياً نتعرض لما ورد في الشريعة من تغليظ بشأن النمام والنميمة.

وثالثاً نورد الدوافع نحوها.

ورابعاً نذكر وظيفة من ينقل له الكلام، ماذا عليه أن يفعل.

تحديد معنى النميمة:

النميمة هي «نقل الحديث من قوم إلى قوم على جهة الفساد والشر» وأما إذا نقل الحديث وبلغه على وجه الإصلاح وطلب الخير، فيقال «نمى الحديث» وليس من النميمة[1]، وقد ورد في الرواية:

«ليس بالكاذب من أصلح بين الناس، فقال خيراً أو نمى خيراً».

أي بلغ خيراً بهدف الإصلاح بين المتخاصمين، فإنه لا إشكال فيه، بل حتى لو نقل وبلغ كلاماً مخالفاً للواقع فإن النبيﷺ ينفي عنه صفة الكاذب لأن سعايته للخير والإصلاح. فإذن ليس كلُّ نقلٍ للكلام هو نميمة، بل تختص بالنقل على جهة الإفساد والشر.

بأن يأتي إلى الرجل مثلاً ويقول له: إن فلاناً يقول فيك كذا وكذا، من الأمور التي يتأذى منها المنقول إليه ويكرهها. فهذا موجب للضغينة والشر بين المنقول عنه والمنقول إليه، وكذلك لو كان المنقول عنه يكره النقل ويتأذى منه، دون أن يكون المنقول له كارهاً له، فإنه نقل على وجه الإفساد والشر وهو نميمة، وأيضاً يدخل في النميمة ما لو كان الكاره لكشف ذلك المنقول هو شخص ثالث غير المنقول عنه، والمنقول إليه، لأنه أيضاً على وجه الإفساد.

ولا يختص النقل بالقول، بل لو كان النقل بالفعل، أو الرمز، أو

(١) راجع مفردات ألفاظ القرآن ص٨٢٥ ـ لسان العرب ج١٤ ص٢٩٦ ـ النهاية لابن الأثير ج٥ ص١٢٠.

الإشارة، أو الكتابة، أو الإيماء فإنه نميمة، ولذلك أطلق الله تعالى على امرأة نوح عليه السلام وامرأة لوط عليه السلام أنهما خانتا النبيين الكريمين عليهما السلام. فقد فسرت الخيانة منهما بالنميمة، فإن امرأة نوح عليه السلام كانت تخبر بأنه مجنون، وامرأة لوط عليه السلام كانت تخبر بالضيفان عندما كانوا يحلّون في ضيافة النبي عليه السلام، وذلك بأن تدخّن على سطح الدار إذا كان في النهار، وتوقد النار إذا كان في الليل، وربما كانت تُصَفِّر لهم.

يقول تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾.

وكذلك يدخل في النميمة نقل الفعل، ولا تختص بنقل القول.

ولا بد من الإلفات إلى أن المنقول إن كان صدقاً فهو نميمة كما ذكرنا، وأما إذا كان كذباً، فإن أمره أعظم لجمعه بين معصيتين كبيرتين حينئذ، وهي (الافتراء والكذب) على المؤمن إضافة إلى النميمة، وخاصة إذا كان الأمر المفترى فيه تنقيصاً وتوهيناً وهدماً لمروءة المؤمن.

فعلى الإجمال إن إفشاء السر، وهتك الستر عمّا يكره كشفه، على وجه الشر والإفساد فهو نميمة، وأصل النميمة في اللغة الهمس والحركة الخفيفة فإن النمام يسعى بهمس، وبحركة غير منظورة لغرس الفتنة، والإيقاع بين الناس فعلى المرء عندما يريد التفرّج في الحديث، والأخذ في فضول الكلام، أن يدقق فيما ينقله من أخبار، أو أمور عن أناس، قد سمعها أو شاهدها، فإن كانت إفشاء لما يكرهون كشفه فعليه أن يرتدع عن نقلها، ولا ينساق وراء شهوة النفس وميلها إلى الإخبار عن كل شيء فيه غرابة فيأخذ بنقل كل شيء اطلع عليه من أحوال الناس غافلاً عن أنه قد يكون بذلك نمّاماً.

بل يقول بعض العلماء الربانيين: ينبغي للإنسان أن يسكت عن كل

ما رآه من أحوال الناس. إلا ما يكون في حكايته فائدة لمسلم، أو دفع لمعصية، كما إذا رأى من يتناول مال غيره بغير حق فيذهب ويشهد به مراعاة لحق صاحب المال.

وأما إذا رأى شخصاً يخفي مالاً لنفسه، ويكره اطلاع الآخرين عليه، فَحدَّث بما رأى فقد أفشى السر، ودخل في النميمة.

وحيث اتضح لك معنى النميمة، بأفرادها ومصاديقها المختلفة، ستجد نفسك من حيث لا تشعر هاوياً في بعض حفرها، وممارساً لبعض أفرادها الخفية، فعليك بالمراقبة والتدقيق بما تريد التفوه به «**فإن لسان العاقل وراء قلبه وقلب الأحمق وراء لسانه**» فإياك والاسترسال بذكر كل ما ترى أو تسمع والتحديث به.

ولكي يحصل العزم الأكيد على ترك النميمة، والحذر الشديد منها، نذكر ما ورد في الشرع المبين من النهي الغليظ، والزجر الكبير عنها، فتدبره جيداً.

ما دل على تحريم النميمة وشناعتها

قال تعالى: «**ولا تطع كل حلاّف معين، همّاز مشّاء بنميم، منّاع للخير معتد أثيم، عُتُلّ بعد ذلك زنيم**».

فالهمّاز هو العيّاب، والعُتُلّ: ألفظّ الغليظ.

والزنيم: المعلّق بالقوم وليس منهم.

وعن عبد الله بن المبارك: الزنيم ولد الزنى الذي لا يكتم الحديث، وأشار به إلى أن كل من لا يكتم الحديث ويمشي بالنميمة، دلّ على أنه ولد زنى، وذلك لقوله تعالى عتل بعد ذلك زنيم. وطبعاً لا بد مقصده أن النمام الذي طُبِعَ على النميمة، ونقل الحديث لبث الفرقة بين الناس، وزرع الحقد والضغينة في قلوبهم، وأصبح ذلك من عادته، فهذا فيه تلك الشبهة، وفي الرواية عن الرسول الأعظمﷺ: «**الساعي بالناس إلى الناس لغير رَشَدَة**» أي يكون في ولادته ريب، ولا يكون من حلال.

وليس المقصود من ارتكب النميمة مرّة أو مرّات، وتاب وأقلع عن هذه الخصلة الرذيلة، دون أن يكون قد ابتُليَ فيما نَمَّ فيه بقتل مؤمن، أو هتك عرضه، وما شابه ذلك من الأمور الفظيعة في الشرع المقدس، وقد روي أن هذه الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي، فإنه كان موسراً ذا مال، وكان له عشرة من البنين، وكان فظاً غليظاً، مناعاً للخير، مشاءً بالنميمة، وكان دَعيًّا في قريش ليس من سنخهم، ادعاه أبوه

بعد ثمانية عشرة من مولده، وقيل بَغَتْ أمّه ولم يعرف حتى نزلت هذه الآية.

قال حسان بن ثابت:

وأنت زنيم نِيْطَ في آل هاشم كما ينط خلف الراكب القدح الفرد

أي الوليد بن المغيرة دعي زنيم، عُلّق في آل هاشم كالزنمة في الإهاب وهي قطعة جلد صغيرة تترك معلقة بطرف الإهاب، وكالقدح المنفرد الفارغ المعلق خلف الراكب[1].

وهذا يؤيد ما استوحاه ابن المبارك واستشفه من الآيات الكريمات والله العالم.

وقال تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ فأطلق تعالى الخيانة على امرأتي نوح عليه السلام ولوط عليه السلام، لأنهما كانتا نمّامتين كما أسلفنا، فالنميمة خيانة، والخائن في النار ﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ وقد تؤدي النميمة إلى الفتنة فتكون أشد من القتل.

وقال تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾.

فقد يكون النمام مصداقاً لهذا الفاسق عندما ينقل الحديث من قوم إلى قوم بقصد الشر، وقد أمر تعالى بالتثبت من المنقول، ومن لا يتبين الأمر ولا يتثبت منه، ويرتب مع ذلك الأثر على ما نقله النمّام فإنه سيكون جاهلاً، وعاقبة الجاهل الندامة.

---

(١) تفسير الزمخشري ج٤ ص٥٨٧ في تفسير الآيات من ١٠ إلى ١٦ من سورة القلم.

وفي الكافي الشريف عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**ألا أنبئكم بشراركم؟**» قالوا: بلى يا رسول الله، قال صلى الله عليه وآله: «**المشاؤون بالنميمة، المفرّقون بين الأحبة، الباغون للبراء المعايب**»(١).

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «**.. وإن أبغضكم إلى الله المشاؤون بالنميمة بين الأحبة، المفرّقون بين الأحزاب، الملتمسون للبرآء العثرات**»(٢).

فالله تعالى يحب الإنسان الخيّر، الذي يجمع بين الناس على البر والصلاح، وينفع خلق الله تعالى، فالخلق عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم بعياله، فعنه صلى الله عليه وآله: «**أحبكم إلى الله أحاسنكم أخلاقاً الموطؤن أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون**»(٣).

النمّام يفعل عكس ذلك فإنه يقطع ما أمر الله به أن يوصل، ويبعث الضغينة في النفوس، ويبث البغضاء بين أفراد المجتمع المفترض أن يكونوا متحابين فطبيعي أن يكون مبغوضاً لدى الحق جل شأنه، وأن يكون من شرار الخلق.

النمّام لا يدخل الجنة:

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «**الجنة محرمة على المغتابين، والمشائين بالنميمة**»(٤).

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «**لا يدخل الجنة نمّام**»(٥).

وعنه صلى الله عليه وآله: «**إن الله تعالى لما خلق الجنة قال لها تكلمي، فقالت: سَعُدَ من دخلني، قال الجبّار جل جلاله: وعزتي وجلالي لا يسكن فيك**

(١) أصول الكافي ج٢ ص٣٦٩.
(٢) المحجة ج٥ ص٢٧٥.
(٣) المحجة ج٥ ص٢٧٥.
(٤) أصول الكافي ج٢ ص٣٦٩.
(٥) المحجة ص٢٧٥ ـ ٢٧٦.

ثمانية نفر من الناس وذكر منهم القتّات وهو النمام»[1].

أقول: لا بد من تأويل هذه الروايات التي ظاهرها عدم دخول النمام الجنة أبداً، لأنه من الثابت أن العصاة من هذه الأمة مآلهم إلى الجنة وإن طال مكثهم في النار.

فقد يكون المراد أن الجنة محرمة على النمّامين زمناً طويلاً فلا يدخلونها إلا بعد انقضاء مدة العقوبة المطهرة لهم، لا أنها محرمة عليهم تحريماً مؤبداً، أو يكون المراد أنه توجد جنة معينة معدة لغير النمام تكون محرّمة عليه أبداً.

النميمة تمنع استجابة الدعاء:

في الرواية أنه: **أصاب بني إسرائيل قحط، فاستسقى موسى مرات، فما أجيب، فأوحى الله تعالى إليه: إني لا أستجيب لك، ولمن معك، وفيكم نمّام قد أصرّ على النميمة، قال موسى: يا رب من هو حتى نخرجه من بيننا؟ فقال تعالى: يا موسى أنهاكم عن النميمة وأكون نماماً؟ فتابوا بأجمعهم فَسُقُوا**[2].

فمن الثابت أنه يوجد ذنوب تمنع استجابة الدعاء، والنميمة أحدها، وتجد البعض يقول إني أدعو الله باستمرار لقضاء حاجة لي، ولم يستجب دعائي، ولم تُقْض حاجتي، جاهلاً أو غافلاً عن موانع الإجابة، والتي منها النميمة، وهي صفة مركوزة في نفسه.

النميمة سحر:

عن الإمام الصادق عليه السلام: **«إنها (أي النميمة) من السحر الذي يفرق**

---

(١) المحجة ص٢٧٥ ـ ٢٧٦.

(٢) المحجة ج٥ ص٢٧٦.

بين المتحابين، ويعادي بين المتصافين، ويسفك به الدماء، ويهدم به الدور، ويكشف به الستور، والنمام شر من وطأ الأرض بقدم».

فكيف تفرق كتابة السحر بين المتحابين، وتلقي البغضاء والعداوة بينهما!! حقيقةً إن النميمة تفعل كذلك، فهي ضربٌ من السحر، بينما القلوب متصافية، وإذا بها فجأة تفيض حقداً وغيظاً، لأن أي إنسان يُنْقَل له عن شخص يحبه ويخلص له، بأنه يفعل أو يقول من وراء ظهره ما يسوؤه، فإنه سوف يطيش عقله، ويفقد جَنَانَه، ويوغر صدره، ويمتلىء قلبه غيظاً على ذلك الشخص، وبعد أول اجتماع به تكون الفرقة بينهما عقب التحاب، وتسكن العداوة محل الصفاء والود، وتقطع أوصال الأسرة الواحدة، ويصبح الأخ عدوا لأخيه، والأب عدواً لابنه والزوج عدواً لزوجه... وعندها يكون مجال الشر مفتوحاً على مصراعيه أمام التشفي والانتقام، وفي لحظة ضعف وانصياع لهوى النفس الأمارة بالسوء، وللشيطان، قد تهدم الدور، وتكشف الستور، بل قد يتعدى ذلك إلى سفك الدماء انتقاماً للكرامات كما يُدَّعى. ومبدأ كل ذلك يكون النميمة فلا مبالغة إذا قيل النمام شر من وطأ الأرض بقدم.

قال حمّاد بن سلمة: باع رجل عبداً فقال للمشتري: ما فيه عيب إلا النميمة. قال: رضيت، ما عليّ بالنميمة؟ فاشتراه، فمكث الغلام أياماً ثم قال لزوجةِ مولاه إن زوجك لا يحبك وهو يريد أن يتسرّى عليك، فخذي الموسى واحلقي من قفاه شعيرات حتى أسحره عليها فيحبك، ثم قال للزوج: إن امرأتك اتخذت خليلاً وتريد أن تقتلك فأظهر لها في الليل أنك نائم حتى تعرف وتتأكد الخبر، فتناوم فجاءت المرأة بالموسى فظن أنها تقتله، فقام وقتلها، فعاد أهل الزوجة وقتلوا الزوج، فوقع القتال بين القبيلتين وطال الأمر.

النميمة توجب عذاب القبر والبرزخ، وعذاب يوم القيامة إلى أن يدخل صاحبها النار:

عن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله: «**من مشى في نميمة بين اثنين، سلط الله عليه في قبره ناراً تحرقه إلى يوم القيامة، وإذا خرج من قبره سلّط عليه تنيناً أسود ينهش لحمه حتى يدخل النار**».

فإذن الشخص الذي طبع على النميمة، ومات مصراً عليها، فإنه سوف يعذب في قبره بنار تحرقه إلى يوم القيامة، أي أنه لا يطهر في عالم البرزخ، بل يبقى في العذاب بعد خروجه من البرزخ إلى الحساب في يوم القيامة حتى يدخل النار، وأما صورته البرزخية فكما مرت الرواية في مبحث الكذب: «**رأيت امرأة بدنها بدن خنزير ورأسها رأس حمار وعليها ألف ألف لون من العذاب.. لأنها كانت نمامة كذابة**» وبالمقابل روي عنه صلى الله عليه وآله: «**من رد عن أخيه نميمة سمعها في مجلس رد الله عنه ألف باب من الشر في الدنيا والآخرة**».

بواعث النميمة:

إنه بعد الإطلاع على خطورة النميمة على الدين والدنيا، قد يسأل سائل، ما هي الدوافع التي تدعو المرء لارتكاب مثل هكذا ذميمة أخلاقية؟! وللإجابة نقول: يوجد عدة بواعث على النميمة نذكر أهمها:

أولاً: إرادة السوء بالمحكي عنه، لدافع الحسد مثلاً أو الانتقام أو العداوة المسبقة وأمثال ذلك، فإن هذه الأمور تدفع الإنسان بكل قوة باتجاه الحطّ من قدر الآخرين وإرادة السوء بهم، فالحاسد يحب زوال النعمة التي في المحسود ليبقى هو الأفضل، فيجد النميمة أفضل وسيلة للإيقاع بالمحسود وتنقيصه وإرادة السوء به، وكذلك من يريد الانتقام، ومن في قلبه بغض وعداوة..

وثانياً: إظهار الحب والتودد للمحكي له، فمثلاً إذا وُجِدَت

حساسيةٌ في العلاقة بين شخصين، يأتي النمام إلى أحدهما وينقل له كلاماً عن الآخر لكسب ودّه، ولإظهار أنه أقرب إليه وأحب من الآخر، وطبعاً يختبىء وراء هذا كله مآرب كالتزلف والوصول إلى منفعة معينة.

ثالثاً: التفرّج في الحديث، والخوض في الفضول:

فقد لا يكون لدى الشخص الذي ينقل الكلام أهدافاً محددة، غير أن ميل النفس نحو التحديث والإخبار عن أي شيء بقصد التسامر وتبادل الكلام، يدعوه إلى نقل كلام شاهده أو سمعه من طرف إلى آخر، فيكون بذلك نماماً من حيث لا يدري.

فعلى المرء أن يراقب نفسه عندما يكون بين الناس ليحفظ تقواه. يقول الإمام السجادعليه السلام: «**إلهي أنا الذي لم أستحيك في الخلا، ولم أراقبك في الملا..**» فالإنسان عندما يكون في الملأ (أي بين الناس) عليه أن لا يخضع للجو الذي يسود الاجتماع فيراقب كل فرد من أفراده، وينسى مراقبة رب العالمين وما يريد منه، فيقع سعتئذٍ في هاوية المعاصي كالغيبة والنميمة وغيرها. وخاصة عندما يسود جو المزاح وغيره في المجلس، وتنتفي الرقابة على الأقوال. عصمنا الله تعالى من الزلل.

وظيفة من تنقل إليه النميمة:

على المؤمن الذي ينقل إليه كلام من أحد أن لا يرتب أثراً على ما سمعه.

فأولاً: عليه أن لا يظن بأخيه سوءاً، وإن حدث ظن السوء بالمنقول عنه عليه أن لا يرتب أثراً على ذلك الظن في الخارج، كالإنقباض والمجافاة له وغير ذلك، بل يبقى على نفس المعاملة إلى أن يظهر له على سبيل القطع صحة ما نقل له.

ثانياً: إن نفسه ستدعو للتحقق مما سمعه من النمام، فعليه أن لا

يقع بالتجسس بذريعة استكشاف الحقيقة. فإن التجسس محرّم «**ولا تجسسوا**».

ثالثاً: أن لا ينقل النميمة، بأن يقول فلان حكى لي عن فلان أنه قال كذا وكذا فهذا سيكون نميمة.

رابعاً: عليه أن يأمر النمّام بالمعروف وينهاه عن المنكر، لا أن يشجعه على معاودة فعله القبيح، بل يعظه ويزجره عما أتى به.

وهذا كان دأب الصالحين:

أنظر إلى إمامنا زين العابدين عليه السلام بماذا أجاب النمّام فقد روي أنه جاءه رجل وقال له: إن فلاناً يقول فيك ويقول، فقال عليه السلام له:

«**والله ما حفظت حق أخيه إذ خنته وقد استأْمَنَك، ولا حفظت حرمتنا إذ أسمعتنا ما لم يكن لنا حاجة بسماعه، أما علمت أن نقلة النميمة هم كلاب النار، قل لأخيك: إن الموت يعمنا، والقبر يضمنا، والقيامة موعدنا، والله يحكم بيننا**».

كذلك أمير المؤمنين عليه السلام أتاه رجل يسعى إليه برجل فقال عليه السلام: «**يا هذا نحن نسأل عما قلت فإن كنت صادقاً مقتناك، وإن كنت كاذباً عاقبناك، وإن شئت أن نقيلك أقلناك، قال: أقلني يا أمير المؤمنين**».

وروي أن حكيماً من الحكماء زاره بعض إخوانه فأخبره بخبر عن غيره فقال الحكيم: «**قد أبطأت في الزيارة وأتيتني بثلاث خيانات: بَغّضْتَ إليّ أخي، وشغلت قلبي الفارغ، واتهمتَ نفسك الأمينة**».

وفي التاريخ أنه كتب رجل من عمال المأمون: إن فلان العاقل مات وخلف مائة ألف دينار، وليس له إلا ولد صغير فإن أذن مولانا في قبض المال وإجراء ما يحتاج الصغير إليه قبضناه، فإنما احتقب

هذا المال من أموالك فكتب إليه المأمون «**المال نمّاه الله، والولد جبره الله، والساعي لعنه الله**».

فعلى أي حال إذا لم نستطع وعظ النمام لترتب مفسدة على ذلك، أو لعلمنا بأنه لا يتأثر بالنصيحة والموعظة فعلى الأقل لا نشجعه على فعله ونطلب المزيد من نقل الحديث، بل نستنكر ذلك. فإذن من أراد أن يكون «**منطقه الصواب**» فعليه أن يقلع عن النميمة.

آفات اللسان

الآفة الثالثة:

الغيبة

- امتحان المؤمنين العسير
- بواعث الغيبة
- ما دلّ على حرمة الغيبة، والتغليظ في تحريمها
- الحدّ أو المعنى الشرعي للغيبة
- موارد جواز الغيبة
- تعامل العارفين بالله مع الغيبة

الغيبة

من الآفات العظيمة، والإبتلاءات الشديدة، والامتحانات العسيرة، التي يُخْتَبَر بها المؤمنون، وكثيراً ما تتغلب عليهم وتنشب أظفارها المسمومة في قلوبهم، ويسري سمها إلى العدالة فيسقطها، وإلى التقوى فيضعفها، وإلى الصلاة فيمنع قبولها، وإلى الحسنات فيأكلها كما تأكل النار الحطب، **الغيبة!!**

إن المؤمن المتديّن لا يكون اختباره بشرب الخمر، ولا بترك الصلاة، فإن هذا لا ينقدح في ذهنه، ولا تهمُّ به نفسُه، ولا يمر في مخيلته، وإنما يمتحن المؤمن ويختبر بمثل الغيبة للمؤمنين، وخاصة إذا كان له منافس قد فاق عليه في أعين الناس، فهل يحسده، ويسعى للتنقيص من شأنه لكي يُثبِت للآخرين أنه الأفضل، أو على الأقل مساوٍ له، ولكي يرضي نفسه الأمارة بالسوء التي تُحِبُّ الاستعلاء، والتميّز عن الآخرين دائماً، ولا ترضى بأن يفوقها أحد. فيأخذ بالكلام عن ذلك المنافس في غيبته بما يشينه، ويهدم مروءته، ويهتك ستره، ويظهر معايبه، لكي يسقط من أعين الناس، فيبني حينئذ مجده على أنقاض شخصية أخيه المحطّمَة، ويلمّع صورته، ويحسن وجهه على حساب ما هشّمه وقبّحه من وجه أخيه؟! هل يفعل كذلك ويُسَلِّم لشيطانه؟ أم أنه ينتصر على شيطانه، ويدوس على نفسه، ويترك ذكر أخيه إلا بالخير؟!

هنا تَبين قوة الإيمان، ودرجة الورع والخوف من الله، فقال بعضهم أدرَكْنَا السَّلَف لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة، ولكن في الكف عن أعراض الناس.

وعند المسامرة، والإنبساط في الحديث، ووصول الأمر إلى المفاكهة والهزل، وميل النفس إلى ذكر العيوب المستورة لبعض المؤمنين، كي تعظم نشوة المجلس، وترتفع وتيرة الضحك والمزاح، هل يتذكر المؤمن ربه سعتئذٍ فيستنكف عن ذكر معايب المؤمنين والمفاكهة بأعراضهم؟! أم يغفل عن تقوى الله في عباده في تلك الساعات؟

وعند المَلَلِ، وساعات الفراغ، هل يبحث المؤمن عن شيء ينتفع به أو ينفع به الآخرين، أم أنه يُنقّب في منعطفات الطرق عن زلّات المؤمنين ليتخذ الحديث بها وسيلة لملء فراغه، ودفع الملل عنه؟!

في هذه الموارد وأمثالها يتم اختبار المؤمن في ميدان جهاد النفس، ويتميز سيف الفولاذ عن سيف الخشب، والإيمان الحقيقي عن الإيمان الصوري المزيّف، وقد وردت أكثر دواعي الغيبة في رواية في مصباح الشريعة عن الإمام الصادق عليه السلام: «**أصل الغيبة تتنوع لعشرة أنواع: شفاء غيظ، ومساعدة قوم، وتهمة، وتصديق خبر بلا كشفه، وسوء ظن، وحسد، وسخرية وتعجب** (أي إضحاك للغير) **وتبرّم** (أي تضجر واغتمام) **وتزين** (أي إظهار البراءة من العيب الذي ينسب إلى غيره) **فإن أردت السلامة فاذكر الخالق لا المخلوق فيصير لك مكان الغيبة عبرة، ومكان الإثم ثواب**»[1].

وصدقاً أقول إن الصراع مع الغيبة لشديد، لا يكاد يسلم منه إلا من ختم على لسانه وجعله في إمرة عقله، وكان عقله مسيطراً على شهوته

(١) المستدرك ج٩ ص١١٧ ح١٩.

وغضبه، ولا يتحصل ذلك إلا لمن أقبل على شأنه، واشتغل بتهذيب نفسه، وقوي إيمانه بالغيب، وجعل الموت نصب عينيه، وزهد في مال الدنيا وجاهها. وإلا فبذور الغيبة ستبقى في قلبه تفرّخ غيبة كلما وجدت أرضاً ملائمة، ومناخاً مناسباً.

إني أتطرق للحديث عن الغيبة لخطورتها على دين المرء، ولأن المزاول لها يكون فاقداً للصفة الأولى من صفات المتقين، بحسب منهجية سيدهم أمير المؤمنين عليه السلام وهي صفة الصواب في المنطق أو استقامة اللسان «**منطقهم الصواب**».

ولكني لا أريد أن أدخل في تفاصيل مباحثها لكي لا يطول المقام، بل فقط أتعرض للنصوص الزاجرة عنها التي يكتفي بها كل ذي عقل ودين لكي يبتعد عن الغيبة بعد المشرق عن المغرب، ويجفل منها ويفر كما تفر الحُمُر من قسورة.

ثم أذكر حد الغيبة بما يرتفع به اللبس، والغموض عن معناها. وأخيراً أذكر موارد تجويز الغيبة.

أولاً ما دل على حرمة الغيبة وشناعتها، وعلى أنها من الكبائر:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا * أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾. فإنه تبارك وتعالى نهى عن الغيبة صريحاً بقوله: «**ولا يغتب بعضكم بعضاً**» ثم أراد تعالى أن يبين أنها من الكبائر الموبقة، والجرائم المهلكة، وذلك من خلال عدة أمور:

أ ـ إنه تعالى عبّر عن الذي يغتاب الناس بآكل الميتة، والسبب في ذلك:

ـ إما لأنه يأكل الجيف في الآخرة، كما روى القطب الرّاوندي عن النبي صلى الله عليه وآله: «**إنه صلى الله عليه وآله نظر في النار ليلة الإسراء فإذا قوم يأكلون الجيف،**

فقال: يا جبرئيل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحم الناس»[1].

ـ وإما تشبيهاً له بالسباع والكلاب، فهي التي تأكل الميتة.

ـ وإما لكون حرمة غيبة المؤمن كحرمة أكل الميتة، بل أعظم منها، كما ورد عن الإمام العسكري عليه السلام:

«**إعلموا أن غيبتكم لأخيكم المؤمن من شيعة آل محمد صلى الله عليه وآله** أعظم في التحريم من الميتة» قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب...﴾ الآية[2]، فالذي يغتاب يرتكب حرمة أعظم من حرمة أكل الميتة.

ب ـ إنه تعالى شبه عرض المؤمن، وكرامته باللحم، وشبه الاغتياب بالأكل للحم، والمغتاب يكون هو الآكل، وكما أن اللحم ينقص بالأكل منه، كذلك كرامة المؤمن وعرضه تنقصان بالاغتياب. وكما أن الآكل يلتذ بالأكل، كذلك المغتاب يلتذ بالاغتياب والتفكه بعرض أخيه. ووصف تعالى المؤمن بأنه أخ ﴿.. أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ..﴾ لزيادة التقبيح على المغتاب، إذ من شأن الأخوّة التّواد والتحابب، وليس التنقيص من كرامة الأخ وشأنه.

ج ـ وشبَّه تعالى من تُنتَهَك كرامتُه بالغيبة، بالميّت، ووجه الشبه هو: أنه كما أن الميت لا يقدر أن يدافع عن نفسه، كذلك الذي يغتابه شخص، فإنه لغَيبته وعدم حضوره لا يستطيع الدفاع عن نفسه كالميّت.

د ـ إن الصورة التي تُصَوّرها الآيةُ الكريمة تثير الاشمئزاز، وتبعث على التنفر، إذ تَصوّر شخصاً أمامه جثة أخيه ميتاً، وهو يقطع اللحم منها ويأكل!! هل هنالك أشنع من هذه الصورة! فإذا كان طبعك يتنفر منها، ويشمئز فكذلك يجب أن تشمئز نفسك، وعقلك من الغيبة، لأنها هتك

(١) مستدرك الوسائل ج٢ ص١٠٧.
(٢) المصدر ص١٠٥.

لعرض الأخ المؤمن وتنقيص من كرامته.

فواقعاً هذه الآية كافية للزجر عن الغيبة لمن ينزجر، وكفى بها رادعاً لمن يرتدع، فكيف إذا اعتضت بالروايات المستفيضة المحرِّمة للغيبة، والمقبِّحة لها أشدّ تقبيح، ولنذكر البعض منها:

ـ عن أمير المؤمنين عليه السلام لنوف البكالي قال: «**اجتنب الغيبة فإنها إدام كلاب النار. ثم قال: يا نوف كذب من زعم أنه ولد من حلال وهو يأكل لحوم الناس بالغيبة**»(١).

ـ وفي وصية النبي صلى الله عليه وآله لأبي ذر: «**يا أبا ذر إياك والغيبة، فإن الغيبة أشد من الزنا، قلت: ولما ذاك يا رسول الله صلى الله عليه وآله قال: لأن الرجل يزني فيتوب إلى الله فيتوب الله عليه، والغيبة لا تغفر حتى يغفرها صاحبها**»(٢).

ـ وعن النبي صلى الله عليه وآله: «**ألا أخبركم بالذي هو أشد من الزنا، وقع الرجل في عرض أخيه**»(٣).

أقول: ولكثرة انتشار الغيبة، وسهولة تناولها، أصبحت أسهل من شربة ماء.

ـ وعنه صلى الله عليه وآله: «**ومن مشى في عيب أخيه، وكشف عورته، كانت أول خطوة خطاها وضعها في جهنم، وكشف الله عورته على رؤوس الخلائق**»(٤).

وروي: «**أن المغتاب إذا تاب فهو آخر من يدخل الجنة، وإن لم يتب فهو أول من يدخل النار**»(٥).

---

(١) الوسائل ج٨ من طبقة العشرين مجلد ص٦٠٠.
(٢) المصدر ص٥٩٨.
(٣) المصدر ص٦٠١.
(٤) المصدر ص٦٠٢.
(٥) المكاسب المحرمة للشيخ الأنصاري مبحث الغيبة.

وعن النبيﷺ: «**من اغتاب مسلماً أو مسلمة، لم يقبل الله صلاته ولا صيامه أربعين صباحاً، إلا أن يغفر له صاحبه**»[1] أقول: فهو مضطر إذن لكي لا تردّ صلاته وصيامه، ولكي تقع مورد قبول الحق تعالى، أن يتحلل ممن اغتابه، وعليه فلو تعقّل لما اغتاب من أول الأمر، ولما ورّط نفسه وأوقعها بين حدّين: إما عدم قبول أعماله، أو تَكَلُّف استرضاء صاحبه، وقد ذكر في كتاب «لقاء الله» للعالم الرباني أية الله الملكي التبريزي (قده) أن رجلاً اغتاب شخصاً في محضره، فبدى الانزعاج الشديد على وجهه وقاطع المغتاب فوراً قائلاً له: إنك باغتيابك هذا قد سببت لي تعباً لمدة أربعين يوماً» وهذا يشعر به أصحاب القلوب الطاهرة، فإنه (قده) تأذى قلبياً مع أنه لم يكن هو المغتاب ولكن استماع الغيبة لا يقل ولا يقصر ضرره عن الاغتياب نفسه، لذلك نهاه الشيخ (قده) ومع النهي قال: إنك سببت لي تعباً أربعين يوماً. فليعتبر بذلك المعتبرون ولينزجروا عن الغيبة.

ـ وعنهﷺ: «**من اغتاب مؤمناً بما فيه لم يجمع الله بينهما في الجنة..**».

ـ وعنه أيضاًﷺ: «**إن الغيبة حرام على كل مسلم، وإن الغيبة لتأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**»[2].

وأكل الغيبة للحسنات فيه ثلاث احتمالات:

الأول: أن يكون أكلها للحسنات بمعنى أنها تمحوها وتحبطها.

الثاني: أن يكون بمعنى تصاغر الحسنات واضمحلالها بالمقايسة مع عقاب الغيبة.

---

(١) المكاسب المحرمة للشيخ الأنصاري مبحث الغيبة.

(٢) المكاسب المحرمة للشيخ الأنصاري (قده) مبحث الغيبة.

الثالث: أن يقال أنها تأكل الحسنات لأنها تنقلها إلى المغتاب، فمن اغتاب شخصا نقلت حسناته إليه، ففي الرواية عن النبي الأعظم ﷺ:

يؤتى بأحد يوم القيامة فيوقف بين يدي الرب عز وجل، ويدفع إليه كتابه فلا يرى حسناته فيه، فيقول: إلهي ليس هذا كتابي، لا أرى فيه حسناتي، فيقال له: إن ربك لا يضل ولا ينسى ذهب عملك باغتياب الناس. ثم يؤتى بآخر ويدفع إليه كتابه فيرى فيه طاعات كثيرة، فيقول: إلهي ما هذا كتابي فإني ما عملت هذه الطاعات، فيقال له: إن فلاناً اغتابك فدفعت حسناته إليك»[1]. وأي عاقل يؤمن باليوم الآخر يقدم حسناته بهذه السهولة وعلى طَبَقٍ من فضة لخصمه، مقابل تلذذه ثوان بغيبته، والتنقيص من شأنه؟؟!! روي أن أحد العلماء علم أن شخصاً قد اغتابه، فقصده إلى داره حاملاً له هدية، وبعد تسليمه الهدية ودهشة الرجل بذلك، قال له العالم: ما قدر هديتي المادية هذه في جنب هديتك؟ قال الرجل: ولكنني لم أقدم لك أي هدية! قال العالم: بلى لقد أهديتني حسنات من حسناتك، كم كنت سأتعب لأحصلها، جاءتني من غير عناء.

ـ وعنه ﷺ: «**أدنى الكفر أن يسمع الرجل من أخيه كلمة فيحفظها عليه يريد أن يفضحه بها، أولئك لا خلاق لهم**»[2] أي لا حظّ لهم ولا نصيب عند الله.

ـ وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**من قال في مؤمن ما رأته عيناه وسمعت أذناه، مما يشينه ويهدم مروءته، فهو من الذين قال الله عز وجل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**»[3].

---

(١) المكاسب المحرمة للشيخ الأنصاري(قده) مبحث الغيبة.
(٢) المكاسب المحرمة للشيخ الأنصاري(قده) مبحث الغيبة.
(٣) المكاسب المحرمة للشيخ الأنصاري(قده) مبحث الغيبة.

ـ وعنه ﷺ: أنه خطب يوماً فذكر الربا وعظّم شأنه فقال: «**الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم من ستة وثلاثين زنية، وإن أربى الربى عرض الرجل المسلم**»[1].

فإذا كان الربا من أكبر الكبائر، وكان عقابه غليظاً وشديداً بهذا المستوى، فإن الغيبة، وانتهاك عرض المسلم سيكون أشد وأغلظ، فتبصّر أيها المؤمن زادك الله بصيرة.

وبعد هذا كله عليك يا أخي أن تقف مع نفسك وقفةَ محاسبٍ حازم. قد حَسَمَ أمرَه، وصمم بإرادة إيمانية صلبة، أن لا يذكر ما يراه من معايب الناس. ويعكف همته على معايب نفسه، ويشتغل بإصلاحها عن عيوب الآخرين. فمن نظر إلى عيوب نفسه تلهّى عن عيوب غيره. فالله تبارك وتعالى يريد منّا العبادة المخلصة مع القلب السليم، والتّوادّ والتّحاب فيما بيننا ليحصل التعاون على البر والتقوى.

وهذا لا يحصل مع تتبع عثرات الآخرين واللهج بغيبتهم، بل يتحقق بالإغضاء والتسامح، والتغافل عن مساوىء المؤمنين لذلك ورد أنه من حق المؤمن على أخيه: «**أن يغفر زلته، ويقيل عثرته، ويستر عورته**» فالغيبة ناقضة لغرض المولى المهم، لذلك ورد التشنيع العظيم عليها والعقاب الشديد على فعلها.

ولنأت الآن إلى بيان معنى الغيبة، لكي يسهل على المكلف تشخيصها، فيتسنى له التحذر منها والابتعاد عنها.

ثانياً: ما هي الغيبة..؟

الغيبة هي أن يذكر المؤمن بعيب مستور في غيبته، فلو كان العيب ظاهراً ومعروفاً لدى السامعين لا يكون ذكره غيبة، نعم قد يحرم ذلك

---

(١) المكاسب المحرمة للشيخ الأنصاري(قده) مبحث الغيبة.

لأجل الإيذاء، إذا كان المقول فيه قد يتأذى من ذكره، وكذلك يحرم إذا قصد المتكلم المذمّة والتعيير، فإنه لا يجوز تعيير المؤمن بصدور معصية منه، أو غير معصية، ففي الرواية:

«من عيّر مؤمناً على معصية لم يمت حتى يرتكبها».

ولا فرق في العيب بين أن يكون:

في البدن: كأن يكون فيه مرض مستور وهو عيب عند العرف فيكشفه المغتاب.

أو في النسب: كأن يقول أبوه فاسق مثلاً، أو خبيث، أو وضيع خادم عند الناس.. الخ.

أو في الخُلُق: كأن يقول إنه سيىء الخلق، أو بخيل، أو جبان، أو متكبر.. الخ.

أو في أفعاله المتعلقة بالدين: كأن يقول فلان سارق أو كذّاب، أو متهاون بالصلاة، أو أنه لا يجتنب النجاسات، أو ليس باراً بوالديه.

أو في أفعاله المتعلقة بالدنيا: كأن يقول فلان قليل الأدب، أو غير مرتب، أو غير نظيف، أو متهاون بالناس، أو كثير النوم، أو كثير الأكل.

أو في ثوبه كأن يقول فلان وسخ الثوب.. الخ.

أو في قوله: كأن ينسب إليه البذاءة في القول، أو يقول فلان حديثه يجلب الملالة والنعاس.. الخ.

ولا بد من الالتفات إلى أنه لا يشترط في تحقيق الغيبة قصد الانتقاص، فحتى لو لم يقصد المتكلم انتقاص المذكور، فإنه يصدق أنه قد اغتابه إذا كان قد ذكر فيه عيباً مستوراً في غيبته، وإذا قصد الانتقاص مع ذلك يترتب عليه إثمان: إثم للغيبة، وإثم لذمّ المؤمن وتوهينه. فإذن

ما نسمعه كثيراً من الناس من أنه «لم نقصد بكلامنا سوءاً لا سمح الله، بل نتكلم هكذا للمفاكهة فحسب» لا يرفع الغيبةَ وترتّبَ الإثم عليها.

وكذلك ينبغي الانتباه إلى أن الغيبة تتحقق فيما إذا كان العيب صدقاً موجوداً في المقول فيه، وأما إذا لم يكن موجوداً فالأمر أشد، لاجتماع معصيتين: الغيبة والكذب، هذا ما يسمى بالبهتان، فعن أبي عبد الله عليه السلام: «**الغيبة أن تقول في أخيك ما ستره الله عليه.. والبهتان أن تقول فيه ما ليس فيه**»(١).

فالذين يبررون لأنفسهم ذكر عيوب المؤمنين المستورة بأنها موجودة فيهم، وأنهم لا يقولون إلا ما هو حق وصدق، نقول لهم هذا التبرير ليس بشيء، وهو لا يرفع الغيبة.

والبهتان من أكبر الكبائر، وهو ذكر الرجل أخاه من خلفه بما ليس فيه.

وفي الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «**من بَهَتَ مؤمناً أو مؤمنة بما ليس فيه، بعثه الله في طينة خبال حتى يخرج مما قال، قلت: وما طينة الخبال؟ قال: صديد يخرج من فروج المومسات**»(٢).

وكثيراً يكون البهتان لتحطيم شخصية الآخرين، وإسقاط اعتبارها من أعين الناس، بأن يُخْتَلَق أمرٌ قبيحٌ، ويُرْمَى به مؤمن.

وقد يكون أصل الأمر المذكور صحيحاً، ولكن يُخْتَلَق له تفاصيل، ومُلابَسَات غير واقعية، تغيّر المضمون، وتعكس الصورة على غير حقيقتها، وهذا قسم من البهتان أيضاً، وهو الأكثر ممارسة وابتلاء. أجارنا الله تعالى من سوء السريرة، وخبث النية.

---

(١) أصول الكافي ج٢ باب الغيبة والبهت ح٧.

(٢) المصدر ح٥.

والبعض يغتاب شخصاً، فإذا اعترضتَ عليه بأن هذا غيبة، وما كان ينبغي أن تذكُرَه، أجابك بأن هذا ليس غيبة لأنني أريد أن أذكرَه أمامه عندما أراه وألتقي به، ولا يعلم بأن ذلك لا يرفع حكم الغيبة، فإنه قد لحق به إثمُها، إلى أن يلتقي به ويتحلّل منه، فإن حلّله وإلا فلا يجدي مجرد إخباره بأنه قد اغتابه في رفع الحرمة والإثم.

موارد جواز الغيبة

تجوز الغيبة في موارد:

١ ـ **المتجاهر بالفسق**: وهو الذي يفعل المعصية من دون تستر، فإنه يجوز اغتيابه في غير ما تستّرَ به من عيب يقول عليه السلام: «**إذا جاهر الفاسق بفسقه فلا حرمة له ولا غيبة**» وعنه عليه السلام: «**من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له**».

٢ ـ **الظالم لغيره**: فيجوز للمظلوم غيبته، ومراعاة الاحتياط تقتضي أن يكون دافعه للغيبة هو قصد الانتصار من الظالم، لا مطلقاً. قال تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ فلو ضربه، أو شتمه، أو أخذ ماله، ظلماً جاز للمظلوم ذكر ذلك، وكشفه للآخرين والأحوط أن يقتصر على ما يتحقق به الانتصار من الظالم.

٣ ـ **نصح المؤمن**: فتجوز الغيبة بقصد النصح، كما لو استشار شخص في تزويج امرأة فيجوز نصحه، ولو استلزم إظهار عيبها. وإذا علم ترتب مفسدة عظيمة على ترك النصيحة فإنه يجوز نصحه بإظهار عيبها ولو من دون استشارة منه، وكذلك لو كانت المستشيرة هي المرأة، فعن التذكرة: أن فاطمة بنت قيس استشارت النبي صلى الله عليه وآله في أن تصير زوجة لمعاوية، أو أبي الجهم، فقال صلى الله عليه وآله لها: **أما معاوية فصعلوك لا مال له،**

وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه على عاتقه (كناية عن كثرة طروقته)، إنكحي أسامة». فإنه ﷺ ذكر عيب الرجلين لفاطمة بعد استشارته.

٤ ـ **ردع المغتاب عن المنكر**: وذلك فيما إذا لم يمكن ردعه إلّا بالغيبة، فإنه أولى من ستر المنكر عليه، فإنه إذا كان يرتدع عن منكره إذا اغتبناه تكون غيبتنا له إحساناً إليه.

٥ ـ **إذا خيف على الدين من الشخص المغتاب**: فتجوز غيبته لدفع الضرر عن الدين، فعن الإمام الصادق عليه السلام عن رسول الله ﷺ: «**إذا رأيتم أهل الريب والبدع من بعدي، فأظهروا البراءة منهم، وأكثروا من سبهم، والقول فيهم والوقيعة، وباهتوهم كيلا يطمعوا في الفساد في الإسلام، ويحذرهم الناس ولا يتعلموا من بدعهم، يكتب الله لكم بذلك الحسنات ويرفع لكم به الدرجات**»[1].

٦ ـ **جرح الشهود**: فيجوز أن تغتاب شاهداً على زنى شخص، بأن تقول إني رأيت هذا الشاهد يشرب الخمر مثلاً، أو غير ذلك لتردّ شهادته، لأنك إذا تسترت عليه مع أنك تعرفه فاسقاً يشرب الخمر، ولم تجرح شهادته فإنه سيقام الحد على المشهود عليه بالزنا.

٧ ـ **دفع الضرر عن مؤمن**: فإذا خيف على مؤمن الوقوع في الضرر الذي يلزم حفظه من الوقوع فيه، جازت غيبته لدفع ذلك الضرر عنه، فالإمام الصادق عليه السلام ذمّ زرارة بن أعين (رضى) الذي هو من أجل أصحابه دفعاً للضرر عنه، وقد بيّن الإمام عليه السلام ذلك عندما قال لابن زرارة المدعو عبد الله: «**إقرأ مني على والدك السلام فقل له: إنما أعيبك دفاعاً مني عنك، فإن الناس يسارعون إلى كل من قربناه وحمدناه، لإدخال الأذى عليه... ويحمدون كل من عيبناه وإنما أُعيبك لأنك**

(١) المصدر.

اشتهرت منا بميلك إلينا... فأحببت أن أعيبك ليحمدوا أمرك في الدين... ويكون ذلك منا دافع شرهم عنك..»[1].

٨ ـ **القدح في المقالات الباطلة**: وإن أدّى ذلك إلى النقص في قائلها، وقد صدر من جماعة كثيرة من العلماء القدح في القائل بقلة التدبر والتأمل، وسوء الفهم، ونحو ذلك، وكأن صدور ذلك منهم لئلا يحصل التهاون في تحقيق الحقائق.

وأخيراً أقول: لعظم خطر الغيبة على الدين إن المؤمنين الأتقياء يتورعون عن ذكر أي مقولة يتراءى منها ولو من بعيد شبح الغيبة البغيض. ويوصون أحباءهم بذلك، ولو كان سيؤدي إلى التقليل من معاشرة الناس.

آية الله النجفي: ففي وصية آية الله العظمى السيد المرعشي النجفي (قده) لابنه:

«وأوصيه.. أن يقلل من المعاشرة مع الناس، فإنك قلما ترى مجلساً غير مشتمل على المناهي من اغتياب عباد الله، والتفكه بأعراضهم، والبهت في حقهم، وأكل لحومهم ميتة، سيما لو كان المغتاب (أي الذي يغتابونه) من أهل العلم، فإن اغتياب العلماء بمنزلة أكل الميتة المسمومة»[2] وهو (قده) كان يتورع عن كل كلمة فيها شمة غيبة، فقد نقل لي بعض الأخوة في الحوزة العلمية في قم المقدسة أن أحد الطلبة استغَلّ فرصة ما بعد الصلاة ليتقدم من السيد وهو في حالة التعقيب (في حرم السيدة المعصومة عليها السلام) ويسأله عن أحد العلماء: «هل هو مجتهد برأيكم أم لا» فما كان من السيد إلا أن أجابه رافعاً يده

(١) المصدر السابق.

(٢) كتاب قبسات ص١٢٨.

تذمراً: «العلماء كلهم ورود»[1]. فطبيعي لمن يذعن بأن الغيبة سم للقلب أن يفر منها هذا الفرار مع كونه من أهل الورع، ومن أصحاب القلوب والبصائر النيرة، حفاظاً على روحيته، ومعنوياته وصفائه، تماماً كما يفر الرجل من السمّ الذي يقضي على حياته خوفاً على نفسه من التلف.

الإمام الخميني (قده): وينقل الشيخ التوسلي أن جمعاً من طلبة العلوم الدينية كانوا يجلسون في ديوانية الإمام الخميني (قده) في النجف الأشرف، ويتباحثون في دروسهم، وأحياناً كان بعضهم يتكلم عن العلماء الذين لا يتفقون معهم في الرأي، وربما قال بعضهم: لماذا لا يتجاوزهم الإمام الخميني (قده) ويستلم زمام المرجعية العليا؟!

فخرج السيد مصطفى ابن الإمام (قده) في أحد الأيام إليهم قائلاً: إن الإمام (قده) سمع أنكم تغتابون العلماء، وهو يقول أنه لا يرضَ باغتياب أحد منهم وخاصة في بيته، ولا يسمح لإهانة أي أحد هنا»[2].

وسأله البعض عن أحد العلماء الذي كان يختلف معه في النظر فيما يتعلق بأمور الثورة، وكان السؤال: أنه هل فلان عادل أم لا؟

فأجاب الإمام (قده): ظننتكم ستسألونني عن عصمته لشدة تقواه وورعه!!!

ويُروَى عن السيد بحر العلوم (قده) أنه أيام كان فتى صغيراً خرج من أحد المجالس باكياً فلحقه بعض الحاضرين سائلاً إياه عن تصرفه هذا الغريب فأجابهم هذا الصغير في سنّه العظيم في روحه ونفسه. إنه كان في المجلس شخص تعرّض لغيبة مؤمن، فلم أتحمل الاستماع إلى الغيبة، فخرجت فراراً منها، ومن عذاب الله تعالى»[3].

---

(١) لعله استشف من طريقة سؤاله التعريض بالمسؤول عنه.

(٢) مجلة (باسدار إسلام) الصادرة في قم عدد ١٣ ص٤٩.

(٣) قصص وخواطر نقلاً عن مجلة النور.

أفات اللسان

الآفة الرابعة:

ذو اللسانين

- من أبغض الخليقة إلى الله تعالى
- متى يكون المرء ذا لسانين
- ماذا يصنع صديق المتعادين
- إن شر الناس الذين يكرمون اتقاء شرهم

ذو اللسانين

لكي تحصل صفة (الصواب في المنطق) للمؤمن لا بد له أن لا يكون ذا لسانين. فمنطق ذي اللسانين غير صائب، وكيف يكون صائباً، ويأتي صاحبه بلسانين مدلوعين من نار يوم القيامة، فعن أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**يجيء يوم القيامة ذو الوجهين دالعاً لسانه في قفاه، وآخر من قدّامه يلتهبان ناراً، حتى يلهبان خده، ثم يقال: هذا الذي كان في الدنيا ذا وجهين وذا لسانين يعرف بذلك يوم القيامة**»[1].

وكيف يكون صائباً وصاحبه من شرار خلق الله تعالى، فقد ورد في الرواية عن النبي صلى الله عليه وآله: «**تجدون من شرار عباد الله يوم القيامة، ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بحديث وهؤلاء بحديث**».

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «**بئس العبد عبداً يكون ذا وجهين وذا لسانين، يطرّي أخاه شاهداً ويأكله غائباً، إن أعطي حسده، وابتلي خذله**»[2].

وعنه عليه السلام: «**بئس العبد عبد همزة لمزة، يقبل بوجه ويدبر بآخر**»[3].

---

(١) عقاب الأعمال باب عقاب من كان ذا وجهين وذا لسانين.
(٢) المصدر.
(٣) المصدر.

وعن التوراة: «.. **يهلك الله يوم القيامة كل شفتين مختلفتين**».

وفي عقاب الأعمال، قال الله تعالى لعيسى ابن مريم عليه السلام: «**ليكن لسانك في السر والعلانية لساناً واحداً، وكذلك قلبك، إني أحذرك نفسك وكفى بك خيراً: لا يصلح لسانان في فم واحد، ولا سيفان في غمد واحد، وكذلك الأذهان**»[1].

إن الله تعالى يريد من الإنسان الاستقامة، والصدق في تعاطيه ومعاملته مع الآخرين، وأن يكون ظاهره كباطنه، ويبغض تعالى الإنسان المتلوّن الذي يطري أخاه في محضره ويأكل لحمه إذا غاب. فعن النبي صلى الله عليه وآله:

«**أبغض خليقة الله إليه يوم القيامة: الكاذبون والمستكبرون، والذين يكثرون البغضاء لإخوانهم في صدورهم، فإذا لقوهم تملقوا لهم..**».

فبعض الناس إذا لقوا الآخرين بلغوا بسلامهم عليهم حد النفاق، لمبالغتهم في التودد، والمجاملة، وزيادة ذلك عما يكنّون لهم في قلوبهم. فهذا شيء مذموم، كما أن التقصير في أداء حق المؤمن عند لقائه والسلام عليه كذلك قبيح. فلا بد من الاستقامة والاعتدال في المعاملة للآخرين. يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**لا تبلغ بسلامك على إخوانك حد النفاق، ولا تقصرهم عن درجة الاستحقاق**».

متى يكون المرء ذا لسانين؟!

إن هذه الصفة تتجلى بوضوح عندما يكون الشخص صديقاً لمتعاديين فمن الطبيعي أنه سيسمع من كل منهما ما يطعن في الآخر ويثبت الحق لنفسه، فإن منشأ التخاصم هو الاختلاف على أمر ودعوى

(١) المصدر.

كل طرف بأن الحق هو ما قاله بشأن ذلك الأمر، والباطل ما تمسك به خصمه، ثم يتكلم بما يعتقده دليلاً على مدّعاه، ويحدّث به الآخرين.

فمن قدر له أن يصاحب متخاصمين، لا مفر له من الاستماع إلى حجة كل منهما المشتملة على إثبات الحق له ونفيه عن الآخر وعلى ذم الآخر، وهنا تتهيأ أرضية ذي اللسانين، وسأذكر عدة صور يكون فيها الشخص ذا لسانين:

الصورة الأولى: إن ينقل كلام كل منهما إلى الآخر، وهذه الصورة «أبشع الصور» إذا أنها تكون أفظع من النميمة، لأن النميمة تتحقق بنقل كلام أحدهما إلى الآخر، فنقل الكلام من كلا الطرفين هو شر من النميمة.

الصورة الثانية: أن يحسِّنَ لكلٍ منهما معاداته لصاحبه، دون أن ينقل الكلام، فيأتي إلى الأول ويقول له: أحسنت فعلاً إذ قاطعت فلاناً، إذ أنه للصراحة فيه السوء الفلاني الذي يجعله لا يصادَق، ثم يقابل الثاني بما قابل به الأول. فبهذا يكون أيضاً ذا وجهين ولسانين.

الصورة الثالثة: أن يعِدَ كلاً منهما بالنصرة، فيقول للأول أنا سأقف بجانبك ضد صديقي الثاني لأنك على حق وأنا أحب أن أكون حليف الحق دائماً. ثم يقابل الثاني بوعده بنصرته له على الأول، فهذا أيضاً ذو وجهين ولسانين.

الصورة الرابعة: أن يمدح أحدهما في حضوره ويذمه إذا خرج من عنده، فهذا له لسان في الحضور ولسان في الغيبة، فهو ذو لسانين.

ولسان النار الذي يندلع من قدامه هو الصورة الحقيقية للسان الذي في حضوره، والذي يندلع في قفاه هو الصورة للسان الذي في غيبته، وإنما صار اللسان الذي في حضوره لساناً من نار مع أنه كلام حسن لتملقه واجتماعه مع اللسان الذي في غيبته، فإنه يتحول إلى لسان من

نار. فإن قلت: إذن ما الحلّ، وما هو العمل لصديق المتعاديين؟

كان الجواب أن له طريقي نجاة:

الأول: أن يُشَخِّصَ المُحِقَّ منهما، ثم يثني عليه في غيبته وحضوره وبين يدي خصمه، وهذا طبعاً يستلزم أن يصدَع الخصم بالحق، ويبين له أنه ليس على الحق، فيكون لسانه سعتئذ لساناً واحداً عند كليهما، وهذا يحتاج إلى شجاعة ومروءة وإنصاف، وتحمل للعواقب، والمشَاهَد عند الكثير من الناس هو عكسه، فإن الناس تداهن وتتملق ولا تنصر الحق مخافة فوت بعض منافعها، فإن وجد عدم المصلحة للبوح بالحق لترتب مفاسد على ذلك، يأتي **الطريق الثاني** للحل وهو: السكوت عند كليهما.

ويستثنى من ذلك من يخاف شرّه: فإنه لدفع شره لا بأس أن تلقاه باللين مع علمك بأنه سيىء لا يتورع عن ارتكاب الشر. ففي الرواية كما في المَحَجَّة أنه: «**استأذَنَ رجلٌ على رسول الله**ﷺ فقال: ائذنوا له فبئس رجل العشيرة هو، فلما دخل أقبل عليه، وألان له القول، فلما خرج قالت عائشة: قد قلت بئس رجل العشيرة ثم ألنت له القول، فقال: يا عائشة إن شر الناس الذي يُكْرَم اتقاء لشره».

فالله تعالى يحب أن يُكْرَم الإنسان لفضله وعلمه وحكمته، وعقله وأدبه، لا لأجل الخوف من شره، ومن الغريب أنك ترى البعض يسعون للحصول على الإكرام والاحترام والهيبة من خلال رهبة الناس لألسنتهم السليطة وأعمالهم الشريرة، والنبي الأعظمﷺ يقول كما في تحف العقول: «**ألا إن شر أمتي الذين يكرمون مخافة شرهم، ألا ومن أكرمه الناس اتقاء شرّه فليس مني**»[1]. فإن النبيﷺ يريد أن يفرض المؤمن

(١) تحف العقول طبعة جماعة المدرسين في قم ص٥٨.

احترامه على الآخرين من خلال دماثة أخلاقه، وسلوكه الحسن والجميل وسيرته الحميدة بين الناس، وكل ذلك يرجع إلى دينه وإلى الملكات الفاضلة التي يجب أن يغرسها في نفسه، وأما الاحترام النابع من الرهبة، أو من كثرة المال، أو من المقام والجاه فليس هو الاحترام والتكريم الذي يحبه رسول الله ﷺ لأفراد أمته ففي الرواية: «**أنكم لن تَسَعُوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن البشر**».

وفي رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**إذا أكرمك الناس لمال أو سلطان، فلا يعجبنّكَ ذلك، فإن زوال الكرامة بزوالها، ولكن ليعجبك إن أكرمك الناس لدين أو أدب**».

آفات اللسان

الآفة الخامسة:

«السخرية والاستهزاء بالمؤمنين»

- أدب الإسلام بدل السخرية: لا تطيلوا النظر إلى أصحاب العاهات
- عقاب المستهزئين يوم القيامة
- عقاب المستهزئين في البرزخ
- عاقبة المستهزئين حتى في الحياة الدنيا

السخرية والاستهزاء بالمؤمنين

من أراد تقويم لسانه والحصول على الصواب في منطقه الذي هو من أهم صفات المتقين، عليه أن يرتدع عن السخرية من المؤمنين فقد نهى رب العالمين تبارك وتعالى عن ذلك صراحة بقوله عز من قائل: «**ولا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن**».

ومعنى السخرية: الاستهانة، والاستهزاء، والاستحقار، والتنبيه على العيوب والنقائص بأسلوب هزلي وطريقة مضحكة، سواء كان النقصُ في الكلام كأن يكون الشخص مثأثئاً في كلامه مثلاً، أو يلدغ في بعض الأحرف، أو يتلعثم عند النطق وما إلى ذلك، أو كان النقص في بعض أفعاله كأن يكون خطُّه رديئاً مثلاً، أو في صنعته، أو في صورته وخلقته كأن يكون قصيراً أو أصلع، أو مفرطاً في الطول، أو مشيته غير طبيعية مثلاً، وهكذا، ولا تقتصر السخرية على الكلام وإن كان الكلام هو مورد بحثنا، بل قد تحصل بالإشارة والإيماء، وبالمحاكاة أي تقليد الآخرين في أفعالهم وأقوالهم. فكل هذا غير جائز، وقد يتعاطاه حتى المتدين متهاوناً به، ومتساهلاً في أمره، فتعالَ لنر موقف الدين من السخرية والاستهزاء، وهل يتساهل في أمرهما، أو يكون مستقصياً ومشدداً بشأنهما أيما تشديد، بحيث يحسب حساب تبسّم الاستهزاء

الصغير فضلاً عن ضحك الاستهزاء؟

ففي تفسير قوله تعالى: ﴿... يَوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

عن ابن عباس: الصغيرة: التبسم بالاستهزاء بالمؤمن.

والكبيرة: القهقهة بالاستهزاء به.

وهو يرمي إلى أن الضحك على الناس من الذنوب والجرائم.

فتلك البسمة الصغيرة الصفراء التي ترتسم على شفتيك سخرية بالمؤمن عند جِدَالِك معه، سوف تجدها مدونة في كتابك الذي يخرج لك يوم القيامة فتلقاه منشوراً ويقال لك إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً، فكيف بالقهقهة الساخرة، فجدير بالمؤمن أن يراقب نفسه بدقة في تلك الجلسات الصاخبة التي يسودها جو الهزل، والاجتماعات التي يسودها الجدل وتحكمها أجواء حب إثبات الذات وغلبة الآخرين والاستطالة عليهم.

فربما نجد بعض الأحيان أناساً اجتمعوا في جلسة سَمَر، وجعلوا مورد مزاحهم وهزلهم شخصاً معيناً من بينهم، وأخذوا يصبّون عليه ما تجود به قرائحهم الهزلية، من سخرية واستهزاء غير مكترثين لجرح مشاعره وخدش كرامته، وهم مع ذلك مُنتَشُون محبورون، ويلهجون في اليوم التالي بذكر تلك الجلسة وما كانت مشتملة عليه من بهجة وسرور، غافلين عن إثم كبير قد ارتكبوه، وهو أنهم جعلوا مؤمناً هدفاً لسهام سخريتهم.

إن الدّين الحنيف في تشريعاته الإنسانية يؤكد على عكس ذلك تماماً، فإنه عوضاً عن الاستهزاء بالنقص المتواجد في الشخص يدعو إلى أمرين: الأول مراعاة شعور ذلك الشخص ففي الرواية: «**ولا تطيلوا النظر إلى أصحاب العاهات فإن ذلك مما يؤذيهم**» فما أروع الدّين القويم

نافذاً إلى أدق المشاعر، مراعياً لأرق الأحاسيس مبتعداً عن كل ما يمس بها ويخدشها، ولو كان نظرة من النظرات.

والأمر الثاني أن يتذكر العبد نعمة الله عليه، ويتوجه بالشكر إلى خالقه المنعم عليه بتلك النعمة التي فقدها ذلك الشخص وبغيرها، ويستحضر في قلبه أنه تعالى قادر في كل لحظة أن يسلبه تلك النعمة فيغدو ناقصاً كذاك الشخص. فإنه إذا استحضر هذا المطلب يغلب على قلبه أمران: الخوف من زوال النعمة والميل الأكبر للتوجه بالشكر إلى الخالق المنّان تبارك وتعالى بأنه بالشكر تدوم النعم، فيقول: «**الحمد لله الذي عافانا ولو شاء ابتلانا**» كما هو مضمون بعض الروايات، فإن هذا النمط من التفكير يولد شعوراً مفعماً بالعطف على من يفقد نعمة معينة، وأين هذا من نمط الغافلين الهزليين، فبينهما بُعد المشرقين، لذلك تجد الإنسان المتقي أبعد ما يكون عن السخرية بالآخرين.

فإنه يراعي حقوق المؤمنين وهي ثلاثون حقاً كما ورد في بعض الروايات منها: (ستر العورة)، وكم الفرق كبير بين من ستر عورة أخيه وبين من يكشف عن نقصه استهزاءً وسخرية؟! والإنسان الذي اعتاد السخرية من الآخرين سينال العذاب والخسران المبين في العوالم الثلاثة أقصد في دار الدنيا، وفي عالم البرزخ، ويوم القيامة.

فما هو عقاب المستهزئين بالناس يوم القيامة؟!

إنه عقاب من سنخ ما كانوا يمارسونه في دار الدنيا، تأمّل في هذه الرواية الواردة عن النبي الأعظمﷺ: «**إن المستهزئين بالناس يُفْتَح لأحدهم من باب الجنة فيقال: هلّم هلّم فيجيء بكربهِ وغَمّه فإذا أتاه أغلق دونه، ثم يفتح باب آخر، فيقال هلّم هلّم فيجيء بكربه وغمه فإذا أتاه أغلق دونه فما يزال كذلك حتى أن الرجل ليفتح له الباب فيقال: هلّم هلّم فما يأتيه**» فكأنه يقال له: ذق طعم الاستهزاء كما كنت

تستهزىء بالآخرين في الدنيا.

وأما الحالة السيئة للمستهزئين في عالم البرزخ» فستتضح من خلال الرؤيا الصادقة التي سأنقلها كما وردت في كتاب «الأموات يتكلمون معنا» وهي كالتالي:

نقل فضيلة الشيخ كمال الدين الكنبدي الهمداني عن أحد أبناء مدينته المدعو «الحاج حسين» أنه قال:

رأيت فلاناً في المنام (ولم يذكر الاسم تجنباً للغيبة) وكان يحرك آلةً ويُلْقِي فيها أشخاصاً فيفصل لحمهم عن عظامهم، فسألته مستاءً متعجباً:

ما هذا العمل الذي تعمله؟

فقال: إن هؤلاء مذنبون وإنني لست راغباً في هذا العمل ولكنني مأمور مجبر على القيام به لأنني أسأت في الحياة الدنيا إلى أحد العلماء، وهو الشيخ كمال الدين، وأرجو منك أن تذهب إلى الشيخ وتسأله أن يصفح عني، وقل له: قبل ثلاث ليالٍ عندما كنت منشغلاً بصلاة الليل تذكرت اسمي ولم تطلب لي المغفرة بسبب تلك الإساءة التي بدرت مني تجاهكم، وبعد أن قص الحاج حسين رؤياه على الشيخ كمال الدين قال الشيخ: صحيح قد تذكرت اسمه في الصلاة وكما قال لم أطلب له المغفرة بسبب تلك الإساءة ثم ذكر الحادثة التي أساء فيها إليه بالسخرية والاستهزاء فقال: قبل وفاة ذلك الرجل وعندما كان مشغولاً ببناء بيته وضع الميزاب في جهة لم تكن هي الجهة المناسبة بنظري فأبديت رأيي وقلت له: ضعه في الطرف الآخر من المنزل، فقال لي: مستهزئاً ساخراً مع حضور عدد من الأشخاص: وما دخلك أنت؟ ليست لك الصلاحية في إظهار الرأي في مسائل البناء، فأنت تعلم المسائل الدينية فقط إذهب وانشغل بعملك، وعلم الناس أحكامهم...

وقد تألمت كثيراً من هذا الكلام المهين الساخر وخاصة حيث كان أمام الناس.

أقول: تأمل فيما اشتملت عليه هذه الرؤيا الصادقة وكن معتبراً فإن العاقل من اعتبر بغيره قبل أن يعتبر الناس به.

فأولاً: انظر إلى نوع العذاب البرزخي للذي يسخر من الآخرين فإنه أمر بفصل لحوم الناس عن عظامهم..

وثانياً: علينا أن نحذر كثيراً عندما نريد أن نتكلم عن العلماء المقبلين على الآخرة الزاهدين في الدنيا، فكما كان يقول آية الله العظمى السيد المرعشي النجفي (قده): «إن غيبة العالم أكل ميتة مسمومة» فكذلك إن السخرية من العالم وتوهين العالم، وبهتان العالم.. تستوجب العقوبات المُغَلَّظة..

وثالثاً: إن الحادثة التي استوجب عليها الرجل ذلك العذاب في البرزخ هي من سنخ الحوادث التي قد تتكرر في حياتنا اليومية دون أن نعير لها أهمية أو أن نكترث لما ستجره علينا من عواقب وسأذكر نموذجاً لذلك لعله يكون منبهاً لنا ومذكِّراً ورادعاً عندما نَهِمّ بتوهين أحد والسخرية منه مهما كان ذلك الشخص ساذجاً..

الحادثة يذكرها الشيخ المظاهري (حفظه الله) يقول: حكى لي أحد الأصدقاء أنه ذهب إلى طبيب وجلس ينتظر دوره، فجاءت نوبة امرأة عجوز قروية ودخلت إلى الطبيب ليعاينها، فقالت للطبيب ونحن نسمع: لقد غليتُ الوصفة التي كتبتها لي أيها الطبيب وشربتها إلا أن صحتي لم تتحسن وما زالت على ما هي عليه.. واتضح أن هذه السيدة بدل أن تذهب إلى الصيدلية وتأخذ الدواء منها طبقاً للوصفة التي كتبها الدكتور، ذهبت وغلت نفس الورقة التي كتبت عليها اسم الدواء المركب وشربت ماءها...

فنظر إليها الطبيب وقال: يا لخسارة الخبز الذي يعطيك إياه زوجك لتأكليه، ثم كتب لها وصفة أخرى بالدواء لتذهب إلى الصيدلية وتأخذه وتتناوله..

يتابع ذلك الصديق قائلاً: عندما وصل دوري ودخلت إلى الطبيب للمعاينة ولم يكن أحد في الداخل إلا أنا وهو قلت له:

أتدري أيها الطبيب كم ذنب ارتكبت قبل قليل؟

أنك لم ترتكب ذنباً واحداً بل ذنوب متعددة، فقال: وكيف ذلك؟ قلت: **أولاً**: أنك استهزأت بمسلم واستهزاء المسلم بأخيه المسلم ذنب كبير، وهو مشتمل على التوهين وفي الرواية «من أهان لي وليًّا فقد بارزني بالمحاربة».

وثانياً: أنك بكلامك ذلك جعلتها مورد سخرية الناس الآخرين منها وضحكهم عليها، والنيل من شخصيتها، حيث أنها قد انتابها الخجل والحياء من الذي قلته في حقها.

وثالثاً: أنك لم تكن صادقاً ولا دقيقاً في دعواك التي أطلقتها حيث قلت لها: «يا لخسارة الخبز الذي يبذله لك زوجك لتأكليه» فلعل تلك المرأة ربّة بيت جيدة، وزوجة صالحة تعين زوجها وتحسن تبعلها له وتؤدي الأعمال الإنسانية..؟ فعدم التفات المرء إلى مسألة ما أو زلته وعثرته في قضية معينة لا يجعله في خانة من يحرم بذل الخبز له..

وهكذا لو أردت لجمعت لك أموراً أخرى قد ارتكبتها أيها الطبيب مخالفة للشرع المبين، وكل ذلك بموقف واحد وجملة واحدة»[1].

وأما مصير المستهزىء بالآخرين في الدنيا فقد يكون وخيماً جداً،

(١) كتاب جهاد النفس ص١٧١ (بتصرف).

لأن من يجرح كرامة الآخرين عليه أن يدخل في حسبانه انتقامهم منه في أي فرصة تسنح لهم، فإن جرح السنان يلتئم، ولكن جرح اللسان لا يندمل ويطالب صاحبه دائماً بالانتقام والتشفي.

وليس أدل على ذلك مما حصل لابن المقفع فمع أدبه وفصاحته كان متهوراً وعندما سئل الخليل بن أحمد عنه قال: وجدت علمه أكثر من عقله. وعندما سئل الأصمعي عن الخليل وابن المقفع أيهما كان أعظم فطنة وذكاءً قال: كان ابن المقفع أفصح وأحكم والخليل آدب وأعقل، ثم قال: شتان بين فطنة أفضت بصاحبها إلى القتل، وفطنة أفضت بصاحبها إلى النسك والزهد في الدنيا. وكان الخليل قد نسك قبل أن يموت، فكيف أدى تهوّر ابن المقفع واستهزاؤه بالآخرين إلى القتل؟ وليس قتلاً بطريقة عادية بل بأسلوب انتقامي فظيع؟

كان سفيان بن معاوية المهلبي أمير البصرة من قبل المنصور وكان قلبه يستعر بنار الغيظ على ابن المقفع لأنه كان دائماً يعبث به ويضحك منه. ومن نماذج السخرية به أنه دخل عليه ذات مرة فقال: السلام عليكما، فقال الوالي لماذا التثنية مع أنني واحد فأجاب ابن المقفع: سلام عليك وعلى أنفك الكبير، فضحك من في المجلس، وما كان الوالي يستطيع فعل شيء لأن ابن المقفع كان شخصية مرموقة اجتماعياً وكان كاتب عَمَّي المنصور عيسى وسليمان ابني علي بن عبد الله بن عباس بالبصرة وقال للوالي في أحد الأيام وهو في مجلسه أيها الوالي أسألك سؤالاً فلولا أجبتني بصراحة؟ فقال الوالي: سل ما بدا لك.

فقال: إذا ماتت إحدى النساء وكان لها تركة وهي زوجة لرجلين فكيف تقسم تركتها بين الرجلين!!؟ فضحك الناس لسخريته منه، إذ أن المرأة كيف يكون لها زوجان شرعيان في آن واحد حال موتها؟!!

وكان إذا قال له الوالي: إني لا أرى ضرراً من سكوتي عليك،

كان ابن المقفع يجيب: نعم إن الجاهل لا يجد الضرر إذا سكت. وهكذا إلى أن غضب سفيان يوماً من كلامه وافترى عليه، فرد عليه ابن المقفع رداً فاحشاً حيث قال له: يابن المغتلمة! فحقدها عليه، وحبسها في نفسه متربصاً سنوح الفرصة للقضاء عليه.

وثار عم المنصور الدوانيقي على المنصور ثم ندم بعد أيام، فاجتمع الناس، وذهبوا إلى المنصور يطلبون له العفو والأمان.

فوافق المنصور وأمر بأن يكتب كتاب أمان، وحيث أن ابن المقفع هو الذي كان كاتب عيسى وسليمان عَمَّي المنصور طلب منه أن يكتب كتاب الأمان الذي يؤمن فيه المنصور عمه عبد الله الذي ثار عليه ثم ندم ومن جملة ما كتبه ابن المقفع:

«ومتى غدر أمير المؤمنين بعمّه عبد الله، أو أبطن غير ما أظهر، أو تأوّل في شيء من شروط هذا الأمان، فنساؤه طوالق، ودوابه حبس، وعبيده وإماؤه أحرار، والمسلمون في حل من بيعته»، فاشتد ذلك على المنصور لما وقف عليه وسأل: من الذي كتب الأمان؟ فقيل عبد الله بن المقفع كاتب عميَّك.. فكتب المنصور إلى عامله بالبصرة سفيان بن معاوية يأمره بقتله.

فماذا تنتظر من الوالي إذ جاءه الضوء الأخضر في التنكيل برجل لطالما كان مهتّراً لشخصيته، ساخراً منه، مستخفاً به أمام الرعيّة.. لقد تفتحت أساريره ها هو أوان الانتقام قد حان، وهذا وقت التشفي قد حضر.. وعندما استأذن عليه جماعة من أهل البصرة منهم ابن المقفع، أدخل ابن المقفع قبلهم، وعدل به إلى حجرة في دهليزه، وكان معه غلامه فبقي مع دابته ينتظره على باب الوالي، وعندما وصل إلى تلك الحجرة وجد سفيان بن معاوية بانتظاره وعنده غلمانه وتنور نار يسجّر.

فقال له سفيان: أتذكر يوم قلت لي كذا؟ يابن المغتلمة!

إن لم أقتلك قتلة لم يقتل بها أحد!

وبالفعل فقد قتله أشنع قتلة، قطع أعضاءه عضواً عضواً وألقاها في النار وهو ينظر إليها حتى أتى على جميع جسده، ثم أطبق التنور عليه، ولا بدّ كان يُذَكِّرهُ بسخرياته منه، وعبثه بين الناس عندما كان يقطع أعضاءه، يذكره بقوله: «السلام عليكما»، ويقطع له عضواً متشفياً، يذكّره بقوله: «الجاهل لا يتضرر إذا سكت» ويقطع له عضواً آخر وهكذا..

وهنا نتذكر ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام: **«رب لسان أتى على إنسان»**[1].

«كم من دم سفكه فم»[2].

«زلة اللسان تأتي على الإنسان»[3].

«المرء يعثر برجل فيبرى، ويعثر بلسانه فيقطع رأسه»[4].

ثم بعد أن أطبق التنور عليه، خرج إلى الناس وحادثهم إلى أن انصرفوا، وبقي غلام ابن المقفع ينتظره فلم يخرج، فمضى وأخبر عيسى بن علي وأخاه سليمان بحاله، فخاصما سفيان بن معاوية في أمره، فجحد دخوله عليه وأنكر أنه كان مع الجماعة الذين وردوا عليه، فأشخصاه إلى المنصور، وقامت البينة العادلة على أن ابن المقفع دخل دار سفيان حياً سليماً ولم يخرج منها، فقال المنصور أنا أنظر في هذا الأمر إنشاء الله غداً، فجاء سفيان إلى المنصور ليلاً وقال: اتق الله في صنيعتك ومتبع أمرك يا مولاي، قال المنصور: لا تخف، ثم أحضرهم في الغد ولما طلب عيسى وسليمان القصاص (أي قتل سفيان مقابل ابن

(١) غرر الحكم.
(٢) غرر الحكم.
(٣) غرر الحكم.
(٤) البحار.

المقفع) قال المنصور: أرأيتم إن قَتَلْتُ سفيان بابن المقفع ثم خرج عليكم ابن المقفع من هذا الباب ـ وأومأ إلى باب خلفه ـ من ينصب لي نفسه حتى أقتله بسفيان؟ فسكتوا، واندفع الأمر، وأضرب عيسى وسليمان عن ذكر ابن المقفع بعدها، وذهب دمه هدراً.

إذن فإهانة الآخرين بالسخرية منهم، والاستهزاء بهم تسجِّر تنور القلب بالحقد والكراهية والغيظ، وقد تدعو إلى تسجير تنور النار في الخارج ليقذف المستهزىء الساخر فيه، فكن على حذر يا أخي من جرح كرامات الآخرين بكلامك فكم من كلمة سلبت نعمة وجلبت نقمة. فلكي يكون منطقك الصواب امتنع عن السخرية والاستهزاء بالمؤمنين.

آفات اللسان

- أذية المؤمن
- إهانة المؤمن (بالكلام)
- الاستخفاف بالمؤمن (بالكلام)
- استذلال المؤمن وتحقيره (من خلال الكلام)
- تعيير المؤمن
- ذم المؤمن وتتبع عوراته
- تأنيب المؤمن
- إذاعة سر المؤمن
- هدم مروءة المؤمن وشينه
- سباب المؤمن
- منابذة المؤمن وإضمار السوء له
- لعن المؤمن
- تهمة المؤمن
- إخافة المؤمن
- الإعانة على المؤمن
- محاكاة المؤمن وتقليده

* ما أصعب أن يستقيم لسان المرء ويحصل له الصواب في المنطق.

وهناك أمور أذكرها بإيجاز يجب على المؤمن الاحتراز عنها إذا أراد الانخراط في سلك أهل التقوى، وكثيراً ما يُغفل عنها ويُستهان بها، مع أنها قد تجر الإنسان إلى مهاوي العصيان وتستوجب له من الله الخذلان، ومردّها في الغالب إلى هذا اللسان الذي إن لم يستقم أتى على الإنسان فحجبه عن الجنان وأورده حميم النيران.

أذية المؤمنين

على المؤمن أن يراقب ألفاظه عند التكلم حذراً من أن تكون مشتملة على ما يؤذي المؤمنين ويخدش مشاعرهم وإلا فسيقع في معصية كبيرة يطالب بتداركها.

ـ فعن هشام بن سالم قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: قال الله عز وجل: **«ليأذن بحرب مني من آذى عبدي المؤمن»**.

ـ وعن المفضل بن عمر قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: **«إذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الصدود لأوليائي، فيقوم قوم ليس على وجوههم لحم فيقال هؤلاء آذوا المؤمنين ونصبوا لهم وعاندوهم وعنفوهم في دينهم ثم يؤمر بهم إلى جهنم»**[1].

(١) الوسائل أبواب العشرة من كتاب الحج ٨ ص٥٨٧.

إهانة المؤمن:

فعن أبان بن تغلب عن أبي جعفر قال: لما أسري بالنبيﷺ قال: «**يا رب ما حال المؤمن عندك؟ قال: يا محمد من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة..**».

وفي رواية أخرى: «**من أهان لي ولياً فقد أرصد لمحاربتي**»[1].

فراقب لسانك واحترز عن إهانة المؤمنين فإنك عبد ضعيف لا طاقة لك بالوقوف في وجه مخلوق ضعيف مثلك فكيف بك وأنت ترصد لمحاربة الواحد القهار!!؟

الاستخفاف بالمؤمن:

فعن الصادقعليه السلام عن آبائهعليهم السلام عن رسول اللهﷺ قال: «**ومن استخف بفقير مسلم فقد استخف بحق الله، والله يستخف به يوم القيامة إلا أن يتوب**»[2].

وعن أبي هارون عن أبي عبد اللهعليه السلام قال: قال لنفر عنده وأنا حاضر: **ما لكم تستخفون بنا؟ قال فقام إليه رجل من خراسان فقال: معاذ لوجه الله أن نستخف بك أو بشيء من أمرك، فقالعليه السلام**: بلى إنك أحد من استخف بي، فقال: معاذ لوجه الله أن أستخف بك، فقال ويحك ألم تسمع فلاناً ونحن بقرب الجحفة وهو يقول لك: احملني قدر ميل فقد والله عييت، والله ما رفعت به رأساً لقد استخففت به، ومن استخف بمؤمن فبنا استخف، وضيع حرمة الله عز وجل[3]. وهذا من الأمور التي على المؤمن أن يتنبه لها، وقد يمارسها الكثيرون ويقعون في حبالها من دون التفات مع ورود النهي عنها والتغليظ بشأنها في الشريعة

---

(١) المصدر ص٥٨٨.
(٢) الوسائل ج٨ أبواب العشرة من كتاب الحج ص٥٨٨ ح٤ عن الفقيه.
(٣) المصدر ص٥٩٢.

المقدسة فدقق بهذه الرواية عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام حيث قال عليه السلام: «**من لقي فقيراً مسلماً فسلم عليه خلاف سلامه على الغني لقي الله عز وجل يوم القيامة وهو عليه غضبان**»[1].

فكيف يكون من المتقين من يلقى الله وهو عليه غضبان، «**اللهم إنا نعوذ به من غضبك وحلول سخطك..**» فألفاظ الاستخفاف كثيرة وهي سهلة المؤنة فراقب نفسك واحذر من التورط بالاستخفاف بالمؤمنين.

استذلال المؤمن وتحقيره:

عن الرضا عليه السلام عن آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وآله:

«**من استذل مؤمناً أو حقره لفقره وقلة ذات يده شهره الله يوم القيامة**»[2] وفي رواية ثم يفضحه.

وعن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام:

«**لا تحقروا مؤمناً فقيراً فإن من حقر مؤمناً أو استخف به حقّره الله، ولم يزل ماقتاً له حتى يرجع عن محقرته أو يتوب**».

وقال عليه السلام: «**من استذل مؤمناً أو احتقره لقلة ذات يده شهره الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق**»[3].

تعيير المؤمن:

عن أبي بكير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**أبعد ما يكون العبد من الله أن يكون الرجل يؤاخي الرجل وهو يحفظ زلاته فيعيره بها يوماً ما**»[4].

---

(١) المصدر ص٤٤٢ عن عيون الأخبار ص٢١٥ والمجالس.
(٢) المصدر ص٥٨٩ عن عيون الأخبار.
(٣) المصدر.
(٤) المصدر عن الكافي.

ـ وعن سيف بن عميرة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «أدنى ما يخرج به الرجل من الإيمان أن يؤاخي الرجل الرجل على دينه فيُحصي عليه عثراته وزلاته ليعيره بها يوماً ما»(١).

ـ وعن الصادق عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «... من عيَّر مؤمناً بشيء لم يمت حتى يرتكبه»(٢).

ـ ذم المؤمنين وتتبع عوراتهم:

عن إسحاق بن عمار قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا معشر من أسلم بلسانه ولم يخلص الإيمان من قلبه لا تذموا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من تتبع عوراتهم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في بيته»(٣).

ـ تأنيب المؤمن:

عن الإمام الصادق عليه السلام: «من أنب مؤمناً أنّبه الله عز وجل في الدنيا والآخرة»(٤).

ـ إذاعة سر المؤمن:

عن عبد الله بن سنان قال: قلت له: عورة المؤمن على المؤمن حرام؟ قال: نعم، قلت: يعني سفلته؟ قال: «ليس حيث تذهب إنما هو إذاعة سرّه»(٥).

ـ هدم مروءة المؤمن وشينه وإسقاطه من أعين الناس:

عن المفضل بن عمر قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: «من روى على

---

(١) الوسائل ج٨ ص٥٩٥ عن معاني الأخبار ص١١٢.
(٢) المصدر ص ٥٩٦ عن الكافي.
(٣) الوسائل ج٨ ص٥٥ عن الكافي وعقاب الأعمال.
(٤) المصدر.
(٥) المصدر ص٦٠٨.

مؤمن رواية يريد بها شينه وهدم مروءته ليسقط من أعين الناس، أخرجه الله من ولايته إلى ولاية الشيطان فلا يقبله الشيطان»[1] وعن محمد بن فضيل، عن أبي الحسن موسى عليه السلام قال: قلت له جعلت فداك الرجل من إخواني يبلغني عنه الشيء الذي أكرهه، فأسأله عنه فينكر ذلك وقد أخبرني عنه قوم ثقات فقال لي: «**يا محمد كذِّب سمعك وبصرك عن أخيك، فإن شهد عندك خمسون قسامه وقال لك قولاً نصدقه وكذبهم، ولا تذيعن عليه شيئاً تشينه به، وتهدم به مروءته، فتكون من الذين قال الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾**»[2].

ـ سباب المؤمن:

عن أبي جعفر عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**سباب المؤمن فسوق، وقتاله كفر، وأكل لحمه معصية وحرمة ماله كحرمة دمه**»[3].

وعن أبي عبد الله عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**سباب المؤمن كالمشرف على الهلكة**»[4].

ـ منابذة المؤمن وإضمار السوء عليه:

فعن أبي حمزة قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**إذا قال الرجل لأخيه أُفّ خرج من ولايته، وإذا قال: أنت عدوي كفر أحدهما، ولا يقبل الله من مؤمن عملاً وهو مضمر على أخيه المؤمن سوءاً**»[5].

لعن غير المستحق:

عن مسعده بن صدقه قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «**إن اللعنة إذا**

---

(١) المصدر ص٦٠٨ عن الكافي والمجالس وعقاب الأعمال.
(٢) المصدر ص٦٠٩ عن عقاب الأعمال ص٢٧ والروضة ص١٤٧.
(٣) الوسائل ج٨ ص٦١٠ عن الكافي والفقيه والمحاسن.
(٤) المصدر ص٦١١ عن الكافي.
(٥) المصدر.

خرجت من صاحبها تردّدت بينه وبين الذي يلعن، فإن وجدت مساغاً وإلا رجعت إلى صاحبها وكان أحق بها، فاحذروا أن تلعنوا مؤمناً فيحل بكم»[1].

تهمة المؤمن:

فعن أبي عبد الله عليه السلام: «إذا اتهم المؤمن أخاه إنماث الإيمان في قلبه كما ينماث الملح في الماء»[2].

إخافة المؤمن:

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من نظر إلى مؤمن نظرة ليخيفه بها أخافه الله عز وجل يوم لا ظل إلا ظله»[3].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «لا يحل لمسلم أن يروّع مسلماً».

الإعانة على المؤمن:

عن أبي عبد الله عليه السلام: «من أعان على مؤمن بشطر كلمة لقي الله عز وجل وبين عينيه مكتوب: آيس من رحمة الله»[4].

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «إن العبد يحشر يوم القيامة وما أدمى دماً، فيدفع إليه شبه المحجمة أو فوق ذلك، فيقال له: هذا سهمك من دم فلان، فيقول: يا رب إنك تعلم أنك قبضتني وما سفكت دماً، قال: بلى، وما سمعت من فلان بن فلان كذا وكذا فرويتها عنه فنُقِلَت حتى صار إلى فلان فقتله عليها، فهذا سهمك من دمه»[5].

---

(١) المصدر ص٦١٣.
(٢) الوسائل ج٨ ص٦١٣ عن الكافي.
(٣) المصدر ص٦١٤.
(٤) المصدر ص٦١٥.
(٥) المصدر ص٦١٦.

ـ محاكاة المؤمن وتقليده في كلامه:

عن رسول الله ﷺ أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى يُسْقَوْن من الحميم والجحيم ينادون بالويل والثبور يقول أهل النار ما بال هؤلاء الأربعة قد آذونا على ما بنا من الأذى.. منهم رجل يسيل من فوه قيحاً ودماً فيقال له ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى فيقول: **إن الأبعد كان يحاكي ينظر إلى كل كلمة خبيثة فيسندها فيحاكي بها.. الحديث**»[1].

أقول: فما أصعب أن يستقيم لسان المرء وأن يحصل الصواب في منطقه، فمن أراد أن يحقق في نفسه الصفة الأولى من صفات المتقين التي عَبَّر عنها أمير المؤمنين وإمام المتقين بقوله: «**منطقهم الصواب**» فعليه أن يجتنب كل تلك الأمور التي ذكرناها (على سبيل الإجمال لا الحصر) ولكثرة هذه الآفات للسان وتعسّر النجاة من براثنها كان الصمت ممدوحاً «**من صمت نجا**» «**الصمت حكم والسكوت سلامة**» وكل من يهمل هذا الجانب ولا يعتني به فإن إيمانه سوف يكون مدخولاً غير مستقيم لأنه «**لا يستقيم إيمان امرىء حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه**» فالمنصف العاقل المتدبّر في هذا البحث بعد مطالعته لا بد أن يجد نفسه أمام خيارين: إما البقاء على ما ورثه واعتاده في محيطه وبيئته من استسهال عملية النطق والكلام وإطلاق اللسان في كل خاطرة ومرام فيشرف بذلك على الهلكة ويعرض نفسه للعذاب المدام.

وإما أن يقف مع ذاته وقفة نقض وإبرام، ويعزم على تصويب منطقه وضبط لسانه، وعدم إطلاقه إلا لما فيه نفع لنفسه وللأنام ولا ريب في أنه سيختار الثاني.

---

(١) الوسائل ج٨ ص٦١٧ عن الأماني وعقاب الأعمال.

السِّـــمَة الثانية

«ملبسهم الإقتصاد»

- سيرة المؤمن القصد في كل شيء
- تحقيق معنى الإسراف
- ثلاثة عناوين للإسراف في الروايات:

أ ـ ما أتلف المال

- أهل الله يقدرون يسير النعمة
- ثواب حفظ النعمة ولو اليسيرة

ب ـ ما أضر البدن

ج ـ ما أعطي بغير حق (الإنفاق في المحذورات الشرعية)

- التفريق بين الإنفاق على النفس والإنفاق في وجوه الخير
- لا سرف في الخير ـ (علينا تبديل اعتقادنا العرفي)
- الاقتصاد: الوسط بين الإسراف والتقتير
- التأدب بأدب الله (إذا وسع علينا وسعنا...)

السمّة الثانية

«ملبسهم الاقتصاد»

لا بد لنا في البدء من معرفة معنى الاقتصاد، فإنه الاعتدال والتوسط في الأمر.

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ أي سالك القصد أي الطريق المستقيم والمراد به التوحيد الذي دلتهم عليه فطرتهم[1].

ويقول تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ...﴾ المقتصد المتوسط الذي هو في قصد السبيل وسواء الطريق[2].

ويقول تعالى: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ قال صاحب الميزان «قده»: الاقتصاد وأخذ القصد وهو التوسط في الأمور، فالأمة المقتصدة هي المعتدلة في أمر الدين والتسليم لأمر الله[3].

ويقول عز من قائل: «**لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك**» قال (قده) في التفسير: القصد التوسط.. والمراد بكون السفر قاصداً كونه غير بعيد المقصد، سهلاً على المسافر[4].

فالاقتصاد إذن من القصد والقصد هو التوسط في الشيء، فإذا

(١) الميزان في تفسير الآية ٣١ من سورة لقمان.
(٢) الميزان في تفسير الآية ٣٢ من سورة فاطر.
(٣) الميزان في تفسير الآية ٦٦ من سورة المائدة.
(٤) الميزان في تفسير الآية ٤٢ من سورة التوبة.

اتضح ذلك نقول: إن الإمام عليه السلام يجعل الاقتصاد في الملبس من صفات المتقين أي التوسط فيه بحيث لا يكون نفيساً ولا وضيعاً، وبعبارة أخرى يكون الملبس معتدلاً بين حالتين حالة البذخ والترف من جهة، وحالة الوَضَاعَة المُوهِنَة عند العرف من جهة أخرى، فالذي يرتدي لباساً لا يوحي بالترف وبالنفاسة ولا بالتوهين والتحقير هو مقتصد في ملبسه.

وإنما ذكر الإمام عليه السلام الاقتصاد في الملبس كوجه وعنوان لكافة أمور المؤمن وشؤونه فالمؤمن في كل شيء مقتصد، فمشيه قصد كما يقول تعالى: «**واقصد في مشيك**» أي مشيه لا يوحي بكبر ولا بحقارة.

وأكله وشربه قصد: «**كلوا واشربوا ولا تسرفوا**».

وإنفاقه اعتدال وقصد يقول تعالى: «**والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً**» ويقول عز من قائل: «**ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً**».

وعن الإمام الصادق عليه السلام كما في البحار: «**المال مال الله جعله وديعة عند خلقه، وأمرهم أن يأكلوا منه قصداً، ويلبسوا قصداً، وينكحوا منه قصداً، ويركبوا منه قصداً، ويعودوا بما سوى ذلك على فقراء المسلمين، فمن تعدى ذلك كان أكله حراماً وما لبس منه حراماً، وما نكح منه حراماً، وما ركب منه حراماً، يتقلب في حرام، ولبئس العبد عبد يعيش فيما حرّم الله عليه ليصبح ويمسي والرب ساخط عليه..**».

فالمؤمن يختار الاعتدال والاقتصاد والتوسط في جميع أموره حتى أن الله تعالى نعت أمة محمد صلى الله عليه وآله بالأمة الوسط حينما قال عز وجل: «**وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً**»[1] فاختار تبارك وتعالى لهذه الأمة التوسط، ونعتها لتوسطها بأنها خير أمة أخرجت للناس: «**كنتم خير أمة أخرجت**

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

للناس..» فالأمة الوسط هي خير الأُمم. وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**المؤمن سيرته القصد**»[1].

فيا أخي إن أردت الانخراط في سلك أهل التقوى فاسلك الطريقة المثلى وهي طريق التوسط والاعتدال والاقتصاد في أمورك كلها.

والتي منها الاقتصاد في الملبس، والذي هو وجه من وجوه الاقتصاد في النفقة، فمن أهم الأمور التي ينبغي أن تُبْحَث بما هي مورد ابتلاء لدى المؤمنين هي حدود الإنفاق والتي يُعَنْونُها الدّين بعنوان «الاقتصاد في النفقة»، فالمؤمن عليه أن يكون مقتصداً في الإنفاق، ولكن المقام يحتاج إلى غور أكثر وتدقيق أكبر في تفاصيل هذا المفهوم الذي فهمه الكثيرون كما يروق لهم، فمال الأمر ببعضهم إلى البخل والتقتير بحجة الاقتصاد، ونفى البعض الآخر وجوب الاقتصاد لأجل ما وجدوا من أنفسهم من الميل إلى الإسراف والتبذير.

وليس الاقتصاد الذي تحبذه الشريعة وتحث عليه بخلاً ولا عدم سخاء، وإنما هو الإنفاق الذي لا يتعدى القوام والوسط والاعتدال إلى الإسراف ولا يَقْصُر عن التوسط إلى التقتير.

«**والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً**» فالإسراف هو مجاوزة الحد في أي شيء وقد غلب على النفقة، فهو تجاوز الحد في الإنفاق، والتقتير هو القصور في الإنفاق عن الحاجة، والمؤمن يمتثل ما يأمر به أمير المؤمنين عليه السلام «**كن سمحاً ولا تكن مبذراً، وكن مقدراً ولا تكن مقتّراً**» وعن الإمام الحسن العسكري عليه السلام: «**إن للسخاء مقداراً فإن زاد عليه فهو سرف**»[2] وعنه أيضا عليه السلام: «**للاقتصاد مقداراً فإن زاد عليه فهو بخل**»[3].

---

(١) غرر الحكم.
(٢) البحار ج٧٨ ص٣٧٧.
(٣) البحار ج٦٩ ص٤٠٧.

وهنا تجدنا مضطرين لأن نبحث في معنى الإسراف في الشريعة لكي يتضح معنى الاقتصاد. فقد ذكرنا بأن الإسراف في الإنفاق هو مجاوزة الحد فيه، ويأتي السؤال ما هو الحدّ الذي ينبغي أن لا يُتَخَطَّى؟ فلو كان المرء يكتفي بثوب أو ثوبين فامتلك عشرة أثواب هل يكون بذلك مسرفاً متجاوزاً لحد الإنفاق؟؟ وإذا عدّد أصناف الأطعمة على المائدة وكان يكتفي بصنف واحد لو شاء فهل يُعَدُّ متجاوزاً للحد في الإنفاق؟؟ وإذا وسَّعَ على عياله وأنفق مالاً جزيلاً على أضيافه لإكرامهم هل يكون متجاوزاً للحد؟؟

وإذا أكثر من الصدقات وأعمال البر فأنفق فيها أموالاً طائلة هل يُعَدُ مسرفاً ويكون متجاوزاً لحدود الإنفاق؟؟

إذا استنطقنا الروايات نجد عناوين بارزة يصدق عليها الإسراف قطعاً.

الأول: إتلاف المال الذي لا زال له منفعة، ولو كان يسيراً.

الثاني: ما أضرّ بالبدن.

والثالث: بذل المال في غير حقه، كما أنَّ منعه من حق هو تقتير.

أما العنوان الأول فقد ورد فيه روايات متعددة:

ـ فعن الصادق عليه السلام: «**إنما الإسراف فيما أتلف المال وأضر بالبدن**»[1].

ـ وفي رواية أخرى: «**إنما الإسراف فيما أفسد المال وأضر بالبدن**».

طبعاً فساد المال له درجات ويظهر من بعض الروايات أنه حتى إضاعة ما فيه منفعة ولو قليلة يدخل في إفساد المال بدرجة من الدرجات ففي رواية عن الصادق عليه السلام أنه دعي برطب فأقبل بعضهم يرمي بالنوى فقال عليه السلام: «**لا تفعل إن هذا من التبذير وإن الله لا يحب الفساد**» فحتى

(١) البحار ج٧٥ ص٣٠٣.

رمي النوى مع إمكان الانتفاع منه جَعَلَه الإمام عليه السلام من الفساد ولو بمستوى متدنٍ.

- وفي خبر عنه عليه السلام أنه نظر إلى فاكهة قد رميت من داره لم يستقصى أكلها (أي بقي منها شيء يؤكل) فغضب وقال: «**ما هذا؟!! إن كنتم شبعتم فإن كثيراً من الناس لم يشبعوا فأطعموه من يحتاج إليه؟**».

- وفي خبر آخر عنه عليه السلام: «**من شرب من ماء الفرات وألقى بقية الكوز خارج الماء فقد أسرف**».

- وفي رواية أن الحسن البصري كان مع أمير المؤمنين على شط الفرات فملأ البصري قدحاً من الماء وشرب منه وصب باقيه خارج الماء فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: «**قد أسرفت في ماء الفرات حيث لم تصب الماء فوق الماء**».

- وعن سليمان بن صالح قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ما أدنى ما يجيء من حدّ الإسراف؟ فقال عليه السلام: «**إبذالك ثوب صونك، وإهراقك فضل إنائك، وأكلك التمر ورميك بالنوى هيهنا وهيهنا**»[1].

- في خبر آخر عنه عليه السلام: «**إن القصد أمر يحبه الله عز وجل، وإن السَّرَف يبغضه الله حتى طرحك النواة فإنها تصلح لشيء وحتى صبك شرابك**»[2].

- وفي رواية عن النبي صلى الله عليه وآله أنه مرّ بسعد وهو يتوضأ فقال صلى الله عليه وآله: «**ما هذا السرف يا سعد**» قال: أفي الوضوء سرف؟ قال صلى الله عليه وآله: «**نعم وإن كنت على عين جارية**» وقال صلى الله عليه وآله: إن لله ملكاً يكتب سرف الوضوء».

- وفي رواية: «**السرف أن تلبس ثوب صونك في المكان القذر**».

- وفي الرواية أن النبي صلى الله عليه وآله كان يأكل الرطب ويطعم الشاة النوى، وقد جلس يوماً يأكل رطباً بيمينه ويمسك النوى بيساره ولم يلقه في

(١) فروع الكافي ج٤ ص٥٦.
(٢) البحار ج٧١ ص٣٤٦.

الأرض فمرت به شاة قريبة منه فأشار إليها بالنوى الذي في كفّه، فدنت إليه وجعلت تأكل من كفه اليسرى ويأكل هو بيمينه ويلقي إليها النوى حتى فرغ وانصرفت الشاة».

فهذه الروايات تعرضت لبعض التصرفات واعتبرتها من الإسراف، وجامع هذه الأمور هو إتلاف المال، وإهدار النعم من دون فائدة مع إمكان الاستفادة منها ولو فائدة مختصرة، وأدخلت هذه السلوكيات في حيّز الفساد، والله لا يحب الفساد. ولعل الكثيرين يتعجبون من النماذج التي تعرّضَتْ لها النصوص الشرعية لأنهم اعتادوا ارتكاب ما هو أعظم منها بإضعاف دون انتباه أو اكتراث.

فمثلاً رمي الفاكهة التي قد أُكِلَت ولكن لم تستقصى (أي بقي شيء قليل فيها قابل للأكل)، أو رمي النواة، أو إلقاء بقية الكوز خارج الماء.

أقول كيف لأصحاب الأموال والموائد المترفين أن يكترثوا لهذه العيّنات التي ذكرها أصحاب الرسالة عليهم السلام وأمثالها، وهم يرمون بالمتبقى من موائدهم وسفرهم في المهملات غير مكترثين بالفقراء الذين تهش أنفسهم إلى أدنى أصناف أطعمتهم لو وجودها.

وأنّى للذي يلبس ثوبه بضع مرات ثم يملّه لا لعيب فيه فيجعله رهينة مخزن الثياب مع أترابه وأشباهه أنّى لمثل هذا أن يعبأ بارتداء ثوبه في المكان القذر؟!

وأنّى للذي يريق المشروبات ذات الأثمان أن يأبه أو يكترث بهدر مقدار من الماء؟!

ولكن المؤمن الرسالي الذي يحمل هَمَّ إرضاء خالقه دائماً في قلبه، يتتبع أحكام الله تعالى ويطبقها بدقة صَغُرَتْ أم كبرت «**واتبعوا رضوان الله**» فيلتفت لهذه الموارد وأمثالها فيجتنب إهدار مالَه فائدة ونفع من نعم الله تعالى.

فمثلاً الإمام الخميني (قده) يقوم من جلسة مع بعض المسؤولين ليطفيء مصباحاً كهربائياً كان مُشْعَلاً في الغرفة المقابلة من دون فائدة،

فهدر هذه الطاقة التي هي نعمة إلهية ولو بمقدار إنارة مصباح كهربائي واحد لا تسمح به نفس عُجِنَتْ بماء الولاية.

وكذلك عندما نظر (قده) إلى الأوراق التي يُكْتَب على بعضها ويبقى البعض الآخر بياضاً أمر بأن يستفاد من البياض الباقي ولا يُرْمَى..

ومن هنا يتضح أن ما لا يُعَد إتلافاً وإفساداً للمال سوف لا يكون إسرافاً ففي رواية عن إسحاق بن عمّار قال: قلت لأبي إبراهيم الكاظم عليه السلام: الرجل يكون له عشرة أقمصة، أيكون ذلك من السّرف؟ فقال عليه السلام: «**لا ولكن ذلك أبقى لثيابه ولكن السرف أن تلبس ثوب صونك في المكان القذر**»(١).

فيستفاد من هذه الرواية أن التعدد حيث أنه أبقى وأحفظ للمتاع فهو عكس الإفساد والإتلاف فهو ليس بإسراف، وأما لبس الثوب الذي يصونك في المكان القَذِر فهو إفساد له فيدخل في الإسراف.. فالإسلام يحث على حفظ النعمة بقطع النظر عمّا له من قيمة ماديّة، فقد تكون النعمة مما لا يكترث لها في سوق المادة إلا أن الدين يعطي الثواب الجزيل على حفظها لما فيه من تعبير عن شكر المنعم وتعظيمه فعن أبي عبد الله عليه السلام: «**أنه قال في الثمرة والكسرة تكون في الأرض مطروحة فيأخذها إنسان ويأكلها: لا تستقر في جوفه حتى تجب له الجنة**»(٢).

ـ وعنه عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**من وجد ثمرة أو كسرة ملقاة فأكلها لم تستقر في جوفه حتى يغفر له**»(٣).

ـ وعن محمد بن علي بن الحسين قال: دخل أبو جعفر الباقر عليه السلام الخلاء فوجد لقمة خبز في القذر فأخذها وغسلها ودفعها إلى مملوك

(١) البحار ج٧٩ ص٣١٧.
(٢) الوسائل ج١٦ ص٦٠٧.
(٣) المصدر نفسه.

معه، فقال: تكون معك لآكلها إذا خرجت، فلما خرج عليه السلام قال للملوك: اين اللقمة؟

فقال: أكلتها يا بن رسول الله فقال عليه السلام: إنها ما استقرت في جوف أحد إلا وجبت له الجنة، فاذهب فأنت حرّ فإني أكره أن استخدم رجلاً من أهل الجنّة[1].

ـ وفي عيون الأخبار عن الرضا عليه السلام عن آبائه أن الحسين بن علي عليه السلام دخل المستراح فوجد لقمة ملقاة فدفعها إلى غلام له وقال:

يا غلام اذكرني بهذه اللقمة إذا خرجت، فأكلها الغلام فلما خرج الحسين عليه السلام قال: يا غلام اللقمة؟

قال أكلتها يا مولاي.

قال عليه السلام: أنت حرّ لوجه الله.

فقال رجل: اعتقته؟!

قال عليه السلام: نعم سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: (من وجد لقمة ملقاة فمسح منها أو غسل منها ثم أكلها لم تستقر في جوفه إلا اعتقه الله من النار ولم أكن لأستعبد رجلاً اعتقه الله من النار). المصدر.

وقد اهتم الدِّين حتى بالفُتات الذي يسقط من الخوان على المائدة فقد جعل تعالى عظيم النفع لمن يلتقطه ويأكله فعن عبد الله بن صالح الخثعمي قال شكوت إلى أبي عبد الله عليه السلام وجع الخاصرة فقال عليك بما يسقط من الخوان فكله قال: ففعلت فذهب عني[2].

ـ وعن أبي بصير عن أبي عبد الله قال عليه السلام قال أمير المؤمنين عليه السلام: **«كلوا ما يسقط من الخوان فإنه شفاء من كل داء بإذن الله لمن أراد أن**

(١) الوسائل ج١٦ ص٦٠٥.

(٢) الوسائل ج١ ص ٣٦١.

يستشفي به» أي يأكله بنية أن يشفى[1].

- وعن الحسن بن معاوية بن وهب عن أبيه قال: أكلنا عند أبي عبد الله عليه السلام فلما رفع الخوان لقط عليه السلام ما وقع منه فأكله ثم قال: **«إنه ينفي الفقر ويكثر الولد»**[2].

- وعن الرضا عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«الذي يسقط من المائدة مُهُور الحور العين»**[3].

- وعن عبد الله الأرجاني قال كنت عند أبي عبد الله عليه السلام وهو يأكل فرأيته يتتبع مثل السمسمة من الطعام ما يسقط من الخِوَان..».

فانظر يا أخي بعين البصيرة إلى الإمام عليه السلام كيف لا يهدر حتى ما كان مثل السمسمة لأن الله تعالى لا يحب الفساد ويبغض إضاعة المال، وبالمقابل هو ينفق الأكرار في سبيل الله وفي أعمال البرّ دون أن يكترث، وتحضرني في هذا المجال حادثة معبرة تنقل.

فقد ورد في بعض التواريخ أن جماعة كانت تطلب ديّة لبعض أفرادها، فحلّت في عشيرة وسألتها مبتغاها فأشاروا إلى رجل من بينهم قالوا إنه من الأسخياء لا يردّكم من غير قضاء حاجتكم فطلبوه فإذا هو في بستان النخيل في هجير النهار يلتقط بعض حشف التمر المتساقط فلما رأوه على هذه الحال قال بعضهم فلنرجع دون ذكر حاجتنا فهل هذا الذي هو عاكف في مثل هذا الوقت الحار على التقاط بعض التميرات الجافة المتساقطة ويحرص على جمعها هل سيبذل لكم مقدار دية التي هي مائة من الإبل!!!

فهمّوا بالرجوع إلا أنّهم عادوا وألقوا عليه السلام وذكروا له

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر ص٦٠٦.

حاجتهم، فما كان منه إلا أن قال: اذهبوا إلى معطن الإبل وسوقوا ما تحتاجون إليه منها! فعندها ذهلوا وذكروا له ما دار بينهم فرفع رأسه إليهم قائلاً: لولا ما ترون من التقاطي لهذا الحشف وحفظي لنعم ربي وإن قَلَّت قيمتُها لما استطعت أن أقضيَ حاجتكم وحوائج غيركم من إخواني المؤمنين!.

فبالفعل هذا جداً مُعبِّر.

وبالمقابل إن تضييع النعم يجلب الخسران والهوان في الدنيا والآخرة، وفي البرزخ فورد أن ضغطة القبر لما يضيّع العبد من النعم.

وأما في الدنيا فقد ورد عن رسول الله كما في الوسائل أنه دخل على عائشة فرأى كسرة كاد أن يطأها فأخذها وأكلها وقال: يا حميراء أكرمي جوار نعم الله عليك فإنها لم تنفر عن قوم فكادت تعود إليهم.

وعن امامنا الصادق عليه السلام أنه قال عليه السلام:

إن قوماً أفرغت عليهم النعمة، وهم أهل (الثرثار)، فعمدوا إلى مخ الحنطة فجعلوه خبزاً هجاءً، وجعلوا ينجون به صبيانهم (أي يمسحون به القذارة عن صبيانهم نعوذ بالله) حتى اجتمع من ذلك جبل عظيم قال: فمرَّ بهم رجل صالح على امرأة وهي تفعل ذلك بصبي لها فقال: ويحكم اتقوا الله (عز وجل) لا تغيروا ما بكم من نعمة! فقالت كأنك تخوفنا بالجوع، أما ما دام ثرثارنا يجري فإنا لا نخاف الجوع، قال:

فأسف الله عز وجل، واضعف لهم الثرثار، وحبس عنهم قطر السماء ونبت الأرض، قال: فاحتاجوا إلى ذلك الجبل فإنه كان ليقسم بينهم بالميزان[1].

(١) وسائل الشيعة ج١ ص٣٦٢ ـ ٣٦٣.

العنوان الثاني الوارد في النصوص
أنه إسراف هو: ما أضرَّ بالبدن

فعن إمامنا الصادق عليه السلام كما في البحار أنه قال: «**إنما الإسراف فيما أتلف المال وأضرَّ بالبدن**» وقال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ فإن الزيادة في الأكل عن الحد تضرّ بالبدن، ولعل ما ورد في رواية عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله يشير إلى ذلك ففي الرواية أنه صلى الله عليه وآله قال: «**إن من السرف أن تأكل كلما اشتهيت**» فقد يكون المقصود الأكل عند الاشتهاء ولو على الشبع ومن دون جوع فإنه مضرٌ بالإنسان وقد وردت روايات تنهى عن الأكل على الأكل. والمأثور عن الأئمة عليهم السلام: «**نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع**» فالرواية محمولة على ذلك.

وفيها يتضح أن الأكل باعتدال ولو لأصناف متعددة ومفيدة للجسد ليس بإسراف ما لم يتجاوز حاله. وفي الرواية عن الصادق عليه السلام: «**ليس فيما أصلح البدن إسراف**» وقد ورد عن إمامنا الصادق عليه السلام ما يحدد الاقتصاد في المأكل ففي الرواية أنه قال عليه السلام: «**إنما الإسراف فيما أفسد المال وأضر بالبدن قيل: فما الإقتار؟ قال أكل الخبز والملح وأنت تقدر على غيره قيل فالقصد قال: الخبز واللحم واللبن والزيت والسمن مرة ذا ومرة ذا**»[1].

والعنوان الثالث الوارد كونه إسرافاً
هو بذل المال في غير حق

ففي الخطبة ١٢٦ من نهج البلاغة قال عليه السلام: «**إعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف**».

وعن معاذ قال سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عن تفسير الآية: «**والذين إذا**

(١) بحار الأنوار ج٧٢ ص٣٠٣.

أنفقوا لم يسرفوا...» فقال ﷺ: **«من أعطى في غير حق فقد أسرف»**[1].

- وعن الإمام الكاظم عليه السلام كما في البحار: **«من كان له مال فإيّاه والفساد، فإنّ إعطاءك المال في غير وجهه تبذير وإسراف، وهو يرفع ذكر صاحبه في الناس ويضعه عند الله»**[2].

- وفي تفسير العياشي: عن الصادق عليه السلام: **«من أنفق شيئاً في غير طاعة الله فهو مبذّر ومن أنفق في سبيل الخير فهو مقتصد»** وقد وردت الرواية في تفسير الآية الكريمة: **«وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً»**[3].

يستفاد من هذه الروايات أن كل إنفاق في المحذورات الشرعية هو إسراف وتبذير حتى ولو كان قليلاً، مثلاً الإنفاق للحضور في النوادي التي تمارس فيها المحرمات من غناء وغيره، أو بذل المال لبعض الجهات التي تستخدمه في غير الوجه الشرعي. ومن هنا على المكلف أن يدقق فيما ينفق ماله ففي الرواية **«لا تزول قدم امرىء يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن ماله مما اكتسبه وفيما أنفقه..»** فإذا تبين أن الجهة التي ينفق فيها شرعية عقلائية أنْفَقَ ولم يخشَ من ذي العرش إقتاراً وإلا أمسك عن الإنفاق لكي لا يُعَدّ مسرفاً.

---

(١) ميزان الحكمة.

(٢) البحار ج٧٨ ص٣٢٧.

(٣) تفسير الميزان ج١٣ ص١٠٠.

التفريق بين الإنفاق على النفس والمتعلقات وبين الإنفاق في وجوه الخير

لا بد من الالتفات إلى نكتة مهمة قد يغفل الكثيرون عنها فيمارسون عكس المطلوب منهم، وهي أنه يوجد فرق بين الصرف على النفس والمتعلقات وبين الصرف في وجوه الخير، ففي الإنفاق على النفس لا بد من مراعاة حاله وشأنه بحسب وقته وبلده وشرفه وصنعته فالأطعمة النفيسة التي لا تليق بحاله تخرجه عن الاقتصاد وكذلك الأمتعة والألبسة التي هي فوق شأنه إذا نظرنا إلى وقته وبلده وأمثاله فإنها تخرجه عن القوام في الإنفاق إلى الإسراف فيه.

فإن قلت: إن الشأنية تتبع العرف، والعرف قد يتفاوت فَيُفْرِط مرةً ويغلب عليه الحرص والبخل، ويفرِّط أخرى فيغلب عليه مجاوزة الحد في الإنفاق، فكيف يحدّد المرء تكليفه سعتئذٍ؟

قلنا: إنه يوجد عرف المتوسطين من العقلاء المتشرعين يرجع إليه.

وأما الإنفاق في الخير كالصدقات وبناء المساجد، والمبرات، وإقراء الضيف، فقد ذهب البعض منهم صاحب التذكرة إلى أن ما زاد منه على ما يليق بحاله فهو تبذير لأنه إتلاف في المال، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾.

ولكن هذا الرأي خلاف المشهور، من أن صرف المال في وجوه الخير ليس تبذيراً ولا إسرافاً، قال الشهيد الثاني في الروضة البهية:

«**وأما صرفه في وجوه الخير من الصدقات، وبناء المساجد، وإقراء الضيف فالأقوى أنه غير قادح مطلقاً** (أي سواء كان لائقاً بحاله أم لا) **إذ لا سَرَفَ في الخير كما لا خير في السَّرَف**»[1].

ـ وعن أمير المؤمنين عليه السلام كما في غرر الحكم: «**الإسراف مذموم في كل شيء إلا في أفعال البرّ**».

وفي هذا المقام تنعكس الآية في مجتمعاتنا، إذ أن كثيراً من الناس إذا أنفقوا القليل في طريق الخير يجتاحهم شعور الخوف من الإسراف بينما لو أنفقوا ما أنفقوا على أنفسهم يعتبرون هذا من حقهم ولو جاوز ما يليق بحالهم.

فعلينا أن نُبَدِّل هذا الاعتقاد وأن نقرّر في أنفسنا أنه لا سرف في الخير، ففي وصية الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله لأمير المؤمنين:

«**وعليك بالصدقة حتى تظن أنك أسرفت ولم تسرف..**».

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**.. من أنفق في سبيل الخير فهو مقتصد**».

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام كما في النهج كتاب ٢١ إلى زياد: «.. **وأمسك من المال بقدر ضرورتك، وقدم الفضل ليوم حاجتك**».

ويقول أيضاً عليه السلام: «**طوبى لمن أمسك الفضل من كلامه وأنفق الفضل من ماله**».

---

(١) الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية باب أحكام الحجر، والرواية وردت في البحار ج٧٧ ص١٦٩ عن النبي صلى الله عليه وآله.

ويقول النبي الأعظمﷺ: «**ما جبل الله ولياً له إلا على السخاء**».

وعن أمير المؤمنينعليه السلام: «**السخاء خُلُقُ الأنبياء**».

والسخاء هو الإنفاق في طاعة الله وفي القربات فعن الصادقعليه السلام: «**السخاء أن تسخو نفس العبد عن الحرام أن تطلبه، فإذا ظفر بالحلال طابت نفسه أن ينفقه في طاعة الله عز وجل**»[1].

فالمؤمن لا يرضخ لتسويلات الشيطان الذي يريد أن يحوله إلى بخيل مقتّر بل من سجايا المؤمن كما عن الصادقعليه السلام أن له «**قوة في دين وسخاء في حق**».

خلاصة:

إلى هنا اتضح معنى الإسراف فمن أنفق من دون إفساد للمال ولا إضاعة ولا إتلاف له، ولم يكن في إنفاقه إضرار بالبدن، ولم يكن الصرف في المعاصي، ولم يتعدّ ما يليق بحاله، فهو ليس بمسرف، نعم في طريق الخير حتى وإن تجاوز ما يليق بشأنه فهو غير مسرف أيضاً لأنه لا سرف في الخير، وأما من أتلف مالاً ولو قليلاً وأفسده مع إمكان الانتفاع به فهو مسرف، ومن أنفق في غير حق، وفي غير طاعة الله، فهو مسرف، ومن أضرّ ببدنه لأكل أو شراب زائدين عن الحد فهو مسرف، ومن تجاوز في إنفاقه ما يليق بحاله وشأنه عند عرف العقلاء والمتشرعة فهو مسرف.

وأما التقتير فهو بإزاء الإسراف في حد النقيصة، فمن قصر في إنفاقه عن حاجياته وحاجيات عياله مع قدرته على سد تلك الحاجة ومع كونها طبعاً من شأنه فهو مقتّر.

---

(١) البحار ج٧١ ص٣٥٣.

وبعد اتضاح معنيي الإسراف والتقتير يتضح معنى الاقتصاد والقوام في النفقة. الذي حث عليه الشرع المقدس بشكل كبير، فهو حالة الوسط ما بين الإسراف والتقتير: «**والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولا يقتروا وكان بين ذلك قواماً**».

«**ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط**».

ـ وفي الرواية عن الكاظم عليه السلام: أن الإمام الصادق عليه السلام تلا قوله تعالى: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا..﴾ فأخذ قبضة من حصى وقبضها بيده فقال: «**هذا الإقتار الذي ذكره الله عز وجل في كتابه، ثم قبض قبضة أخرى فأرخى كفه كلّها، ثم قال: هذا الإسراف، ثم أخذ قبضة أخرى فأرخى بعضها وأمسك بعضها وقال: هذا القوام**»[1].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**الاقتصاد نصف المؤنة**»[2].

«**الاقتصاد يُنمي القليل، الإسراف يفني الجزيل**»[3].

«**ما عال امرء اقتصد**»[4].

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «**الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة**».

وعن الصادق عليه السلام: «**ضمنت لمن اقتصد أن لا يفتقر وقال الله عز وجل: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ والعفو الوسط**.

وينبغي الالتفات هنا إلى أن الاقتصاد هو الصواب حتى مع الغنى وليس كما قد يقع في أوهام البعض من أن الاقتصاد هو حالة يلجأ المرء

---

(١) فروع الكافي ج٤ ص٥٤.
(٢) الغرر.
(٣) الغرر.
(٤) البحار.

إليها في حالة التضييق عليه في الرزق وسيأتي قوله عليه السلام أن من علامة أحدهم (أي المتقين) أنك ترى له قصداً في غنى، فهو مقتصد حتى في حالة الغنى، نعم المؤمن يتأدب بأدب الله تعالى إذا وُسِّع عليه وَسَّع دون أن يصل إلى حد الإسراف، وإذا ضُيِّقَ عليه ضَيّق، فعن إمامنا الصادق عليه السلام كما في الوسائل: «.. **إنما نتدبر بأمر الله ذا وسَّع علينا وسّعنا وإذا قتّر قترنا**»[1] وإنما قال ذلك رداً على الذين قالوا له: لو دبّرت أمرك حتى يعتدل، لأنهم رأوه مرة يطعمهم الفرانّي (الخبز المطبوخ بالسكر والسمن أو اللبن) والأخبصة (أنواع الحلوى) ومرة يطعمهم الخبز والزيت، فعلّمَهم الإمام عليه السلام أنه عندما يُوسّع الله عليه يوسّع على أضيافه وإخوانه وعندما يقتّر عليه يقتّر.

(١) الوسائل ج١٦ ص٥٤١.

السمّة الثالثة

«مشيهم التواضع»

- عمدة التواضع أمران
- المتقون متواضعون في جميع أحوالهم
- المتكبر مجنون!

لم يرخص في الكبر حتى لخاصة الأنبياء عليهم السلام

- تواضع الرسول صلى الله عليه وآله - تواضع أمير المؤمنين عليه السلام والأئمة عليهم السلام
- تواضع الصالحين
- فضل التواضع في الآثار الشرعية
- علامات التواضع.. فلنعرض أنفسنا عليها
- فن التواضع
- قبسات من أنوار علمائنا التواضعية

السِّمَة الثالثة (من سمات المتقين)
«.. ومشيهم التواضع»

هذه الصفة الثالثة من صفات المتقين التي وردت في خطبة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام «**مشيهم التواضع**».

ليس التواضع في الحقيقة أمراً اعتبارياً يحدث بالجعل والاعتبار، وإنما هو أمر يرتكز على حقائق واقعية تكمن في النفس تُحدِثُ فيها انكساراً يمنعها من أن ترى لِذَاتها مزية على الغير توجب لها الترفع عليه، وهي تتلخص بأمرين:

الأول: معرفة العظمة والجبروت الإلهيين فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنه لا ينبغي لمن عرف عظمة الله أن يتعظم، فإن رفعة الذين يعلمون عظمته أن يتواضعوا له**»[1] في رواية: «**. . . وعز الذين يعرفون ما جلال الله أن يتذلّلوا له**»[2].

والثاني: معرفة ضعف العبد المخلوق وذلّتِه.

فمن نظر بعين بصيرته إلى عظمة الخالق جلّ شأنه، والتفت بالمقابل إلى مدى فقره، وحاجته وضعفه، وخسته، كمُمْكِنٍ للوجود في

(١) نهج البلاغة الخطبة ١٤٧.
(٢) البحار ج٧٥ ص١٠٤.

مقابل الكمال المطلق لواجب الوجود تباركت أسماؤه فإنه لا محالة سوف تحدث في نفسه حالةُ التواضع للخالق، ولعباد الله المؤمنين. فلا يستكبر عن عبادة الله تعالى، وطاعته في كل صغير وكبير، ولا يصعِّر خده للمؤمنين، ولا يمشي في الأرض مرحاً، لأنه يكون قد أذعن بأنه لن يخرق الأرض ولن يبلغ الجبال طولاً:

حقيقٌ بالتواضع من يموت ... ويكفي المرء من دنياه قوت
فما للمرء يصبح ذا هموم ... وحرص ليس يدركه النعوت
فيا هذا سترحل عن قليل ... إلى قوم كلامهم السكوت[1]

فدرجة التواضع لدى المرء تتأثر قوة وضعفاً بدرجة تعظيم الخالق في النفس، ومدى إذعان القلب بذلّ المخلوق وحاجته إلى بارئه.

ففي الرواية «**التواضع ثمرة العلم**»[2] وبالمقابل التكبر ثمرة الجهل، فالمتكبر جاهل أحمق مهما نال من رفعة ظاهرية، ومهما كان عند نفسه عظيماً، ففي الحديث القدسي: «**يا أحمد إن عيب أهل الدنيا كثير فيهم الجهل والحمق، لا يتواضعون لمن يتعلمون منه، وهم عند أنفسهم عقلاء، وعند العارفين حمقاء**»[3].

ولا بد من الالتفات إلى أن العلم الذي يوصل إلى التواضع هو العلم الذي يراد به الآخرة، لا مطلق العلم ولو أريد به الدنيا، كما يدلُّ عليه حديث رسول الله ﷺ: «**من طلب العلم لله لم يصب منه باباً إلا ازداد به في نفسه ذلاً، وفي الناس تواضعاً، ولله خوفاً، وفي الدين اجتهاداً، وذلك الذي ينتفع بالعلم فليتعلمه، ومن طلب العلم للدنيا، والمنزلة عند الناس، والحظوة عند السلطان، لم يصب منه باباً إلا ازداد**

(١) ميزان الحكمة ج٢ عن تاريخ دمشق.
(٢) غرر الحكم: ٣٠١.
(٣) البحار ج٧٤ ص٢٤.

في نفسه عظمة، وعلى الناس استطالة، وبالله اغتراراً، ومن الدين جفاءً، فذلك الذي لا ينتفع بالعلم، فليكف وليمسك عن الحجة على نفسه، والندامة والخزي يوم القيامة»[1].

وفي رواية أخرى عن رسول الله ﷺ: «**لا تجلسوا إلا عند كل عالم يدعوكم من خمس إلى خمس: من الشك إلى اليقين، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الرغبة إلى الرهبة (وفي رواية إلى الزهد) ومن الكبر إلى التواضع، ومن الغش إلى النصيحة (وفي رواية من العداوة إلى النصيحة)**»[2].

والعالم الذي لا يتواضع لمن يعلِّمُه العلم، ولمن يتعلَّمُ منه العلم هو جبَّار فعن إمامنا الصادق عليه السلام: «**تواضعوا لمن تعلمونه العلم، وتواضعوا لمن طلبتم منه العلم، ولا تكونوا علماء جبارين فيذهب باطلُكُم يحقِّكم**»[3].

المتقون مشيهم التواضع بل هم في جميع أحوالهم متواضعون

الإمام عليه السلام ذكر من صفات المتقين أن «مشيهم التواضع»، وهي حالة من حالات تواضعهم لا ينحصر تواضع المؤمن فيها، بل المؤمن في جميع أحواله متواضع كما ورد في دعاء كميل (**واجعلني.. في جميع الأحوال متواضعاً**).

ولعلّ ذكر الإمام عليه السلام حالة التواضع في المشي من بين الأحوال الأخرى لأنها حالة ظاهرة بادية للآخرين، تعكس سمت المؤمن من دون مزيد استقصاء. وإلا فهو في جلوسه متواضع، وفي كلامه متواضع، وفي مواقفه متواضع..

---

(١) مشكاة الأنوار للطبرسي ص٢٣٨ ـ البحار ج٢ ص٣٥.
(٢) البحار ج٧١ ص١٨٩ عن أعلام الدين للديلمي.
(٣) الكافي ج١ ص٣٦ وأمالي الصدوق (قده) ص٤٤٠ مؤسسة البعثة قم.

وهذه السلوكيات والأحوال الظاهرة إنما هي آثار وثمرات حالة التواضع المكنونة في النفس، فالذي يعرف خالقه ويعظمه، ويعرف مبدأه وهو النطفة المدرة، ومنتهاه وهو الجيفة القذرة، وأن ما بينهما يحمل العذرة، فإنه سوف لا يتبختر في مشيته، ولا يتعاظم على غيره من المؤمنين، وإلا فسيكون في عداد الشرع مجنوناً ففي الرواية أن رسول الله ﷺ مرّ على جماعة فقال «**على ما اجتمعتم قالوا يا رسول الله هذا مجنون يصرع فاجتمعنا عليه فقال ﷺ: ليس هذا بمجنون ولكنه المبتلى ثم قال: ألا أخبركم بالمجنون حق المجنون؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال ﷺ: إن المجنون حق المجنون المتبختر في مشيته، الناظر في عطفيه المحرك جبينه بمنكبيه، يتمنى على الله جنته وهو يعصيه، الذي لا يؤمَن شرُّه، ولا يرجى خيره، فذلك المجنون وهذا المبتلى**»[1].

وعن رسول الله ﷺ: «**من مشى على الأرض اختيالاً لعنته الأرض ومن تحتها ومن فوقها**»[2].

وعنه ﷺ أيضاً: «**من تعظم في نفسه أو اختال في مشيته لقي الله تبارك وتعالى وهو عليه غضبان**»[3].

فالعظمة والعز والكبرياء لا تليق إلا بالكمال المطلق المنزهة ساحته عن النقص، وأما باقي المخلوقات الممكنة فهي عين الفقر والحاجة، فليس لديها شيء من عندها، بل كل ما فيها هو من عند مبدعها وباريها تبارك وتعالى، لذلك ورد في الحديث القدسي:

«**العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني فيهما قصمته**»[4].

---

(١) ميزان الحكمة عن الخصال.
(٢) ثواب الأعمال ج١ ص٣٢٤.
(٣) ميزان الحكمة بـ النهي عن المشي مرحاً.
(٤) البحار ج٧٠ ص١٩٥ طبعة مؤسسة الوفاء ـ بيروت.

وعن صادق أهل البيت عليه السلام: «**إن في جهنم لوادياً للمتكبرين يقال له سقر شكى إلى الله شدة حرّه، وسأله أن يأذن له أن يتنفس، فتنفس فأحرق جهنم**»[1].

فلأنه ليس أحد أهلاً للكبرياء إلا الواحد الديان لم يرخص تبارك اسمه وجل شأنه بالكبر لأحد أبداً حتى لكمَّل خلقه من الأنبياء والأولياء فكيف بما دونهم من سائر الخلق.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**فلو رخص الله في الكبر لأحد من عباده لرخّص فيه لخاصة أنبيائه وأوليائه، ولكنه سبحانه كرّه إليهم التكابر، ورضي لهم التواضع، فألصقوا بالأرض خدودهم، وعفّروا في التراب وجوهَهم، وخفَضوا أجنحتَهم للمؤمنين، وكانوا أقواماً مستضعفين، وقد اختبرهم الله بالمخمصة، وابتلاهم بالمجهدة، وامتحنهم بالمخاوف، ومخضهم بالمكاره..**»[2].

وانظر إلى المشيئة الإلهية كيف اقتضت دخول موسى عليه السلام وهارون عليه السلام على فرعون، وبأي هيئة وبأي صورة؟!! يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«**ولقد دخل موسى بن عمران ومعه أخوه هارون عليه السلام على فرعون وعليهما مدارع الصوف، وبأيديهما العِصيّ، فشرطا له إن أسلم بقاءَ مُلكه ودوام عزه، فقال: ألا تعجبون من هذين يشرطان لي دوامَ العز وبقاءَ المُلك وهما بما ترون من حال الفقر والذل، فهلاّ أُلْقيَ عليهما أساورةٌ من ذهب إعظاماً للذهب وجمعه، واحتقاراً للصوف ولبسه، ولو أراد الله سبحانه بأنبيائه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذّهبَان ومعادن**

(١) الكافي ج٢ ص٣١٠ نشر دار الكتب الإسلامية.

(٢) نهج البلاغة خطبة ١٩٢ الخطبة القاصعة.

العقيان، ومغارسَ الجِنَان، وأن يَحشُر معهم طيورَ السماء، ووحوش الأرض لفعل، ولو فعل لسقط البلاء، وبطل الجزاء، واضمحلت الأنباء.. ولآمنوا عن رهبة قاهرة، أو رغبة مائلة بهم.. ولكن الله سبحانه أراد أن يكون الابتلاء لرسله، والتصديق بكتبه، والخشوع لوجهه، والاستكانة لأمره، والاستسلام لطاعته، أموراً له خاصة لا يشوبها من غيرها شائبة، وكلما كانت البلوى والاختبار أعظم كانت المثوبة والجزاء أجزل..»[1].

نفهم من هذه المقطوعة أن الله تعالى يريد لمضمون المرء أن يأخذ مجاله، ويريد للجوهر أن يأخذ حيّزه، ويفرض نفسه، ولو بعد جهد ومشقة، وما المظاهر الخاوية عن المضمون إلا كفقاقيع لا تلبث أن تزول وتتلاشى «**فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض**» فحتى لو استهان السفهاء بمظهر المتواضع بادىء الأمر إلا أن ثقل شخصية المتواضع سيكون لها التوقير والتبجيل في الختام: «لكن الله سبحانه جعل رسله أولي قوة في عزائمهم وضعفه فيما ترى الأعين من حالتهم..»[2].

والتواضع أحد أبرز عِلَل وحِكَم العبادات، فإن الله تعالى فرض عمدة العبادات لتحصيله وتحصيل التذلل في النفس، والتخشع للخالق، ولين الجانب لعباد الله المؤمنين، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «.. **وعن ذلك ما حرس الله عباده المؤمنين بالصلوات والزكوات، ومجاهدة الصيام في الأيام المفروضات تسكيناً لأطرافهم، وتخشيعاً لأبصارهم، وتذليلاً لنفوسهم، وتخفيضاً لقلوبهم، وإذهاباً للخيلاء عنهم، لما في ذلك من تعفير عتاق الوجوه بالتراب تواضعاً، والتصاق كرائم الجوارح**

(١) المصدر.

(٢) نهج البلاغة خطبة ١٩٢ القاصعة.

بالأرض تصاغراً، ولحوق البطون بالمتون من الصيام تذللاً.. انظروا إلى ما في هذه الأفعال من قمع نواجم الفخر، وقدع طوالع الكبر»[1].

ويقول عليه السلام أيضاً في جعل التذلل في النفس والتواضع غاية وهدفاً من الامتحانات والاختبارات بالشدائد: «.. **ولكن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد، ويتعبدهم بأنواع المجاهد، ويبتليهم بضروب المكاره، إخراجاً للتكبر من قلوبهم، وإسكاناً للتذلل في نفوسهم، وليجعل ذلك أبواباً فتحاً إلى فضله**»[2].

فالتواضع هو باب كل مرتبة عظيمة، فإن الله تعالى عند المنكسرة قلوبهم فعن صادق أهل البيت عليهم السلام: «**إن أفضل العمل العبادة والتواضع**»[3].

وقد روي أنه أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: «**أن يا موسى أتدري لما اصطفيتك بكلامي دون خلقي، قال: يا رب ولما ذلك؟ فأوحى الله تعالى إليه: إني قلبت عبادي ظهراً لبطن فلم أجد فيهم أحداً أذل نفساً لي منك، يا موسى إنك إذا صليت وضعت خدك على التراب**»[4].

وروي أن سليمان بن داود **كان إذا أصبح تصفح وجوه الأغنياء والأشراف حتى يجيء إلى المساكين فيقعد معهم ويقول مسكين مع مساكين**[5].

وقال عيسى ابن مريم للحواريين: «**لي إليكم حاجة فاقضوها لي،**

---

(١) نهج البلاغة خطبة ١٩٢ (القاصعة).
(٢) المصدر.
(٣) ميزان الحكمة عن تحف العقول ص٢٠٤.
(٤) الكافي ج٢ ص٢٣ دار الكتب الإسلامية.
(٥) التواضع والخمول لابن أبي الدنيا.

قالوا: قُضِيَت حاجتُك يا روح الله، فقام وغسل أقدامهم، فقالوا كنا أحق بهذا يا روح الله، فقال: إن أحق الناس بالخدمة العالم، إنما تواضعت هكذا ليكما تتواضعوا بعدي في الناس كتواضعي لكم، ثم قال: بالتواضع تعمر الحكمة لا بالتكبر، كذلك في السهل ينبت الزرع لا في الجبل[1].

ـ تواضع رسول الله محمد ﷺ:

وأما رسول الله ﷺ فمن عجيب أمره أنه كان أجمع الناس لدواعي الترفع ثم كان أدناهم إلى التواضع، وذلك أنه ﷺ كان أوسط الناس نسباً، وأوفرهم حسباً، وأسخاهم، وأشجعهم، وأزكاهم، وأفصحهم، وهذه كلها من دواعي الترفع، ثم كان من تواضعه: «**أنه يرقع الثوب، ويخصف النعل، ويركب الحمار، ويعلف الناضح، ويجيب دعوة المملوك، ويجلس في الأرض، ويأكل في الأرض، وكان يدعو إلى الله من غير نَهْر ولا زَجْر**»[2].

في خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام يقول واصفاً رسول الله ﷺ: «. . **وكان يخصف بيده نعله ويرقع بيده ثوبه، ويركب الحمار ويردف خلفه. .**»[3].

وكان ﷺ يقول: «**لو دُعِيتُ إلى ذراع لأجبت، ولو أهدي إلي كِراع لقبلت. .**»[4]. ويقول ﷺ: «**خمس لا أدعهن حتى الممات: الأكل على الحضيض مع العبيد، وركوبي الحمار مؤكفاً، وحلبي العنز بيدي، ولبس الصوف، والتسليم على الصبيان، لتكون سنة من بعدي**»[5].

---

(١) الكافي ج١ ص٣٧.
(٢) البحار ج١٦ ص١٩٩ طبعة مؤسسة الوفاء.
(٣) نهج البلاغة خطبة ١٦٠.
(٤) البحار.
(٥) البحار ج١٦ ص٩٩.

ويقول أبو ذر (رضى): «**كان رسول الله ﷺ يجلس بين ظهراني** أصحابه فيجيء الغريب فلا يدري أيهم هو حتى يسأل، فطلبنا إلى النبي ﷺ أن يجعل مجلساً يعرفه الغريب إذا أتاه، فبنينا له دكاناً من طين، وكان يجلس عليه ونجلس بجانبه».

وقال ﷺ مرة لعائشة لما أهدت إليها امرأة مسكينة هدية فلم تقبلها عائشة رحمةً لها: «**ألا قبلتيها منها وكافيتيها منها!؟ فلا ترى أنك حقرتيها!؟ يا عائشة تواضعي فإن الله يحب المتواضعين ويبغض المستكبرين**»(١).

وفي رواية أن عمر بن الخطاب قال: استأذنت على رسول الله ﷺ فدخلت عليه في مشربة أم إبراهيم، وإنه لمضطجع على خصفة، وإن بعضه على التراب، وتحت رأسه وسادة محشوة ليفاً، فسلمت عليه ثم جلست، فقلت يا رسول الله أنت نبي الله وصفوته وخيرته من خلقه، وكسرى وقيصر على سرر الذهب وفرش الديباج والحرير، فقال رسول الله ﷺ: «**أولئك قوم عُجِّلت طيباتهم وهي وشيكة الانقطاع، وإنما أُخِّرَت لنا طيباتنا**»(٢).

وعن محمد بن مسلم قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يذكر أنه أتى رسول الله ﷺ مَلَكٌ فقال: إن الله تعالى يخيِّرُكَ أن تكون عبداً رسولاً متواضعاً، أو ملِكاً رسولاً قال: فنظر إلى جبرئيل عليه السلام وأومأ بيده أن تواضع: فقال ﷺ: **عبداً متواضعاً رسولاً** فقال الرسول: مع أنه لا ينقصك مما عند ربك شيئاً، قال ومعه مفاتيح خزائن الأرض(٣).

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: **قدم إعرابي على النبي ﷺ** فقال: يا

(١) ميزان الحكمة عن كنز العمال ١٤٤٨٢.
(٢) البحار ج٦٣ ص٣٢٠.
(٣) البحار ج١٦ ص٢٦٦.

رسول الله تسابقني بناقتك هذه؟ قال: فسابقه فسبقه الأعرابي، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إنكم رفعتموها فأحب الله أن يضعها، إن الجبال تطاولت لسفينة نوح وكان الجودي أشد تواضعاً فحطّ الله بها على الجودي**»(١).

وكان صلى الله عليه وآله يأكل على الأرض ويقول صلى الله عليه وآله: «**إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد**»(٢).

فهذه سيرة خير خلق الله، وخاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وآله وقد أمرنا الخالقُ جلّ جلاله بالتأسي به حيث قال عزّ مِن قائل: «**ولكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر**» فهل يبقى لذي عقل وإيمان مناص من إعادة النظر في مكنون ذاته ليرى إلى أي مستوى هو متواضع، وكم هي نسبة التكبر في نفسه، فيغتنم الفرصة لإصلاح نفسه قبل فوات الأوان، فإن عمر الإنسان رأس ماله الذي لا يعوّض، وفرصته التي تخوّله تحصيل الملكات الفاضلة التي يعقبها السعادة الأبدية.

ـ تواضع أمير المؤمنين عليه السلام:

عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام: «**من تواضع في الدنيا لإخوانه فهو عند الله من الصدّيقين، ومن شيعة علي بن أبي طالب عليه السلام حقاً، ولقد ورد على أمير المؤمنين أَخَوَان له مؤمنان، أب وابن، فقام إليهما وأكرمهما وأجلسهما في صدر مجلسه وجلس بين يديهما، ثم أمر بطعام فأُحضِر فأكلا معه، ثم جاء تنبر بطست وإبريق خشب ومنديل ليبس، وجاء ليصب على يد الرجل، فوثب أمير المؤمنين عليه السلام وأخذ الإبريق ليصب على يد الرجل، فتمرغ الرجل في التراب، وقال يا أمير المؤمنين! الله يراني وأنت تصب على يدي؟ قال: اقعد واغسل فإن الله عز وجل**

(١) البحار ج٧٢ ص١٢٣.
(٢) بحار ج٧٠ ص٢٠٥.

يراك وأخوك الذي لا يتميز منك ولا يتفضل عليك يخدمك، يريد بذلك في خدمته في الجنّة مثل عشرة أضعاف عدد أهل الدنيا، وعلى حسب ذلك في مماليكه فيها، فقعد الرجل فقال له علي عليه السلام: أقسمت عليك بعظم حقي الذي عرفته وبجلّته، وتواضعك لله، حتى جازاك عنه بأنه ندبني لما شرفك به من خدمتي لك، لما غسلت مطمئناً كما كنت تغسل لو كان الصاب عليك قنبر، ففعل الرجل ذلك، فلما فرغ ناول الإبريق محمد بن الحنفية وقال: يا بني لو كان هذا الابن حضرني دون أبيه لصببت على يده، ولكن الله عز وجل يأبى أن يسوي بين ابن وأبيه إذا جمعهما مكان، لكن قد صبَّ الأب على الأب، فليصب الابن على الابن، فصب محمد بن الحنفية على الابن. ثم قال الحسن بن علي العسكري عليه السلام: فمن تبع علياً عليه السلام ذلك فهو الشيعي حقاً».

وعن إمامنا الباقر عليه السلام: والله إن كان عليُ ليأكل أكلة العبد، ويجلس جلسة العبد، وإن كان ليشتري القميص فيخيّر غلامَه خيرَهما، ثم يلبس الآخر، فإذا جاز أصابعَه قَطَعه، وإذا جاز كعبَه حذَفَه، ولقد ولي خمس سنين وما وضع آجرة على آجرة، ولا لَبنة على لَبِنة، ولا أورث بيضاء ولا حمراء، وإن كان ليطعم الناس خبز البر واللحم، وينصرف إلى منزله فيأكل خبز الشعير والزيت والخل، ولا ورد عليه أمران كلاهما لله عز وجل فيه رضا إلا أخذ بأشدهما على بدنه، ولقد أعتق ألف مملوك من كد يمينه تربت منه يداه، وعرق فيه وجهه..»[1].

ـ تواضع الأئمة عليهم السلام:

في لئالىء الأخبار أن الإمام الحسن مرّ بمساكين قد بسطوا كساءً لهم فألقوا عليه كسراً فقالوا: هلمّ يابن رسول الله فثنى رجله ونزل وأكل

(١) البحار ج٣٦ ص٣٢٠ ـ ميزان الحكمة باب التواضع.

معهم ثم قال: «قد أجبتكم فأجيبوني، قالوا: نعم، وقاموا معه حتى أتى منزله فقال للرباب: اخرجي ما كنت تدّخرين».

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: **«مرّ علي بن الحسين على المجذومين وهو راكب حماره وهم يتغدّون فدعوه إلى الغذاء فقال: أما أني لولا أني صائم لفعلت، فلما صار إلا منزله أمر بطعام فصنع وأمر أن يتنوقوا فيه، ثم دعاهم فتغدّوا عنده وتغدّى معهم»**[1].

ـ تواضع سلمان المحمدي:

روي أنه لما بعث إلى المدائن أميراً ركب حماره وحده، ولم يصحبه أحد ووصل إلى المدائن خبر قدومه، فاستقبله أصناف الناس على طباقتهم فلما رأوه قالوا له: أيها الشيخ أين خلفت أميرنا؟ قال: ومن أميركم؟ قالوا: الأمير سلمان الفارسي صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: لا أعرف الأمير وأنا سلمان الفارسي، فلست بأمير فترجلوا له وقادوا إليه المراكب والنجائب، فقال: إن حماري هذا خير لي وأرفق وأوفق، فلما دخل البلد أرادوا أن ينزلوه دار الإمارة، فقال: ما لي ولدار الإمارة ولست بأمير فنزل بحانوت في السوق، وقال: ادعوا صاحب الحانوت، فاستأجره منه وجلس هناك يقضي بين الناس، وكان قد مرّ على رجل في أيام إمارته له زنبيل فيه حِمْل، فأمره الرجل بحمل الزنبيل إلى بيته، ولم يكن يعرفه، فحمله سلمان إلى بيته، فعرف في أثناء الطريق أنه سلمان أمير المدينة فاعتذر إليه، وقيل له: لما لا تلبس الثوب الجديد، فقال: إنما أنا عبد فإذا أعتقت يوماً لبست، (أشار به إلى العتق في الآخرة).

---

(١) البحار ج٧٢ ص١٣٠.

ـ تواضع محمد بن مسلم:

كان من أجل أصحاب الإمام الباقر عليه السلام، وكان شريفاً موسراً فقال له الإمام أبو جعفر عليه السلام: تواضع يا محمد! فلما انصرف إلى الكوفة أخذ قوصرة من تمر مع ميزان، وجلس على باب مسجد الجامع وصار ينادي عليه، فأتاه قومه، فقالوا له: فضحتنا، فقال: إن مولاي أمرني بأمر فلن أخالفه، ولن أبرح حتى أفرغ من بيع ما في هذه القوصرة، فقال له قومه: إذا أبيت إلا أن تشتغل ببيع وشراء فاقعد في الطحانين، فهيأ رحى وجملاً وجعل يطحن.

ـ تواضع النجاشي شكراً لله تعالى:

عن إمامنا الصادق عليه السلام: «لما قدم جعفر بن أبي طالب عليه السلام من الحبشة قال لرسول الله صلى الله عليه وآله أحدثك يا رسول الله، دخلت على النجاشي يوماً من الأيام وهو في غير مجلس الملك، وفي غير رياشه، وفي غير زيه، فحييته بتحية الملك، وقلت له: يا أيها الملك ما لي أراك في غير مجلس الملك، وفي غير رياشه، وفي غير زيّه؟ فقال: إنا نجد في الإنجيل: من أنعم عليه بنعمة فليشكر الله، ونجد أن ليس من الشكر لله شيء يعدله مثل التواضع، وأنه ورد عليّ في ليلتي هذه أن ابن عمك محمداً قد أظفره الله بمشركي أهل بدر، أحببت أن أشكر الله بما ترى»[1].

فضل التواضع

تبين لنا فضل التواضع من خلال سيرة الأنبياء عليهم السلام والأولياء، وعدم رضا الله تعالى بالتكبر لأحد من خلقه، ولو كانوا أنبياءه وأولياءه بل كرّه إليهم التكابر، ورضي لهم التواضع، فألصقوا بالأرض خدودهم،

(١) البحار ج٧٢ ص١٢٢.

وعفروا بالتراب وجوههم، وخفضوا أجنحتهم للمؤمنين، وكانوا قوماً مستضعفين..[1].

وسنذكر بعض الآثار والنصوص الشرعية التي تتبين من خلالها الأهمية البالغة للتواضع:

أ ـ المتواضع محبوب الله تعالى ومحبوب رسوله ﷺ:

فعن النبي الأعظم ﷺ: «**ثلاثة يحبها الله سبحانه: القيام بحقه، والتواضع لخلقه، والإحسان لعباده**»[2]. وعنه ﷺ: «**إن أحبكم إليّ وأقربكم مني يوم القيامة مجلساً أحسنكم خلقاً وأشدكم تواضعاً**»[3].

ب ـ التواضع رأس العلم:

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**رأس العلم التواضع**» فإذا ذهب التواضع ذهب رأس العلم، وإذا ذهب رأس العلم ذهب العلم لأن في الرأس القوام، وإذا ذهب العلم حلّ الجهل، فغير المتواضع جاهل وإن كان ظاهره العلم، والمقصود بالعلم هنا العلم الحقيقي، وإلا فقد يكون البعض حاملاً لبعض الاصطلاحات مما يخيّل للسطحيين أنه عالم، ويكون في اصطلاح الشرع المبين وأهل البيت عليهم السلام وبحسب توصيفهم لنا العالم هو ليس بعالم بل هو جاهل أحمق وإن عد نفسه عالماً: «**يا أحمد إن عيب أهل الدنيا كثير، فيهم الجهل والحمق، لا يتواضعون لمن يتعلمون منه، وهم عند أنفسهم عقلاء، وعند العارفين حمقاء**»[4].

---

(١) نهج البلاغة الخطبة القاصعة.
(٢) ميزان الحكمة/ بـ حب الله/ ص٥٠٦.
(٣) البحار ج٦٨ ص٣٨٥.
(٤) البحار ج٧٤ ص٢٤.

ت ـ لا زهد إلا مع التواضع:

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «... **لا يكون زاهداً حتى يكون متواضعاً**»[1].

ويستفاد من ذلك أمران:

أولاً: إن التواضع هو في طريق الزهد، لا يصل العبد إلى مرتبة الزهد في الدنيا ما لم يقطع تلك المحطّة، ويطوي ذلك المنزل، وعليه فمن كان يتكبر على عباد الله وهو يدعي الزهد في متاع الدنيا فهو كاذب، فإنه طالب للدنيا وليس بزاهد فيها وإلاّ لَتَواضَع (**لا يكون المرء زاهداً حتى يكون متواضعاً**) وقد صرح الحديث السابق بأن الذين لا يتواضعون هم من أهل الدنيا.

ثانياً: إن الزاهد لا يحتاج إلى التكبر، وإنما يحتاجه الراغب في الدنيا لكي يحصّل الرفعة والجاه، بينما الزاهد فالمفروض أنه لا يريد علواً في الأرض ولا فساداً «**تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين**» فعن أمير المؤمنين في هذه الآية: «**إن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها**»[2].

ث ـ الحكمة لا تعمر إلا في قلب متواضع:

عن إمامنا الكاظم عليه السلام: «**إن الزرع ينبت في السهل ولا ينبت في الصفا، فكذلك الحكمة تعمر في قلب المتواضع ولا تعمر في قلب المتكبر الجبّار، لأن الله جعل التواضع آلة العقل، وجعل التكبر من آلة الجهل**»[3].

---

(١) ميزان الحكمة بـ الزهد (صفات الزاهد) عن البحار.

(٢) ميزان الحكمة ج١ ب الآخرة عن كتاب سعد السعود ص٨٨.

(٣) بحار الأنوار ج١ ص١٥٣.

ويستفاد من هذه الرواية الشريفة أن العبد إن لم يكن متذللاً لله، ومتواضعاً لعباد الله المؤمنين، سوف لا يكون قلبه مؤهلاً لنبات الحكمة وعمارها فيه، وبالتالي فسوف لا يكون ذا حكمة في فعله ولا في منطقه، فمواقفه سوف لا تكون حكيمة، وما يتخيله إرشاداً وحكمة ونصيحة للغير سوف لا يكون كذلك، وقد فقد بتكبره الخير الكثير لأنه من يؤتى الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً، فليُحذَر من تسويلات المتكبر، وتمحلاته، وتبريراته.

ج ـ التواضع يجلب المحبّة:

عن إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام: «**ثمرة التواضع المحبّة، ثمرة الكبر المسبة**»[1].

إني أرى كثيراً من الذين لا يأبهون للغة القلوب، ولا يعيرون كثير أهمية لمشاعر الخلق، وأحاسيس العباد، يستعملون معادلات معينة لانصياع الناس لهم، وجعلهم تابعين إليهم، فيتوسلون بأسلوب الترفع تارة، وإظهار امتيازهم بخصائص عن غيرهم تارة أخرى، وبطرق إقناعية لا يذعن لها القلب، ولا يستسيغها الذوق السليم ثالثة، مما يجعل الطرف الآخر لا يشعر بقيمته الإنسانية بإزاء ترفعهم عليه، فينفر قلبه ولو انصاع ظاهراً، ويقوده تنفره إلى المسبّة وانتفاء المحبّة.

بخلاف من ينتهج سبيل التواضع فإنه يُشعِرُ الآخرين بما لديهم من قيمة وقابلية، ولا يرون منه ترفعاً عليهم، فيميل إليه القلب ويحبه، فثمرة التواضع ستكون المحبة، وورد في الرواية أن من الأمور التي تجلب المحبة «**أن تكون واعظاً كموعوظ**».

---

(١) غرر الحكم (٤٦١٣ ـ ٤٦١٤).

ح ـ بالتواضع تنتظم الأمور:

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**بخفض الجناح تنتظم الأمور**»[1].

أقول: إن من أبرز أسباب التشتت والخيبة والفشل، هو عدم النظم والتفرق والتنازع، ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾ ومن أهم دواعي عدم انتظام الأمور التعالي من البعض على البعض الآخر، ونظر كل امرىء إلى أنانيته، وكون همه إثبات الذات، وإظهار الترفع والامتياز عن الغير، فهذا سينتج تبني كل فرد لرأي والدفاع عنه، وقد يصل الأمر بالبعض لأجل الترفع إلى أنه يذعن بعدم صوابية رأيه ومع ذلك يصرّ على الذبّ عنه، فإن الاعتراف بالخطأ يحتاج إلى مقدار من التواضع، وخفض الجناح، وهل سيبقى للتواضع حيّز مع سيطرة التعالي وحب إثبات الذات؟!

وعندها ستكون النتيجة تعدد الآراء بشكله السلبي، وسيسود الهرج والمرج ولا يبقى انتظام ـ وإنما عبّرتُ بـ (السلبي) لأنه لم يكن الهدف الوصول إلى الصواب والحق والمصلحة، بل تمحور الهدف حول الذات ـ.

هذا بخلاف ما لو تحلّى الأفراد بخفض الجناح والتواضع، فإن التواضع سيدفعهم نحو الإنصاف وقول الحق ولو على أنفسهم، واعترافهم بالخطأ إن كانوا مخطئين.

فعندما سئل الإمام الرضا عليه السلام عن حد التواضع قال: «**أن تعطي الناس من نفسك ما تحب أن يعطوك مثله**»[2] فالمتواضع لا يرى لنفسه امتيازاً عن غيره بل ينصف الناس من نفسه، بل قد تصل به الحال إلى أن يدع الجدل ويصمت وإن كان محقاً، فيما لو أحس بعدم الجدوى من

---

(١) ميزان الحكمة ب التواضع عن غرر الحكم.

(٢) ميزان الحكمة باب التواضع عن عيون أخبار الرضا عليه السلام.

النقاش، وعدم الوصول إلى نتيجة متوخاة. ولا يتعزز متشبثاً برأيه همه الانتصار على خصمه، فعن الإمام الصادق عليه السلام: «**إن من التواضع.. أن يترك المراء وإن كان محقاً**». نعم بهذه الروحية تسودُ الإلفة ويذهب التشتت، وتنتظم الأمور، لا بالتعالي والتفاخر، والإصرار على إثبات الذات، فيا حبذا لو يروّي الإنسان الاجتماعي قلبه من معين أمير المؤمنين عليه السلام الذي يقول: «**بخفض الجناح تنتظم الأمور**».

خ ـ التواضع من صفات الشيعة الحقيقيين:

عن الإمام الباقر عليه السلام: «**ما شيعتنا إلا من اتقى الله وأطاعه، وما كانوا يعرفون إلّا بالتواضع والتخشع...**»[1].

د ـ التواضع حلاوة العبادة:

عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «**مالي لا أرى عليكم حلاوة العبادة؟ قالوا: وما حلاوة العبادة؟ قال: التواضع**»[2].

● شبهة استلزام التكبر للمهابة والتواضع للاستخفاف:

إن ما يدعو جملةً من الناس للترفع بتعاطي مظاهر التكبر، حب تحصيل المهابة في أعين الناس، باعتقاد أن التكبر يرفع من قدرهم، وأن التواضع يجرىء الآخرين عليهم، وينزل من مستوى مهابتهم، ويحط من منزلتهم.

فحرصاً على الجاه، والترفع، والهيبة، لا بد أن يظهر المرء نفسه بمظهر الرفعة كي ترفعه الناس ولا يتلبس بلباس التواضع كي لا يظهر وضيعاً في أعينهم، ومن هنا يبرز السلوك الترفعي في مصاديق متكثرة في

(١) البحار ج ٧٥، ص ١٧٥.
(٢) ميزان الحكمة باب التواضع.

المجتمع، أهمها المقتنيات وكمالياتها، والسلوكيات الظاهرة كطريقة المشي والجلوس والأكل.. إلى ما هنالك...

وفي الحقيقة هذه الاعتقادات سطحية دنيوية ينبغي لطالب الآخرة أن يقطع علائقها عن قلبه في أول طريق سلوكه. وإنا لنأسف أن نجد بعض المحسوبين على التدين يدين بهذا النمط من التكفير ويمارسه في الخارج سلوكاً[1].

وبتصوري هذا ناشيء عن عدم الالتفات إلى نقطة مهمة وهي: إمكان الجمع بين التواضع والوقار.. بين التواضع والمهابة، ولا تنافي بينهما (كما قد يتوهم البعض) بل الأصل **(أن التواضع يكسوك المهابة)** كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام. والذي يجعل الشخصية تتسم بالخفة أمورٌ أخرى لا علاقة لها بالتواضع، ينبغي لمن أراد الوقار أن يتجنبها حتى وإن كان متكبراً وإلاّ فسوف لا يوقَّر، فمثلاً: إن من يتكلم كثيراً بما لا يعنيه فإنه لا يوقَّر، بخلاف الذي يصمت إلا عن الحكمة، ولا يتكلم إلا بما فيه فائدة ومنفعة في دينه ودنياه فعن أمير المؤمنين عليه السلام:

- **لا وقار كالصمت**[2]
- **بالصمت يكثر الوقار**[3]
- **الصمت يكسيك الوقار ويكفيك مؤنة الاعتذار**[4]

ثانياً: اجتناب كثرة المزاح: ففي الرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام: **«من كثر مزاحه لم يخل من حقد عليه أو استخفاف به»**[5].

---

(١) تحف العقول ص ٩٨.
(٢) عيون الحكم والمواعظ ص ٥٣٢.
(٣) ميزان الحكمة عن غرر الحكم (٤١٨٢).
(٤) المصدر ١٨٢٧.
(٥) شرح مائة كلمة لأمير المؤمنين عليه السلام ص ١٥٩، نشر جماعة المدرسين.

وعن الصادق عليه السلام: «إياكم والمزاح فإنه يذهب بماء الوجه ومهابة الرجل».

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «من مزح استخف به» ـ وأوصى أحد الحكام ابنه: «لا تمازح الشريف فيحقد عليك ولا الدني فيجترىء عليك»[1].

ثالثاً: اجتناب كثرة الضحك: ففي الرواية: «كثرة ضحك الرجل تفسد وقاره».

رابعاً: اجتناب الجدال والمراء: والمقصود كثرته، أو الذي لا يؤدي إلى نتيجة منه فقد ورد أنه «من مارى الرجال ذهب بهاؤه».

وهناك أمور أخرى أيضاً قد ورد النهي عنها لأنها تذهب الوقار والبهاء كالمشي السريع فإنه ورد النهي الكراهتي عنه معللاً بأنه يذهب ببهاء المؤمن.

وقد ورد في النصوص الشرعية وإرشادات المعصومين[2] الحث على الأمور التي تضفي الوقار على المؤمن نذكر منها:

ـ الحلم: فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «كفى بالحلم وقاراً»[3] «إحلم توقّر»[4] «سبب الوقار الحلم»[5].

وهذا يرشدنا بالطبع إلى أن الأخرق صاحب ردّات الفعل السريعة سوف لا يوقّر وإن علا صياحُه، وصخب صوته، بل الحلم وكظم الغيظ

(١) المصدر.
(٢) (٣) (٤) غرر الحكم.
(٥) غرر الحكم.

هو الذي يجلب الوقار.

ـ **صلاة الليل**: فعن إمامنا الصادق عليه السلام عندما سئل: ما بال المتهجدين من أحسن الناس وجهاً؟ قال عليه السلام: «**لأنهم خلوا بالله سبحانه فكساهم من نوره**»(١).

وعن الرسول صلى الله عليه وآله: «**من صلى بالليل حسن وجهه بالنهار**»(٢).

وعن الصادق عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ قال عليه السلام: «**هو السهر في الصلاة**» عليه السلام(٣).

ـ **الصدق**: فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**يكتسب الصادق بصدقه ثلاثاً: حسن الثقة به، والمحبة له، والمهابة منه**»(٤).

وبالمقابل فإن الكذب يوجب استهانة الناس بصاحبه، يقول عليه السلام: «**يكسب الكاذب بكذبه ثلاثاً: سخط الله عليه، واستهانة الناس به، ومقت الملائكة له**».

ـ **الحكمة**: يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**من عرف بالحكمة لحظته العيون بالوقار والهيبة**»(٥).

يذكر المحدث الجزائري أنه عندما كان في خدمة العلامة المجلسي يستقي من فيض علومه، كان يبدي العلامة المجلسي له محبة ويطلب منه البقاء معه، وكان يمازحه ويلاطفه، ومع كثرة مجالسته له يقول كانت له

(١) أمالي الشيخ الطوسي ص ٦٨٢، وعدة الداعي ١٩٣.
(٢) روضة الواعظين ص ٣٢١.
(٣) المصدر.
(٤) عيون الحكم والمواعظ ص ٥٥٠.
(٥) تحف العقول ص ٩٧.

هيبة في قلبي بحيث أني كنت قبل الدخول عليه أقف هنيئة خلف الباب ملتقطاً أنفاسي.

ـ **التقوى: «من أراد هيبة بلا سلطان فلينتقل من ذل معصية الله إلى عز طاعته»**[1].

ـ **مخافة الله**: فقد ورد أنه «**من خاف الله أخاف الله منه كل شيء ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء**».

فمن أراد المهابة والوقار إذن عليه أن يدقق في الأمور التي ذكرناها من دواعي المهابة والوقار فيتمثلها في نفسه صفاتٍ راسخة، ويدع ما ذكرنا من موجبات الخفّة وعدم الوقار، ولا يستخفنّه الشيطان فيخيل إليه أن الكبر هو وسيلة المهابة فإن ذلك ديدن الجبابرة.

وإنا لنجد الكمّل من الخلق كانوا أشد الناس تواضعاً وأعظم الناس مهابة في القلوب، فهذا رسول الله ﷺ (وقد نقلنا شذرات من تواضعه ﷺ) نقرأ في التاريخ أن امرأة وقفت بين يديه فارتعدت هيبة له فقال ﷺ: «هوني عليكِ فإني ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة» فجمع بين الهيبة والتواضع.

وذاك أمير المؤمنين عليه السلام كان يمشي حافياً في خمسة مواضع، ويعلق نعله بيده اليسرى: يوم الفطر، ويوم النحر، ويوم الجمعة، وعند العيادة، وعند تشييع الجنازة ويقول: «**إنها مواضع لله وأحب أن أكون فيها حافياً**»[2]. وقد ذكرنا آنفاً نبذاً من تواضعه عليه السلام، ومع ذلك كله انظر إليه في مهابته كيف يصفه لنا شيعته الخلّص ففي شرح النهج: قال صعصعه بن صوحان وغيره من شيعته وأصحابه: «**كان فينا كأحدنا لينُ**

(١) تحف العقول ص ١٦٩.
(٢) البحار ج ٤١ ص ٥٤.

جانب، وشدَّةُ تواضع، وسهولةُ قياد، وكنّا نهابُه مَهَابة الأسير المربوط للسيّاف الواقف على رأسه»[1].

أقول ما هذه الصورة المهيبة التي يرسمها صعصعه (رضوان الله عليه)، أرأيت أسيراً مربوطاً مقيداً قد حُكِمَ عليه بالموت، والذي سيضربه بالسيف منفذاً فيه حكم الإعدام واقف فوق رأسه، فكيف تتصور مهابة ذلك الأسير لحامل سيف منيته!! هكذا كانت مهابة أصحاب علي عليه السلام له مع شدة تواضعه.

وقال معاوية لقيس بن سعد: رحم الله أبا حسن فلقد كان هشاً بشاً ذا فكاهة، قال قيس: نعم كان رسول الله صلى الله عليه وآله يمزح ويبتسم إلى أصحابه، وأراك تسرحسوا في ارتغاء وتعيبه بذلك: أما والله لقد كان مع تلك الفكاهة والطلاقة **أهيب من ذي لبدتين قد مسه الطوى** (أي أهيب من الأسد الجائع) تلك هيبة التقوى ليس كما يهابك طغام أهل الشام»[2].

وقال ضرار بن ضمرة في وصف أمير المؤمنين عليه السلام حينما طلب من معاوية ذلك: «.. كان والله بعيد المدى شديد القوى يقول فصلاً ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من لسانه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويأنس بالليل ووحشته، وكان غزير الدمعة، طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما خشن، ومن الطعام ما جشب، **وكان فينا كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه ويأتينا إذا دعوناه، ونحن والله مع قربنا منه، وقربه منا، لا نكاد نكلمه هيبة له..**»[3] نعم هذا هو الكمال أن يجمع المرء بين المهابة والتواضع، لا أن يتوسل بالأساليب غير الأخلاقية كي يثبت الهيبة لنفسه، فالهيبة المطلوبة هي هيبة التقوى لا هيبة الجبابرة

(١) كتاب الأربعين محمد طاهر القمي الشيرازي ص ٤٢٠.
(٢) الإمام علي عليه السلام لأحمد الرحماني الهمداني ص ٥٥٥.
(٣) خصائص الأئمة، الشريف الرضي، ص ٧١ ـ شرح نهج البلاغة: ج ١٨، ص ٢٢٥.

والطواغيت. «**من أراد هيبة بلا سلطان فلينتقل من ذل معصية الله إلى عز طاعته**» وهذا الذي أراده قيس ابن سعد عندما رد على معاوية بقوله: «**تلك هيبة التقوى..**».

ونشير هنا إلى أن الذي يتوسل إلى الوقار بتلك الأساليب غير اللائقة بشخصية المؤمن الأخلاقية من كلمة خشنة وموقف قاس.. الخ قد يتسبب بأذية مؤمن أو تحقيره فيقع في المهلكة.. وعلى أقل تقدير يعرِّض نفسه للحكم الشرعي بوجوب الاعتذار منه لأنه «من كسر مؤمناً فعليه جبره».

«والمؤمن لا يسيء ولا يعتذر، والمنافق كل يوم يسيء وكل يوم يعتذر» كما ورد في الرواية... وأيضاً أنه سيُهاب مخافة لسانه لا أكثر وقد ورد في الحديث: «ألا إن شرار أمتي الذين يكرمون مخافة شرهم، إلا ومن أكرمه الناس اتقاء شره فليس مني» [تحف العقول: ص ٥٨].

وفي وصية النبيﷺ لعليعليه السلام: «**يا علي من خاف الناس لسانه فهو من أهل النار، يا علي شر الناس من أكرمه الناس اتقاء شره وأذى فحشه**» [**مصباح الفقاهة: ج ١ ص ٤٥٩**].

وعليه فهذا سوف يكون عصياناً وليس وقاراً إلهياً، والمطلوب للمؤمن أن يحصل الهيبة المنبعثة عن الإيمان والتقوى والخشية من الله: «**من خاف الله أخاف الله منه كل شيء**»[1].

وبحسب تصوري إن الذي يشعر من نفسه الحاجة إلى التكبر على غيره ولو بدرجةٍ ما، كي ينال مهابة وجاهاً ورفعة فيما تراه الأعين الظاهرية يمتلك ضعفاً في الجانب الإيماني ويفتقد الطمأنينة والسكينة والاتزان في أعماق النفس التي تخوّل المرء أن يكون وقوراً في الخارج،

(١) الكافي ج ٢ ص ٦٨.

وعندما يفقد الوقار، لا يزول شعوره بضرورته، فيلجأ لأجل تحقيقه إلى السلوك الترفعي، وإلا فالإنسان الكامل ينبجس الوقار من أعماق ذاته التي تفيض بالحقائق، فَيَمّم وجهك شطر ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله الإمام الحسن عليه السلام وهو يمشي في طريق الحج والنجائب تقاد بين يديه، وورد أنه ربما مشى حافياً من شدة تواضعه، ومع ذلك كان كل من رءاه نزل حتى سعد بن أبي وقاص[1].

وكانت هيبته عليه السلام بحيث إذا جلس على باب داره انقطع الطريق، فما مرّ أحد إجلالاً له، فإذا علم قام ودخل بيته فمرّ الناس[2].

وانظر إلى هيبة إمامنا زين العابدين عليه السلام مع شدة تواضعه، فإنه كان يصل إلى ما لا يصل إليه هشام بن عبد الملك مع سلطانه وتجبره وترفعه عن الناس، فإن الإمام كان يطوف فإذا بلغ إلى موضع الحجر تنحّى الناس حتى يستلمه هيبة له، ولكن هشام لم يقدر على الاستلام من كثرة الزحام، يقول الفرزدق في وصفه في هذه الحادثة:

يُغْضِي حياءً ويُغضَى من مهابته فما يكلم إلا حين يبتسم

وفي أمالي الصدوق: كان في المدينة رجل بطّال يضحك الناس منه فقال: قد أعياني هذا الرجل (يعني علي بن الحسين عليه السلام قال: فمرّ عليٌّ وخلفه مولیان له فجاء الرجل حتى انتزع رداءه من رقبته ثم مضى، فلم يلتفت إليه عليٌّ، فاتبعوه وأخذوا الرداء منه فجاؤوا به فطرحوه عليه، وفي رواية (وهو مخبت لا يرفع طرفه من الأرض) فقال لمولييه: من هذا؟ فقالوا له: هذا رجل بطّال يضحك أهل المدينة، فقال: قولوا له: إن الله يوماً يخسر فيه المبطلون.

(١) مستدرك سفينة البحار ج ١٠، ص ٩٣.

(٢) المناقب ج ٤ ص ٧.

وأما إمامنا الصادق عليه السلام مع عظم تواضعه فإن مهابته كانت تهيمن على قلب المؤالف والمخالف، فهذا هشام بن الحكم من أجلّ أصحابه عليه السلام لم ينطلق لسانه، ولم يقدر أن يتكلم بكلمة عند الصادق عليه السلام من الهيبة له[1] وذاك ابن أبي العوجاء يقول له عليه السلام: «**ما ينطق لساني بين يديك، فإني شاهدت العلماء، وناظرت المتكلمين، فما تداخلني هيبة قط مثل ما تداخلني من هيبتك**»[2].

وهذا أبو حنيفة يقول: «**دخلت على المنصور وجعفر** عليه السلام جالس عن يمينه، فلما بصرت به، دخلني من الهيبة لجعفر ما لم يدخلني لأبي جعفر المنصور، فسلمت عليه فأومأ إلي فجلست الخ»[3].

فخلاصة هذا هو ديدن الأولياء والصالحين فإن الله تعالى: «**كرّه إليهم التكابر، ورضي لهم التواضع، فألصقوا بالأرض خدودهم، وعفروا في التراب وجوههم وخفضوا أجنحتهم للمؤمنين، وكانوا أقواماً مستضعفين...**»[4].

ومع ذلك كله كان لهم وقار، وكانت لهم مهابة في النفوس، يرتعد المرء أمامها وتخفق منها القلوب، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «... **ولكن الله سبحانه جعل رسلَه أولي قوّة في عزائمهم، وضعفة فيما ترى الأعين من حالاتهم...**».

فينبغي لمن أراد المهابة والوقار تهذيب النفس وحملها وتطبيعها على موجبات الوقار والأمور التي تجلب المهابة، والامتناع والارتداع عما يستلزم خفة الشخصية وتهتيرها.. من كثرة مزاح وضحك.. وكثرة

(١) مستدرك الوسائل ج ١ ص ٥٧٤.
(٢) المصدر.
(٣) المصدر.
(٤) من خطبة القاصعة للإمام علي عليه السلام.

كلام وفضول.. إلى غيره مما ذكرنا، فإنه إن فعل ذلك كان موقَّراً محترماً مُهَاباً وإن كان أكثرَ الناس تواضعاً، ومن لم يفعل فإنه سوف لا يوقَّر، ولا يُهاب، وإن كان من المتكبرين، نعم قد يتملق له الناس لأجل منفعة، أو خوفاً من سطوة، ولكن إذا رجعت إلى قلوب العقلاء من العباد فإنك ستجد تسفيهاً لحلمه، وامتعاضاً منه، واستخفافاً بشخصه.

وبما أن الحصول على شخصية متزنة قد هُذِّبَت وشُذِّبَت من أسباب الخفّة صعبٌ لأنه يستدعي مجاهدة شديدةً، وجزماً مع النفس، وردعاً لها عن الهوى، فإن الكثير يلجأ لفرض سطوته وهيبته إلى أسلوب النهر واستخدام الكلمة الجافية الفظّة تارة، والمظاهر الموهِمَة للمقام والرفعة أخرى. كما ذكرنا، فيدخل في التكبر والفظاظة وسوء الخلق، وللأسف دون أن يحصل على ما أراده من المقام في قلوب الناس بل غالباً ما يفقد احترامه بالكليّة من النفوس فعن رسول الله ﷺ: «... **ومن تكبَّر وضعه الله، فهو في أعين الناس صغير وفي نفسه كبير...**»[1].

ـ التواضع لا يزيد صاحبه إلا رفعة:

نعم قد يتعرض المتواضع للاستخفاف لدى أصحاب الأنظار السطحية، الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا فحسب، ولكن هذه النظرة غالباً تكون بدوية سرعان ما تتبدد بعد معرفة الشخصية المتواضعة أنها ثقيلة ووقورة، وتواضعها ليس عن ضعف، بل عن معرفةٍ للقيم وإدراكٍ للحقائق، وهذا مطلب أثبته الشريعة بكل وضوح:

فعن رسول الله ﷺ: «**إن التواضع يزيد صاحبه رفعة، فتواضعوا يرفعكم الله**»[2].

---

(١) ميزان الحكمة باب التواضع عن كنز العمال ٥٧٣٧.

(٢) المصدر عن الكافي ج ٢ ص ١٢١.

وعنه ﷺ: «من تواضع لله رفعه الله، فهو في نفسه ضعيف وفي أعين الناس عظيم، ومن تكبر وضعه الله، فهو في أعين الناس صغير وفي نفسه كبير، حتى لهو أهون عليهم من كلب أو خنزير»[1].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «ما من أحد من ولد آدم إلا وناصيته بيد مَلَك، فإن تكبّر جَذَبه بناصيته إلى الأرض، وقال له: تواضع وضعَكَ الله! وإن تواضع جذبه بناصيته ثم قال له: ارفع رأسك رفعك الله، ولا وضعك بتواضعك الله»[2].

وعن إمامنا الكاظم عليه السلام: «إن الله لم يرفع المتواضعين بقدر تواضعهم، ولكن رفعهم بقدر عظمته ومجده»[3].

وعن رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يزيد الله بهن إلا خيراً: التواضع لا يزيد الله به إلا ارتفاعاً، وذل النفس لا يزيد الله به لا عزاً، والتعفّف لا يزيد الله به إلا غنى»[4].

فلاحظ لسان الروايات كيف هو لسان البتّ والقطع بأن التواضع يزيد صاحبه عزاً، فإذا صدَّقْتَ بذلك فاطرد عن نفسك ما قد يعتريها من أوهام يكون مصدرها الشيطان تُصَوّر لك التكبر سبباً للعز والرفعة.

علامات التواضع

التواضع ككل مفهوم أخلاقي حسن بالضرورة، قد تسالم الناس على حمده ومدحه.. الجميع يحب نسبته إلى نفسه، ويكره نسبة ضده إليه.. فمن لا يحب أن يوصف بالتواضع ومن لا يكره أن ينعت بأنه متكبر؟!.

---

(١) ميزان الحكمة باب التواضع عن كنز العمال ٥٧٣٧.
(٢) وسائل ج ١٥، ص ٣٧٧.
(٣) بحار الأنوار ج ١ ص ١٥٥.
(٤) البحار ج ٧٢، ص ١٢٤.

ولكن الكثير ممن يجعلون أنفسهم في عداد المتواضعين، إذا خضعوا لاختبارات التواضع، وضوابطه، ووقفوا أمام المحك فيه، سيصنّفون في خانة أخرى غير خانته.

ولأجل أهمية هذا المطلب، ولكي لا يخدع الإنسان نفسه، ولا ينخدع به غيرُه، ذكر معلموا الإنسانية المعصومون عليهم السلام، علامات يتميز من خلالها المتواضع من المتكبر، فلننصف أنفسنا، ولنعرضها على هذه الضوابط والعلامات، فلربما اكتشفنا أن فينا شيئاً من الكبر ونحن لا نشعر، فعندها نعمد إلى تطهير قلوبنا منه، فليس الأمر بالسهل، فقد ورد في الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه: «**لا يدخل الجنّة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»[1]. فقد يكون هنالك جنة قد أعدها الله تعالى للمتواضعين محضّ التواضع، ولا يدخلها من شيبت نفسه ولو بذرّة من الكبر».

وها هي عمدة علامات التواضع التي ذكرت في الروايات:

ـ سئل الإمام الرضا عليه السلام عن حدّ التواضع فقال: «**أن تعطي الناس من نفسك ما تحب أن يعطوك مثله**»[2].

أقول فالذي يتوقع النفع والتبجيل دائماً من الآخرين دون أن يرى لهم حق الانتفاع منه، فإنه نال حظاً من الكبر، كالذي ينتظر الطرف الآخر أن يسلِّم عليه مثلاً، وإن لم يفعل لا يبادره بل يجد أنه نقص من حقه. أو كالذي يترقب من الآخرين أن يزوروه دون أن يفكر بزيارتهم، وأن يمدحوه ويطروا عليه دون أن يخطر مرة في باله ذكر خصلة حسنة فيهم.. إلى ما هنالك.. فهذا لم يعطِ الناس من نفسه ما يحب أن يعطوه مثله.

(١) البحار ج ٧٠، ص ١٩٤ ـ الكافي ج ٢، ص ٣١٠.

(٢) الوسائل ج ١٥، ص ٢٧٤ ـ البحار ج ٦٨، ص ١٣٥.

ونرى أن الإسلام قد أكّد على خلاف ذلك، فجعل سبعين حسنة على السلام، تسعة وستون للبادىء به، ووضع حسنة واحدة لراد السلام، وليس ذلك إلا تربية للمؤمن على خلق التواضع.. وعن أمير المؤمنين كما سيأتي: «**ثلاث هن رأس التواضع: أن يبدأ بالسلام على من لقيه... الحديث**»(١).

وإمامنا الحسين عليه السلام بعد أن لبّى دعوة المساكين قال أما إني قد أجبتكم فأجيبوني ودعاهم إلى منزله، فالتواضع «**أن تعطي الناس من نفسك ما تحب أن يعطوك مثله**» وفي رواية أخرى ستأتي «**لا يحب أن يأتي إلى أحد إلا مثل أن يؤتى إليه**» فالمتواضع أقرب شيء إلى الإنصاف، بخلاف المتكبر فأقرب ما يكون إلى الظلم والتجاوز على حقوق الغير، فإنه (أي المتواضع) يعترف للآخرين بحقهم إذا كان لهم الحق، كما يجب أن يعترف الآخرون له بحقه، دون أن ينظر إلى صاحب الحق صغيراً أم كبيراً.. شريفاً أو وضيعاً.. قوياً أم ضعيفاً.. قريباً أو بعيداً..

وفي رواية أخرى سأل فيها ابن الجهم الإمام الرضا عليه السلام: ما حدّ التواضع الذي إذا فعله العبد كان متواضعاً؟ قال عليه السلام: «**التواضع درجات: منها أن يعرف المرء قدر نفسه فينزلها منزلتها بقلب سليم، لا يحب أن يأتي إلى أحد إلا مثل أن يؤتى إليه، إن رأى سيئة درأها بالحسنة، كاظم الغيظ، عافٍ عن الناس، والله يحب المحسنين**»(٢).

فالمتواضع كاظم للغيظ لأنه عرف خالقه وعظمه، وعرف نفسه وذلّلها لربها، فضعف فيها حب الانتقام والانتصار للنفس، فذهب التشفي والغضب، وحلّ ملجها كظم الغيظ، والعفو عن الناس، والله

(١) ميزان الحكمة باب التواضع.
(٢) الكافي ج ٢ ص ١٢٤.

يحب المحسنين، فكظم الغيظ والعفو عن الناس علامتان على التواضع، فمن يُطْلَب منه كظم غيظه فيزداد حنقاً وغضباً، ومن يطلب منه العفو فيزداد حباً للتشفي والانتقام، ويصرّ ويتعنت دون مبرر موضوعي فقد ناله ضربٌ من الكبر.

- وعن النبي الأعظمﷺ: «**الأكل مع الخدام من التواضع، فمن أكل معهم اشتاقت إليه الجنة**»(١).

- وفي الرواية عنه أيضاًﷺ: «**من التواضع أن يشرب الرجل من سؤر أخيه المؤمن**»(٢).

- وعن أمير المؤمنينعليه السلام: «**ثلاث هن رأس التواضع: أن يبدأ بالسلام من لقيه، ويرضى بالدون من شرف المجلس، ويكره الرياء والسمعة**»(٣).

- وعن الإمام الصادقعليه السلام عن آبائهعليهم السلام: «**إن من التواضع أن يرضى الرجل بالمجلس دون المجلس، وأن يسلم على من يلقى وأن يترك المراء وإن كان محقاً، ولا يحب أن يحمد على التقوى**»(٤).

- وعنه أيضاًعليه السلام: «**التواضع أن ترضى من المجلس بدون شرفك، وأن تسلّم على من التقيت، وأن تترك المراء وإن كنت محقاً، ورأس الخير التواضع**»(٥).

أقول: هذه ثلاث علامات يختبر المرء بها نفسه هل هو متواضع

(١) البحار ج ٩٥، ص ٢٩١.
(٢) البحار ج ٩٥، ص ٢٩٢.
(٣) ميزان الحكمة باب التواضع.
(٤) البحار ج ٧٢، ص ١١٨ - ١١٩.
(٥) البحار ج ٧٢، ص ١٢٥.

أم لا: أن ترضى من المجلس بدون شرفك، وفي رواية أن ترضى بدون شرف المجلس، وكان رسول الله ﷺ يجلس حيث ينتهي به المجلس، فينبغي للمؤمن أن لا يكون حريصاً على صدارة المجلس، بخلاف ما ربما نجده في واقعنا المعاش، فإن الشخص قد يتخطى الرقاب ليصل إلى الصدر، ويدس نفسه فيه، مع أنه ربما يكون قد ضاق بأهله، وسبقه غيره إليه، فيؤذي الجالسين لتضييق المجلس عليهم، أو حرج البعض فيضطّر أن يفرغ له مكانه خجلاً، وكل ذلك حفاظاً على الاعتبار والقيمة الاجتماعية بحسب اعتقاده، فهذا في الواقع مخالف في بعض صوره لما أدّبنا به الإسلام.

والعلامة الأخرى المذكورة في الرواية: «**أن تسلّم على من لاقيت**» دون أن تنتظر الآخرين أن يبتدروك بالسلام، فهذا يكسر في النفس تعززها وحب تميزها عن الآخرين.

ثم ذكر الإمام عليه السلام علامة ثالثة وهي: «**أن تترك المراء وإن كنت محقاً**» وهذا اختبار شاق قلَّ من يوفق لاجتيازه بسلام، لأن في المراء داعي الغلبة وإظهار النفس، وتكبيت الخصم، وهذه من الصفات السبعية التي إذا هاجت صعبت السيطرة عليها فترك المراء (الجدال) مع كونه يعتقد بأنه محق هو من أجلى إمارات التواضع.

ـ ومن علامات التواضع التي وردت في الرواية أيضاً: «**ويكره الرياء والسمعة**» فإن محب الرياء والسمعة يبتغي في الغالب الاستطالة، فيعمل ليراه الناس، وليذيع صيته بينهم ليرتفع ويتميز، بينما المتواضع يعرف بأن الرفعة هي أصالة لله، وتكون للخلق من الله سبحانه وتعالى: «**إلهي إن وضعتني فمن ذا الذي يرفعني، وإن رفعتني فمن ذا الذي يضعني**» فيخلص ويسلّم لله، ويتواضع للخلق، وورد في الرواية أن المتواضع «**لا يحب أن يُحْمَد على التقوى**» وهذه علامة الإخلاص لله تعالى في العمل، فإن المتواضع المخلص يرى كماله من الله تعالى،

فالحمد الحقيقي لمعطي الكمال حقيقة. أقول: فلنعرض أنفسنا على هذه الخصال والعلامات، فإن وجدت فينا من دون تصنع وتكلف فنحن متواضعون ولله الحمد ولنشكر الله تعالى على هذه النعمة التي هي رأس الخير، ورأس العلم، وإن افتقدنا بعضها ففي قلوبنا مقدار من الكبر، وإن افتقدناها كلها (معاذ الله) فنحن في المهلكة من حيث لا نشعر، وإن كنا في جملةٍ من ظوارهنا نُنْسَب إلى التديّن.

فَنُّ التواضع

تارة ننظر إلى التواضع في أفق الذات وفي عالم النفس، وأخرى نلحظه في عالم السلوك الخارجي مع الناس، فبعد الفراغ عن تحصيل التواضع في داخل النفس، تصل النوبة إلى كيفية التواضع وحدوده وطريقة تعاطيه في ميدان العمل والتطبيق، فهو فنٌّ معاملاتي يحتاج إلى الحكمة ووضع الشيء بحدوده في موضعه، وإلا فقد يتعدى المرء إلى طرف الإفراط أو التفريط القبيحين.

فبما أن التواضع صفة أخلاقية متوسطة بين مذمومين الأول الكبر، والثاني التخاسس والذلة والمهانة، ينبغي للمؤمن أن يراعي جانب العدل والتوسط في الأداء، فكما أنه لا يذهب إلى الإفراط والتكبر كذلك لا يتنزل إلى جانب التفريط والتخاسس والمهانة، لأن الله لم يوكل للمؤمن أن يذل نفسه وفي الرواية: قال رجل للحسين عليه السلام: إن فيك كبراً فقال: «**كل الكبر لله وحده ولا يكون في غيره**» قال الله تعالى: «**فلله العزة ولرسوله وللمؤمنين**»[1]، يعني هذا الذي تراه هو عزة المؤمن وليس كبراً.

ـ وطبعاً هذا بالنظر إلى السلوك الخارجي مع العباد (كما ذكرنا) وهذا يستدعي في بعض الأحيان مراعاة العرف العام، فقد يكون عملٌ ما

(١) البحار ج ٤٤، ص ١٩٨.

لا يأبى المرء عن فعله، بل نفسُه المتواضعة تحب القيام به، وترغب في إتيانه تواضعاً، إلا أن العرف قد يقف حائلاً دونه، فيحجم عن تعاطيه لا لأجل الترفّع في النفس والتعالي على الآخرين، بل لعدم الوقوع في التخاسس بنظر العرف، وقد أرشدت بعض الروايات إلى هذا المطلب: فعن إمامنا الصادق عليه السلام لما استحييَ منه رجل اشترى لعياله شيئاً وهو يحمله قال له عليه السلام: «**اشتريته لعيالك وحملته إليهم، أما والله لولا أهل المدينة لأحببت أن أشتري لعيالي الشيء ثم أحمله إليهم**»[1].

وعلّقَ العلاّمة المجلسي (قده) على هذه الرواية الشريفة بقوله: يدل على استحباب شراء الطعام للأهل، وحمله إليهم، وأنه مع ملامة الناس الترك أولى»[2].

وفي رواية قال الإمام الكاظم عليه السلام لعبد الله بن جبله وقد علق سمكة في يده: «**اقذفها، إني لأكره للرجل السَّري (السيد) أن يحمل الشيء الدني بنفسه**» ثم ذكر عليه السلام علة كراهيته فقال: «**إنكم قوم أعداؤكم كثير يا معشر الشيعة، إنكم قوم عاداكم الخلق، فتزينوا لهم ما قدرتم عليه**»[3].

وفي رواية أخرى عن الصادق عليه السلام عندما رأى معاوية بن وهب بالمدينة وهو يحمل بقلاً قال له: «**إنه يكره للرجل السري (السيد) أن يحمل الشيء الدني فيُجْتَرء عليه**»[4].

فإذن هذه الروايات وأمثالها تدلّل على مطلبين:

الأول: أنه لا بد للمؤمن من مراعاة بعض الأمور العرفية، والإحجام عن بعض الأفعال التي توجب الاجتراء عليه ويستفاد من كلمة

(١) الكافي ج ٢ ص ١٢٣ ـ البحار ج ٧٢، ص ١٣٢.
(٢) البحار ج ٧١، ص ١٣٢.
(٣) البحار ج ٧١، ص ١٤٨.
(٤) البحار ج ٧١، ص ١٤٧.

(السرّي) ضرورة لحاظ شأنية المرء، فما وجب على ذي الشأن الاجتماعي الديني تركه قد لا يُكَلَّف غيره ممن ليس لهم تلك الشأنية بتركه والإحجام عنه.

الثاني: أن الارتداع عن تلك الأفعال ليس نابعاً من نفس متكبرة بل من أجل حفظ المروءة المطلوب للمؤمن الحفاظ عليها ولو بمداراة الأعراف الاجتماعية، ولو فرض ارتفاع المانع العرفي تراه لا يستنكف أبداً عن القيام بها لأن الذي يسكن قلبه حقاً هو ملكة التواضع.

* فإذن من أراد أن يكون حائزاً لسمات المتقين عليه أن يتّسِم بالتواضع وإلا فستكون تقواه ناقصة ودرجته متدنية.

* قبسات من أنوار علمائنا التواضعية *

كان علماؤنا الربانيون على مرّ الأزمان، ولا زالوا، وسيبقون حلقة وصل بيننا وبين أئمتنا عليهم السلام، فكل من أراد أن يأنس بأخلاق النبوّة والإمامة ليس له إلا أن يميم وجهه شطر أعظم الناس تشبهاً بتلك الأخلاق، وأكثرهم قرباً منها، وليس هم إلا العلماء الربانيون، الذين عزفت أنفسهم عن هذه الدنيا الدنيّة، وزهدوا بها، وصحبوها بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى، ففي شتى ميادين المناقب ستجد أنوار الولاية الإلهية تلتمع في آفاق قلوب الأولياء الصالحين من علماء هذه الأمة المرحومة بالنبوة الخاتمة.

وفيما يلي سأذكر شذرات من سلوكهم التواضعي علّه يكون منبهاً للخواطر، وطارداً لمغبّة الكبر والمفاخر:

* العلاّمة الطباطبائي (قده) *

يقول السيد محمد حسين الطهراني في تواضع أستاذه العلاّمة الطباطبائي صاحب تفسير الميزان (قده):

كان على درجة من التواضع والأدب والأخلاق بحيث كنت أقول له: «إن شدة تواضعك تدفعنا إلى قلة الأدب في حضورك، بالله عليك فكر في حالنا هذا، ولا تشدد على نفسك».

ويضيف السيد الطهراني: منذ ما يقارب أربعين عاماً، لم يشاهد أن اتكأ على مسند في المجلس، كان دائماً يحتفظ بفاصلة بين ظهره والجدار، تأدباً واحتراماً للجالسين، وما تركني مرة أجلس في مكان أدنى من مكانه، رغم كثرة ترددي على مجلسه للاستفادة من علمه.

وعندما كنت أدخل عليه وأمتنع من الجلوس في مكان أرفع أو في مستواه نبقى واقفين حتى يقول لي مازحاً: «إذن ينبغي أن نلجس عند عتبة الباب أو خارج الحجرة»!!

وذات مرة زرته في مشهد المقدّسة، فوجدته جالساً في مسند مرتفع عن الأرض عملاً بنصيحة الطبيب، إذ كان يعاني من أزمة في القلب، وبمجرد أن دخلت عليه قام من مكانه وطلب مني الجلوس على المسند، فامتنعت كالعادة، فصرنا واقفين هكذا، حيث يُصرّ أحدنا على الآخر بالجلوس على المسند، ولكنه غلبني عندما قال: «اجلس كي أقول لك جملة»!

فتأدباً ورغبة في معرفة ما يريد قوله لي، وطاعة لإصراره جلست على المسند، وجلس هو على الأرض.. ثم قال إن الجملة التي كنت أريد أن أقولها لك هي: «أن الجلوس على المسند ألين»!![1].

* السيد الخوئي (قده) *

يقول السيد الأشكوري أحد تلامذة آية الله العظمى السيد الخوئي (قده): ... ما رأيت مذ أن عرفته حتى فارقته في سلوكه شيئاً من

(١) مهر تابان ص ٥١ (فارسي).

الكبرياء والعجرفة كما قد يرى في بعض ضعفاء النفوس من المتسمين بالعلماء، فهو يجالس تلامذته والمستفيدين منه كأنه واحد منهم، لا ميزة بينه وبينهم إلا ما كان منهم من رعاية جانب احترام الأستاذ وتعظيم مقامه...

... وكم رأيت السيد في مجالس عامّة يستمع إلى الخطيب وينظر إليه بملء عينيه كأنه يسمع موضوعاً جديداً وبحثاً شيقاً لم يطرق سمعه، بالرغم من أن الخطيب لم يكن يتكلم إلا بما هو تكرار للمكرر، وإعادة لما قيل مرات ومرات!

تواضعه (قده) لأساتذته:

ينقل السيد حسن الموسوي الأصفهاني تلميذ الإمام الخوئي (قده) يقول: إن السيد عندما كان يجلس على منبر التدريس كان يبدأ بقراءة الفاتحة والتوحيد ثواباً لروح أساتذته (طاب ثراهم) بعد ذلك يشرع في إلقاء دروسه..

وفي يوم اقتصر على عشرة دقائق من الدرس وأنهى الدرس بسرعة وذلك للمشاركة في تشييع جنازة أستاذه وقد طلب من تلامذته الذهاب إلى التشييع، مع أن السماء كان تمطر، فمشى خلف الجنازة ونحن خلفه والسماء هاطلة بالمطر.

ويتابع السيد الأصفهاني حديثه عن أستاذه فيقول: كنت يوماً في مجلسه، وكان غاصّاً بالفضلاء وأساتذة الحوزة فانبرى السيد الخوئي قائلاً:

«قد أصر علي بعض الطلبة لأُدرسهم رسائل الشيخ الأنصاري (قده) ـ وهو كتاب في الأصول كان يُدرِّسه السيد الخوئي أيام شبابه قبل المرجعية ـ فلبيت طلبهم واتفقنا أن يحضروا في المسجد الهندي، فما أن بدأت الدرس الأول حتى رأيت في زاوية المسجد أستاذي الذي كنت

أدرس عنده كتاب الرسائل في سالف الزمان مشغولاً بتدريسه لجمع من الطلبة، وكانوا أقل عدداً من الطلبة الحاضرين حولي.

فاستحييت من هذا الموقف، فقمت تاركاً التدريس وسط جموع الطلبة الذين ارتسمت على وجوههم آثار الدهشة، ولكني اكتفيت بالقول: انتخبوا مكاناً آخر!

فألحوا لمعرفة السبب، فما أجبتهم حتى اختاروا مكاناً آخر».

* الشيخ الأنصاري (قده) *

المرجع الكبير الملقب بالشيخ الأعظم، الذي ما زالت كتبه إلى هذا الحين تُدرَّس في الحوزات العلمية، آية الله العظمى الشيخ مرتضى الأنصاري (قده)، انقل بشأن تواضعه وزهده هذه الواقعة التي وردت في كتاب (مردان علم در ميدان عمل) يقول صاحب الكتاب:

بلغ أهالي بغداد أن الشيخ الأنصاري قادم إلى بغداد غداً، فأعلنوا العطلة لأجل استقبال هذا القائد الديني العظيم.

ووصل الخبر إلى سفير إيران فهيأ نفسه للخروج في استقباله تصنعاً أو استطلاعاً.

ومصادفة يأتي أحد سفراء الدول الغربية الذي هو صديق السفير الإيراني فيرافقه ليرى هذا الرجل العظيم الذي كانت الأسواق قد أقفلت لأجله وقد لفت ذلك نظر ذاك الأجنبي.

كانت الجماهير غفيرة، وكانت أعين الجميع على الدرب..

متى يصل مرجعهم الديني الأعلى؟

وبعد قليل شاهدوا رجلاً راكباً على بغلة يتقدمه رجل، يبدو أن الماشي هو صاحب البغلة، ولم يكن هنالك أي مظهر من مظاهر العظمة!

وما هي إلا دقائق حتى ارتفعت أصوات الناس بالصلوات، وأخذت الجموع الغفيرة تتقدم لتقبل أيادي ذلك الرجل الراكب، وتحتضنه بحفاوة بالغة، وسط أجواء مفعمة بالسرور، وأصوات تصدح بالصلوات على النبي وآله!!

عرف السفيران أن الشيخ الأنصاري هو ذلك الراكب الخالي من أيٍّ من مظاهر التعالي والتكبر، فهو مرجع التقليد العالي القدر عند المسلمين الشيعة!

ولكن السفير الأجنبي حيث كان الانبهار واضحاً عليه، سأل صديقه السفير الإيراني:

ما هو عنوان مثل هكذا رجل عندكم، فإن له مكانة عظيمة عند الناس، وقد عبروا عنها بهذا الاستقبال الحاشد وإظهار المحبة والفرح والسرور بلقياه؟!

أجاب السفير الإيارني: يقولون له (حجة الإسلام).

فقال السفير الأجنبي: «الحق هو هذا. إني كنت أسمع أن النبي عيسى بكل عظمته، ومع كثرة أتباعه ومحبيه، كان أحياناً يمشي على قدميه، وأحياناً يركب البغال، فما كنت أصدق، ولكن اليوم مع مشاهدتي لهذا الرجل الجليل، واستقبال الجماهير له مع هذا التواضع والزهد، تيقنت بصحة ما ورد عن سيرة الأنبياء، وبصدق ما سمعته عنهم»!![1].

* السيد حسين الكوه كمري (قده) *

هو أحد تلامذة صاحب الجواهر، ومن المجتهدين المشهورين الذين كانت لهم حوزة دراسية ممتازة، فكان يأتي كل يوم للتدريس في أحد مساجد النجف الأشرف، وذات يوم جاء إلى مكان الدرس قبل

(١) مردان علم در ميدان عمل (بتصرف).

الوقت وجلس بانتظار مجيىء الطلاب، وإذا بحلقة درس منعقدة في أقصى المسجد وصوت المدرّس يصل إلى سمعه، فأصغى السيد الكوهكمري إلى حديثه فسمع بياناً راقياً ومطلباً دقيقاً، وفي اليوم الثاني تعمد السيد المجيىء إلى المسجد قبل وقت الدرس ليستمع إلى هذا العالم فأعجب بما سمع، فكرر ذلك حتى حصل له اليقين بأن هذا الشيخ أفضل منه في العلم والبيان، وأنه نفسه يستفيد منه جديداً، وأن طلابه يستفيدون من هذا العالم المدقق أكثر مما يستفيدون منه نفسه.

وفي اليوم التالي وعندما اكتملت حلقة الدرس واجتمع الطلاب افتتح السيد حديثه بقوله:

«إني أريد أحدثكم اليوم بموضوع جديد وهو أن هذا الشيخ الذي يحتل أقصى المسجد مع طلابه هو أقدر مني على التدريس، وأنا وجدت نفسي أنني أستفيد منه، فيحسن بنا جميعاً أن ننتقل إلى حلقة درسه لنستفيد من علومه.

وكان كذلك، ولم يكن ذاك الشيخ سوى من عرف فيما بعد بالشيخ الأعظم الملا مرتضى الأنصاري (قده).

نعم هكذا يكون التواضع للحق ونكران الذات في سبيل القيم والإنسانية والمثل..!

* السيد الگلبايكاني (قده) *

ينقل السيد جواد نجل آية الله العظمى السيد الگلبيكاني (قده) في تواضع والده واحترامه للمؤمنين أياً كانوا: أن رجلاً أعمى كان يتردّد على مجلس السيد الوالد ضمن المؤمنين الذين كانوا يأتون لزيارته والسؤال عنه، وبالرغم من أن والدي كان يعاني آلاماً في رجله، كان يقوم لكل من يدخل عليه بما فيهم هذا الرجل الكفيف.

فقلت له ذات مرة: إن هذا الرجل لا يراك فلا حاجة للقيام له.

فما كان منه إلا أن قال:

أولاً: هو إنسان مؤمن واحترام المؤمن لازم.

وثانياً: أن الناس يرون ذلك وهو أمر مطلوب حتى وإن كان لا يراني.

وينقل الخطيب سماحة الشيخ الخزعلي: إنه كان جالساً يوماً بمحضر السيد الكلبيكاني (قده) وكان في المجلس أحد طلاب العلم من السادة، وجيء للسيد (قده) بكأس من الماء ليشرب، فقدمه السيد إلى الحاضرين، ثم أصر على ذلك الطالب ليشرب من الكأس قائلاً: إشرب منه ثم أنا أشرب من سؤرِك[1] للاستشفاء!

وكان كلما دخل معمم إلى المجلس يقول: أهلاً بالعلماء الصالحين، أهلاً بالفقهاء الراشدين.

* الشيخ عبد الكريم الحائري (قده) *

مؤسس الحوزة العلمية في قم المقدسة

يقال: إن قضيّة الجلوس في صدر المجالس، ومن يجلس ومن لا يحق له أن يجلس أصبحت سبباً لبعض النزاعات والخلافات بين الأشخاص في مدينة (آراك) الإيرانية، فقرر المرحوم آية الله العظمى الشيخ عبد الكريم الحائري أستاذ الإمام الخميني (رحمهم الله) أن يبدد هذه السنة السيئة، ويحيي محلها سنة الإسلام الحسنة، والتي تقول: اجلس حيث ينتهي بك المجلس.

يقول الإمام الخميني (قده) بأن أستاذه الحائري أقام في أراك فترة

(١) السؤر فاضل الشراب.

من الزمان لأجل أن يمحو هذه السنة السيئة التي كانت وراء تلك النزاعات، فكان يدخل المجالس ويجلس أينما وجد مكاناً خالياً فأخذ الآخرون يقتدون به، وبذلك أحيى سنة الإسلام وأمات سنة الجاهلية.

* عالم كبير يرى تكليفه تعليم الصغار *

إن المرحوم آية الله العظمى الميرزا الشيرازي الملقب بـ (المجدّد الكبير) جالساً في مجلسه، والعلماء والمؤمنون جالسون حوله، وإذا بعالم غير معروف يدخل المجلس، فرحب به الميرزا ترحيباً حاراً مما أثار استغراب الحاضرين من تلك الحفاوة التي استقبله بها، وسألوه عن السبب؟!

فأجابهم (قده): «بأن هذا العالم ذو روحية عجيبة، لقد كنا قديماً ندرس ونتباحث في دروسنا معاً، وبعد أن نال درجة الاجتهاد الرفيعة، قصد العودة إلى بلاده ليفيد الناس بعلمه وبالطبع كان جديراً بأن يصبح لهم مرجع تقليد كبير، ولكنه في الطريق مرّ على قرية يعتقد أهلها في الإمام علي عليه السلام الألوهية، فألزم هذا العالم الكبير نفسه بأن يقيم في القرية لهداية أهلها فترك المرجعية والرئاسة الدينية التي كانت تنتظره في بلاده وأقام هناك.

فأعلن للناس في المسجد: أيها الناس، أنا معلّمٌ لأطفالكم إن أردتم ولا آخذ منكم أجرة إلا ما يسد رمقي! بهذه الطريقة الحكيمة وهذا التواضع العظيم جمع الأطفال حوله في المسجد فبدأ يعلمهم القراءة والكتابة ودروس العقائد الإسلامية من التوحيد إلى بقية التعاليم الدينية، فأثمرت خطته بعد فترة، أن اهتدى أهل القرية إلى التوحيد والإيمان الصحيح وتركوا عقيدة الشرك السابقة».

أقول: هذه الحادثة والتي قبلها تدللان على مطلب مهم جداً ما أحوجنا إليه، وهو أنه على العالم أن يُبْصر حاجات مجتمعه ويسعى إلى

سد نواقصه وخلله، فيشخص ما يمليه عليه التكليف، وما تتطلبه منه الشريعة الغراء ويخوض غماره متفانياً في سبيل عقيدته متقرباً إلى خالقه وبارئه، لاهياً عن ذاتياته وأنانياته، غير مكترث ببعض الاعتبارات الوهمية التي تحيكها خيالات الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ويسعون إلى عناوينها، ويتركون تكاليفهم التبليغية لأجل اعتبارات واهية، بدعوى التأثير على حيثياتهم، أو المنافاة لشأنيتهم.

فمن سمات المتقين إذن التي لا تنفك عنهم «التواضع»
فإذا أردت أن تكون في عدادهم تمسك بها، واحرص على
أن تكون ملكة من ملكاتك الفاضلة

السمّة الرابعة

غضّوا أبصارهم عما حرَّم الله عليهم

- العلاقة الوثيقة بين البصر والقلب.
- نظر العبادة ونظر الفسق.
- النظرة تزرع في القلب الشهوة وكفى بها لصاحبها فتنة:
- تأكيد الشريعة على إبعاد الأطفال عن المشاهد المثيرة.
- تأكيدها على ابتعاد المراهقين عمّا يثير.
- العقوبة الشديدة على النظر المحرَّم.
- حرمة النظر لا تقتصر على الرجل.
- مبالغة الشريعة في غض البصر حتى عن بعض المباحات والمشتبهات.
- دعوة إلى تعقيل الغريزة (علاج مساعد على غض البصر).
- (الشهوة) و(المخيّلة) و(مواد المخيلة) علاقتها الوثيقة ببعضها البعض.
- حاجات الإنسان على قسمين والغريزة داخلة في كليهما.
- الحاجة النفسية في الغريزة لا تشبع.
- خطر سيطرة وهم الغريزة.
- غض البصر أمره شديد.
- مكافأة الغاض لبصره.

السّمَة الرَّابعَة

*... غَضُّوا أبصارَهم عمَّا حرَّم الله عليهم *

العلاقة الوثيقة بين البصر والقلب:

لقد أَوْلَتْ الشريعةُ المقدسة حفظ النظر وغض البصر عن المحرمات أهمية عظمى لِما هُنالك من علاقة وثيقة بين النظر وبين قلب الإنسان ونفسه الناطقة، فالدّينُ معنيٌّ بطهارةِ النفس وتزكيتها، وسلامة القلب وصفائه، فكل ما يؤثر سلباً على القلب تتصدى الشريعة للزجر عنه، فإن قلب المؤمن عرش الرحمن، وكما ورد في الحديث القدسي: «**ما وسعني عرشي ولا كرسي ولا سمائي ولا أرضي ولا بَرّي ولا بحري، ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن**»[1]، فهذا القلب الذي يراد منه أن يكون عرش الرحمن لا بد من تأهيله بالمواصفات التي تخوله أن يكون كذلك، وتُخْتَصَر هذه المواصفات بأن يكون سليماً يقول تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[2]، وسلامة القلب وطهارته عن الأدران المعنوية والمدنسات النفسانية هي درجات لعلّى أرقاها ما أشار إليه الإمام عليه السلام بقوله: «**القلب السليم الذي يلقى الله**

(١) نور البراهين للسيد الجزائري ج ٢ ص ١٧٢ نقلاً عن البحار ج ٥٨ ص ٣٩.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٨٩.

وليس فيه أحد سواه»[1] فكل الأغيار مما دون الخالق جلّ شأنه هو رين على القلب عند أرباب القلوب وكل اشتغال بغير الله وكل غفلة عن الله هو وسخ للقلب ففي المناجاة عن أئمتنا عليهم السلام: «**. . . فشكرتك. . لتطهير قلبي من أوساخ الغفلة عنك**»[2]، ويقول إمامنا السجاد عليه السلام: «**وأستغفرك من كل لذة بغير ذكرك، ومن كل راحة بغير أنسك، ومن كل سرور بغير قربك، ومن شغل بغير طاعتك**»[3]، فهذا القلب الذي يطرد عن ساحته كل الأغيار ويكون مهيئاً لئلا يضم في حناياه سوى الله هو ما يكون عرشاً للرحمن، ويكون مصداقاً لما ورد من حديث قدسي: «**ما وسعني عرشي. . ولا سمائي ولا أرضي. . ولكن سعني قلب عبدي المؤمن**».

والدرجة الأدنى من تلك الدرجة لسلامة القلب وصفائه هي تنزيهه عن أن ينقش فيه ما هو مبغوض للمولى جلّ شأنه من المحرمات التي تدخل إليه صورها عبر وسائل وقنوات متعددة قد جعلها المكوِّنُ جلّ شأنه بمثابة أقلامٍ تنقش على صفحة القلب، ومن أهم تلك المنافذ إلى القلب «النظر».

فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**العين بريد القلب**»[4].

«**العين رائد القلب**»[5].

«**القلب مصحف البصر**»[6].

فالعين (بريد القلب) تطوف وتجمع للقلب رسائل من عالم الخارج

---

(١) البحار ج٦٧، ص ٥٤ عن تفسير القمي ص ٤٧٣.
(٢) المناجاة الشعبانية/ الإقبال ج ٣، ص ٢٩٨.
(٣) الصحيفة السجادية (مناجات الذاكرين).
(٤) غرر الحكم.
(٥) غرر الحكم.
(٦) نهج البلاغة/ حكم ٤٠٩.

عبر حاسة البصر فكل ما تراه العين تنقله إلى القلب، قبيحاً كان أم جميلاً، حسناً كان أم سيئاً، مباحاً أم محذوراً..

وكذلك العين (رائد القلب) والرائد هو من يرسله القوم ليستطلع وجود الكلأ ومساقط الغيث ويعود إليهم ليخبرهم بما استكشف، والرائد لا يكذب أهله، فكذلك العين هي رائد مستطلع للقلب تجلب له أخبار ما تراه من عالم المبصَرَات.

(والقلب مصحف البصر) فكأن البصرَ قلمٌ يكتب على مصحف القلب كل ما يبصره، فالقلب منقوش عليه، والبصر هو الناقش، والمبصرات هي الكتابة والنقش، فإن كان متعلق البصر (أي المبصرات) حسنة ومحمودة فإن القلب سوف يُشْرِق بها ويتسع صفاؤه، وإن كانت المبصرات قبيحة ومحرّمة فإن القلب سيتسخ بها ويتقذّر ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أي ذلك أطهر لهم، ومفهوم ذلك أن الذي لا يغض بصره عن المحذورات سوف ينقص من درجة زكاة قلبه وصفائه وطهارته.

فللعلاقة الشديدة بين النظر والقلب، ولأهمية القلب عند الله ـ إذ به يتم تمييز الطيب من الخبيث والشقي من السعيد والإنسان من غير الإنسان، أكدت الشريعة المقدسة على حفظ النظر عن المحرمات فإنه يؤثر في القلب تأثيراً عميقاً، وقد يؤدي به إلى العمى عن عواقب الأمور فتهوي به ريح الهوى والشهوة إلى مكان سحيق، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: **«إذا أبصرت العين الشهوة عميَ القلب عن العاقبة»**[1].

وقد يؤدي بالقلب إلى الانتكاس للانشغال الدائم عن الله تعالى، فإن النظر ينقل إلى القلب صوراً تجعل مخيلةُ المرء مشغولةً دائماً، وحتى

(١) غرر الحكم/ ٤٠٦٣.

أثناء تأدية بعض العبادات كالصلاة والدعاء.. وخاصة إذا كان النظر إلى ما تهواه النفس الأمارة بالسوء ويزينه الشيطان الوسواس الخنّاس، فمثل هكذا قلب مشغول بحظوظ النفس الأمارة كيف له أن يكون مَرْكَزاً لحلول فيوضات رب العالمين، ولدخول الملائكة إليه.

ـ قد يكون النظر عبادة وقد يكون نبات الفسق:

لغاية الآن إذن اتضح لك أن النظر (هذه الحاسة العجيبة) يشكل بعداً هاماً في مصير الإنسان، فيمكن أن يكون عبادة، وقد يكون معصية تجلب لصاحبها المآسي وتقوده إلى المهالك، فإذا نظر العبد إلى ما فيه رضا لله وما هو مذكّر بالله تعالى متقرباً بذلك إليه فإن نظره سيكون عبادة يثاب عليها فقد ورد عن إمامنا الصادق عليه السلام: «**النظر إلى العالِم العبادة.. النظر إلى الكعبة عبادة.. النظر إلى الوالدين برأفة ورحمة عبادة.. النظر إلى الأخ تودّه في الله عبادة.. النظر إلى المصحف عبادة..**»[1].

فكل ما فيه رحمة ورقة للقلب كالنظر إلى الوالدين، والنظر إلى الآخ تودّه فإنه عبادة، وكل ما فيه تذكير بالله تعالى كالنظر إلى وجه العالم «**إذا كان يزهّد في الدنيا ويرغّب في الآخرة وإلا فالنظر إليه فتنة كما**» يقول الإمام الصادق عليه السلام، والنظر إلى الكعبة والنظر إلى المصحف.. فهو عبادة، وكل ما يقود إلى زيادة المعرفة بالله تعالى من خلال التدبر والتفكر فهو عبادة «**كالنظر إلى مخلوق من مخلوقات الله تعالى مع التدبر**».

وفي الحقيقة إن الله يريد منا أن نستفيد من هذه النعمة الإلهية (حاسة النظر) بأقصى درجات الاستفادة في طاعته وفيما يوجب جزيل ثوابه يقول إمامنا السجاد عليه السلام: «**اللهم اجعل لمحات أعيننا من موجبات**

(١) الوسائل، ج ٥، ص ٣٦٤.

ثوابك»[1] فليس النظر فحسب بل حتى لحظات ولمحات العيون يريد الإمام أن تكون من بواعث الأجر والثواب..

وورد أنه «**كل نظر بغير اعتبار فهو لهو**».

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**ليس في البدن شيء أقل شكراً من العين، فلا تعطوها سؤلها فتشغلكم عن ذكر الله عز وجل**»[2].

فهذه غاية قصوى لما تريده الشريعة منا، يبقى أنه إلى حد يمكن للإنسان أن يسمو بنفسه، وإلى أي مقام يمكن أن توصله همته؟؟!!

فلا أقل من أن يغض بصره عن المحذورات والمحرّمات «**غضّوا أبصارهم عما حرّم الله عليهم**».

فالشريعة المقدسة لما بيناه من الخطر الكبير لعدم حفظ البصر تؤكد على لزوم غض البصر عن المحرمات، بل حتى عن بعض المباحات مما ليس فيه فائدة، أو المشتبهات، أو مما قد يقود إلى المحرمات في آخر المطاف «**فإنه من حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه فإن لكل ملك حمى وحمى الله محارمه**» كما ورد في الحديث.

ـ النظر إلى المظورات نبات الفسق:

فعن عيسى بن مريم عليه السلام أنه قال للحواريين: «**إياكم والنظر إلى المحذورات فإنها بذر الشهوات ونبات الفسق**»[3]، فإن من شأن البذرة أن تنبت وتنمو، فماذا تنبت؟.. إنها ستنبت الفسق.

فعاقبة النظرات المحرمة التي فيها ريبة هو الفسق في نهاية المطاف.

---

(١) الصحيفة السجادية/ دعاؤه عليه السلام في الاشتياق إلى طلب المغفرة.
(٢) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي ج ١٠١، ص ٣٥.
(٣) البحار ج ١٠١/ ٤٢.

والتعبير بالبذر فيه إشارة إلى أن الفسق يربو ويخرج من الكمون إلى الظهور ومن القابلية إلى الفعل شيئاً فشيئاً، تماماً كالبذر الذي يتحول إلى نبت بعد حين بالتدريج.

فالشاب الذي يتبع النظرة المحرمة باختها والمشهد المحذور بآخر، عليه أن يتنبه إلى أنه ينمي بذر الشهوات في قلبه شيئاً فشيئاً حتى يظهر نبات الفسق فيه.. وهذا شيء مخيف!! فعن النبيﷺ: «**النظرة بعد النظرة تزرع في القلب الشهوة وكفى بها لصاحبها فتنة**»(١).

وفي رواية عن إمامنا الصادقعليه السلام أن عيسى بن مريم قال للحواريين: «**إياكم والنظرة فإنها تزرع في القلب شهوة وكفى بها لصاحبها فتنة**»(٢).

وعن أبي عبد اللّهعليه السلام قال: «**النظر سهم من سهام إبليس مسموم وكم من نظرة أورثت حسرة طويلة**»(٣).

وعنه: «**أول النظرة لك والثانية عليك ولا لك، والثالثة فهيا الهلاك**»(٤).

فإنه لشدة تأثير النظرة في القلب، ولقوة إيحائها، ولِعِظم ما توجده من دافع نحو إنفاذ الشهوة والجري على مقتضى الغريزة، فإن الناظر سوف يكون في معرض الافتتان المهلك، فالنظر إلى ما هو مثير للشهوة هو من أقوى المقدمات المؤدية إلى الزنا، فإذا احترز منه المرء يكون قد تلافى الدافع الأكبر للوقوع في المحرم فقد قيل: لولا زنى العين لما زنى الفرج.

---

(١) ميزان الحكمة/ باب النظر ـ عن الفقيه.
(٢) ميزان الحكمة ج ١٠، ص ٧١ عن البحار.
(٣) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي ج ١٠١، ص ٤٠.
(٤) بحار ج ١٠١، ص ٣٧.

فتلك العاصفة الهوجاء التي تحدثها النظرة نحو إنفاذ الشهوة تعمي القلب عن التعقل والنظر إلى العواقب الوخيمة سواء في الدنيا كالفضيحة والخزي عند الناس، أو في الآخرة كغضب الله المؤدي إلى العذاب الأليم في نار جهنم يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**إذا أبصرت العين الشهوة عمي القلب عن العاقبة**»[1].

فكم من شقي قد هَتَكَ ستره وعاش سائر عمره بلا مروءة وفي خزي بين الناس لأجل لذة دقائق وشهوة عابرة متصرمة..؟

فاحترس يا أخي وكن على يقظة تامة، وحذر شديد فإن الأمر خطير!

ـ تأكيد الشريعة على إبعاد الأطفال المراهقين عن المشاهد المثيرة:

فاهتمام الشرع المبين بالردع عن النظر والمشاهدة لما هو مثير للشهوة إنما هو أمر وقائي احترازي لمصلحة العباد، لدفعهم عن الافتتان والانزلاق في أوحال الغريزة، والانحدار في هاوية الفساد والرذيلة والشقاء في الدنيا والآخرة.

وهناك تأكيد في الإسلام على إبعاد الأطفال والمراهقين عن المشاهد المثيرة التي تحرك في نفوسهم دوافع إما قبل أوانها بالنسبة للأطفال، وإما لا قدرة على إنفاذها كما في المراهقين.

فلدى الأطفال إن المشاهدات ذات الطابع المثير سوف تدعو إلى البلوغ المبكر وتفتح قابلية الغريزة (المغروسة في نفوسهم) قبل أوانها، وأضرار ذلك لا تخفى على العاقل، فإن الله بحكمته قدر وقتاً للنضوج لما في ذلك من مصلحة للشخص وللمجتمع الإنساني، والمساعدة على

(١) ميزان الحكمة/ عن غرر الحكم/ ٤٠٦٣.

تعجيل خروج الأحاسيس الجنسية من القوة إلى الفعل قبل أوانها هو إخراج للشيء عن حكمته المقدرة له عند إيجاده وخلقه.

فإن نفس الطفل تنفعل بسرعة بما تراه وإن كنّا نحن قد لا نشعر بما يشعر به، ولا نعير أهمية لانفعالاته، فمن الضروري جداً لكي نصونه عن الانحراف والانزلاق أن نجنبه كل ما يمكن أن يكون مثيراً ما استطعنا، وقد أرشدت الشريعة المقدسة إلى هذا الجانب المهم.

فعن إمامنا الباقر عليه السلام إنه قال لجابر الأنصاري: «**إياك والجماع حيث يراك صبي يحسن أن يصف حالك**»(١).

وعن الصادق عليه السلام: «**لا يجامع الرجل امرأته ولا جاريته وفي البيت صبي، فإن ذلك مما يورث الزنا**»(٢).

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**والذي نفسي بيده لو أن رجلاً غشي امرأته وفي البيت صبي مستيقظ يراهما ويسمع كلامهما ونفسَهما، ما أفلح أبداً، إن كان غلاماً كان زانياً، أو جارية كانت زانية**»(٣).

وحتى علماء التربية الجنسية قد أكدوا على هذا الجانب.

يقول (سيرل بيسبي): (وما دامت الناحية الجنسية موجودة عند الجميع حتى الأطفال منذ مولدهم، ولو بقيت في حالة الكمون حتى سن البلوغ، فمن المهم أن تتفادى الإتيان بأي عمل قد يستثيرها قبل أوانها..)(٤).

إذن كل ما يمكن أن يلفت نظر الطفل إلى هذا الجانب الغريزي

---

(١) طب الأئمة ص ١٣٥.
(٢) وسائل الشيعة ج ٧، ص ٩٥.
(٣) فروع الكافي ج ٢، ص ٥٨.
(٤) التربية الجنسية، ص ٥٥.

حتى عبر شاشات التلفزة وما شابه هو محذور إسلامياً والأهل مسؤولون عن ذلك فكل راع مسؤول عن رعيته، فترك الطفل أمام شاشة التلفاز الساعات المتتالية بلا حسيب ولا رقيب، وخاصة مع تعدد الأقنية اليوم والفضائيات التي لا تخلو برامجها غالباً عن مشاهد متحللة هو من الجرائم الأخلاقية التي لا تغتفر للأهل.

وأما بالنسبة للمراهقين والعزّاب فعند استثارة الشهوة لديهم، ولا يوجد المنفس المُحلل لقضاء وطرهم ما الذي يبقى أمامهم؟ مع طلب الغريزة المُلِح الذي يُعمي القلب عن التفكير في العاقبة (إذا أبصرت العين الشهوة عمي القلب عن العاقبة)؟؟؟

لا يبقى أمامهم سوى اللجوء إلى الأساليب المنحرفة المحرمة، التي منها الاستمناء، ومنها جريمة الزنا التي عدّها الله تعالى في جملة أكبر الذنوب كالشرك بالله وقتل النفس التي حرّم الله وتوعّد مقترفها بالخلود في النار، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾[1].

فالتأكيد على مسألة النظر، والردع الشديد عن النظر المحرّم، لِما يؤدي إليه من عواقب وخيمة، وفساد وارتكاب ما لا يحل ولا يجمل من الزنا وغيره، وكون العاقبة إلى جهنم يوم القيامة.

فعن إمامنا الرضا عليه السلام كما في عيون الأخبار: «... **وحرّم النظر إلى شعور النساء المحجوبات بالأزواج وإلى غيرهن من النساء لما فيه من تهييج الرجال، وما يدعو التهييج إليه من الفساد والدخول فيما لا يحل ولا يجمل..**»[2].

---

(١) سورة الفرقان، الآيات: ٦٨ ـ ٧٠.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ج١، ص ١٠٤.

فكل مظان إثارة الشهوة، وأماكن تهييجها كالمسابح المختلطة، والشواطىء، والأماكن المخصوصة التي يعلم وجود الخلاعة والسفور فيها، ومشاهدة الأفلام المثيرة... يجب على الشاب اجتنابها، فإنها تشرف على الهلكة، وتشغل النفس، وتتعب القلب، وتورث الحسرات، يقول أمي المؤمنين عليه السلام: «**من أطلق ناظره أتعب حاضره، من تتابعت لحظاته دامت حسراته**»(١). وإنما تدوم له الحسرات لأنه كثيراً ما ينظر إلى ما يعجبه ولا يستطيع الحصول عليه والوصول إليه.

«**من غضّ طرفه قل أسفه وأمن تلفه**» [غرر الحكم].

«**من غضّ طرفه أراح قلبه**» [غرر الحكم].

ـ مثال الذي يثير الشهوة ولا منفس لها:

فإن مثال الشاب غير المتزوج الذي ينظر إلى ما فيه إثارة للشهوة بعد أن تكون تلك الشهوة هادئة وخامدة نوعاً ما، ثم بعد ذلك لا يدري كيف يسكتها بعد هيجانها، كمثل الذي يمر في طريق سفره على مجموعة كلاب هادئة أو نائمة فيرميها بأحجار، فيستفزها ويستثيرها عليه، ثم بعد ذلك يقف ويفكر كيف يسكتها ويدفع غائلتها عن نفسه!!

إن هذا عين الحمق، فمن البدء يفترض أن لا تثار.

ـ العقوبة الشديدة على النظر المحرّم:

وهذا ما يطرحه الإسلام الحنيف الذي يؤكد على غض البصر، ويبالغ في تشديد العقوبة على النظر المحرّم ففي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**من ملأ عينيه حراماً يحشوها الله يوم القيامة مسامير من نار، ثم حشاها ناراً إلى أن يقوم الناس، ثم يؤمر به إلى النار**»(٢).

---

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي ج ١٠١، ص ٣٨.

(٢) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي ج ١٠١، ص ٣٧.

وقال عليه السلام: «**من اطلع في بيت جاره فنظر إلى عورة رجل أو شعر امرأة أو شيء من جسدها كان حقيقاً على الله أن يدخله النار مع المنافقين الذين كانوا يتبحثون عورات المسلمين في الدنيا، ولم يخرج من الدنيا حتى يفضحه الله، ويبدي عوراته للناظرين في الآخرة**»[1].

ويعتبر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله كما في رواية عنه: «**النظر سهماً مسموماً من سهام إبليس**» يُرمَى في القلب، والسهم المسموم إذا أصاب القلب لا يرجى الشفاء منه.

ـ حرمة النظر، لا تقتصر على الرجل:

وهذا لا يقتصر على نظر الرجل إلى المرأة فحسب بل يشمل العكس أيضاً أي نظر المرأة إلى الرجل فعن النبي صلى الله عليه وآله: «**اشتد غضب الله على امرأة ذات بعل ملأت عينها من غير زوجها**»[2].

وروي أن ابن أم مكتوم دخل على النبي صلى الله عليه وآله وعنده عائشة وحفصة فلم يحتجبا فلما خرج أنكر عليهما، فقالت أنه أعمى، فقال أعمياوان أنتما؟[3].

وفي نوادر الراوندي: بإسناده عن موسى بن جعفر، عن آبائه عليهم السلام قال: قال علي عليه السلام: استأذن أعمى على فاطمة عليها السلام فحجبته فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله: «**لم حجبته وهو لا يراك؟**» فقالت عليها السلام: «**إن لم يكن يراني فأنا أراه وهو يشم الريح**» فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**أشهد أنك بضعة مني**»[4].

وفي وصية أمير المؤمنين للإمام الحسن عليه السلام: «**واكفف عليهن من أبصارهن بحجابك إياهن فإن شدة الحجاب أبقى عليهن، وليس**

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي ج ١٠١، ص ٣٧.
(٢) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي ج ١٠١، ص ٣٩.
(٣) المبسوط ج ٤، ص ١٦٠.
(٤) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي ج ١٠١، ص ٣٨.

خروجهن بأشد من إدخالك من لا يوثق به عليهن، وإن استطعت أن لا يعرفن غيرك فافعل»[1].

ـ مبالغة الشريعة في التشديد على غض البصر حتى عن بعض المباحات أو المشتبهات:

ويبالغ الإسلام في التأكيد على حفظ النظر فيرشدنا إلى ترك حتى بعض النظرات المباحة التي قد تؤدي إلى الانشغال عن ذكر الله والدخول في الغفلة، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**ليس في البدن شيء أقل شكراً من العين، فلا تعطوها سؤلها فتشغلكم عن ذكر الله عز وجل**»[2].

ويدعونا إلى ترك النظرات التي هي بنفسها غير محرمة ولكن قد تؤدي إلى المحرم.

ورد أن سليمان قال لابنه: «**امش وراء الأسد ولا تمش وراء امرأة**».

يقول السيد عادل العلوي في ورع آية الله العظمى السيد المرعشي النجفي (قده):

«في أيام شيخوخته رأيته كثيراً عندما كان يدخل الحرم الشريف للدرس أو الصلاة إذا رأى شبح النساء من بعيد كان يرفع عباءته على وجهه، لكي لا تقع منه نظرة واحدة على امرأة أجنبية، رأيت ذلك منه على نحو الملكة الراسخة»[3].

وفيما جرى لكليم الله موسى عليه السلام مع بنت نبي الله شعيب عليه السلام غاية الاعتبار لمن يعتبر، فإن موسى عليه السلام لما سقى لبنتي شعيب عليه السلام تولى إلى

---

(١) نهج البلاغة/ من وصية أمير المؤمنين للإمام الحسن عليه السلام.
(٢) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي ج ١٠١، ص ٣٥.
(٣) كتاب قبسات.

الظل وناجى ربه بقوله: «رب إني لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقير»، ورجعت البنتان إلى أبيهما باكراً قبل الأوان على غير العادة، فاستعلمهما الأمر، فقصتا عليه ما حدث فقال شعيب عليه السلام للكبيرة منهما اذهبي وادعه إليّ لأكرمه ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ﴾ فلبّى موسى الدعوة وتبعها فكانت تمشي أمامه وكانت الريح تضرب ثوبها وتلصقه بجسمها وتحدد معالمه، فكان موسى يعرض عنها ويغض طرفه إلى أن ناداها: يا أمة الله امشِ خلفي ودليني على الطريق بحصاة ترمينها قدامي إذا أخطأت السير، فتأخرت خلفه تصف له الطريق حتى انتهيا إلى منزل نبي الله شعيب[1].

ولذلك عندما قالت لأبيها: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾، قال لها شعيب عليه السلام: يا بني هذا قوي قد عرفتيه بدفع الصخرة «حيث إنها كانت ثقيلة لا يرفعها رجل واحد».

الأمين من أين عرفتيه؟ قالت يا أبتاه إني مشيت قدامه فقال: «امشي خلفي فإن ضللت فارشديني إلى الطريق فإنا قوم لا ننظر في أدبار النساء»[2].

العلاج المساعد على غض البصر وحفظ المخيلة

دعوة إلى تعقيل الغريزة:

إن الإسلام يدعو إلى تعقيل أمر الغريزة للوقوف بها على حدودها الطبيعية المرسومة لها من قبل خالقها عز وجل، وعدم إفساح المجال أمام المخيلة لتأخذ من نفسه كل مأخذ ويكون كالريشة في مهب أرياح الخيالات المتواردة على النفس تسوقها حيث تشاء وفي كل اتجاه،

(١) تواريخ الأنبياء، ص ١٨٤.
(٢) من لا يحضره الفقيه ج ٤، ص ١٢.

وخاصة الخيالات التي تُغْذِي نارَها النظراتُ المتواردة عل القلب لتأجج في القلب لهيبَ الشهوة فيقتحم الإنسانُ ما حرّمه الله.

ولتوضيح هذا المطلب المهم أقول: إن النفس الإنسانية تنشغل بالمادة التي تردعليها من قبل إحدى الحواس والتي أهمها حاسة النظر كما بينا في أول البحث.

ثم إذا كثرت الواردات على النفس فإن النفس سوف تختزل ما ليس بمهم، وتشتغل بشكل تلقائي بما هو أقوى لديها وأهم، وبما أن شؤون الغريزة هي من أقوى دواعي اشتغال النفس، فإن النفس ستنتقيه لتشتغل به عن غيره.

والرابطة وثيقة جداً بين المخيلة وتأجيج نار الشهوة، فبقدر ما تطلق العنان لطير المخيلة يتسكع حيث شاء ويطير أينما أراد، وتمدّه بمواد تحرّكه وتنقله كالمبصرات التي هي بمثابة وقود له، فإنك ستجد اشتغال النفس الكبير بالغريزة وتأجج لهيب الشهوة، إلى درجة أن النفس قد يسيطر عليها هذا الحس والشعور باطنياً خاصة عند المراهقين والشباب، فَمَتَما شعرت بفراغ ولو لفترة وجيزة فإنها ستنتقل إلى التفكير في ذلك الشأن.

والذي يقوي المخيلة موادها من المرئيات كما ذكرنا، وإن ميدانها لواسع فبقد ما تمدها بالصور المبصرة بقدر ما تنطلق في ميدانها الرحب الذي لا يقف عند حدود.

خلاصة هناك ثلاثة عناصر علاقتها وثيقة ببعضها البعض:

«الشهوة» و «المخيلة» و «مواد المخيلة» فكلما قويت القوة المتخيلة وتفعّلت لدى المرء ازداد اضطرام نار الشهوة، وأخذت حيزاً أكبر من نفسه وشغلت اهتمامه وتفكيره.

والمخيلة لها وقود كلما أمددناها بوقودها كلما انطلقت.

وأعظم الوقود تأثيراً المبصرات والمرئيات التي وسيلتها حاسة النظر.

فبقدر ما تغض البصر عن المثيرات تُقَلّل من سَرَحان المخيلة واسترسالها، فتضعف تنقلاتُها، فيضعف بالمقابل وتلقائياً إلحاح الشهوة فيأمن الإنسان الوقوع في الفتنة.

إذا اتضحت الرابطة الوثيقة بين المخيلة وقوة استثارة الغريزة وبالتالي احتمال الوقوع فيما لا يحل ولا يجمل، ستُدرك سرَّ إرشاد الشريعة إلى عدم الإنسياق وراء طير الخيال وأمرها بضبطه ضمن حدود هي رسمت معالمها.

فانظر إلى هذه الحادثة التي من خلالها يعالج أمير المؤمنين عليه السلام شدة هياج الشهوة بالأمر بتعقيل الغريزة دون الوقوع في حبائل الخيال الذي لا يجرّ على ابن آدم إلا سوء العواقب والحسرات:

روي أنه عليه السلام كان جالساً في أصحابه إذ مرت به امرأة جميلة فرمقها القوم بأبصارهم فقال عليه السلام: «**إن أبصار هذه الفحول طوامح، وإن ذلك سبب هبابها، فإذا نظر أحدكم إلى امرأة تعجبه فليلمس أهله فإنما هي امرأة كامرأة**» فقال رجل من الخوارج: «**قاتله الله كافراً ما أفقهه، فوثب القوم إليه ليقتلوه**» فقال عليه السلام: «**رويداً إنما هو سب بسب أو عفو عن ذنب**»[1].

وفي رواية أخرى: «**إذا رأى أحدكم امرأة تعجبه فليأتِ أهله فإن عند أهله مثل ما رأى، ولا يجعلنّ للشيطان إلى قلبه سبيلاً، وليصرف بصره عنها**.

(١) نهج البلاغة باب الحكم.

فإن لم تكن له زوجة فليصلِّ ركعتين ويحمد الله كثيراً، ويصلي على النبي وآله، ثم ليسأل الله من فضله فإنه يبيح له برأفته ما يغنيه»[1].

انظر إلى باب مدينة علم النبيﷺ كيف يعالج أمراً في عمق النفس الإنسانية بعلاج لو أدركه العقلاء وطبقوه لدفع عنهم الاضطراب وقادهم إلى السكينة وراحة البال.

فإنه عليه السلام يدعو المتزوّج إلى أن يُعمِل عقله ولا ينساق وراء خيالاته بلا إدراك.

يأمره أن يقف وقفة تعقليه يوقظ من خلالها نفسه فيفكر بشكل منطقي.

فإن الذي أعجبه من تلك المرأة لو تعقل لوجده في امرأته، إذ أن النساء يشتركن في الأمور الأصيلة ويفترقن في العرضيّات كاللون والشكل وو.. الخ، وكل هذه الأمور العرضيّة مقدمات للوصول إلى أمر؟؟!! ذاك الأمر بذاته هو موجود عند حليلته.

ومن لا يصل إلى الإذعان لهذه الحقيقة فإنه سيبقى أسير الخيال الذي هو بحر لا شاطىء له، ومحيط ليس له منتهى.

يقول الإمام الخميني (قده: (..إن ميولنا وأمنياتنا أيضاً لا يحدها حد، فمثلاً إن القوة الشهوية في الإنسان، هي بالصورة التي لو كانت بيده نساء مدينة كاملة ـ بفرض المحال ـ لتوجه إلى نساء مدينة أخرى أيضاً.. وعلى الدوام تجده يطلب ما لا يملك، رغم أن ذلك من فرض المحال، إنه مجردّ خيال، ومع هذا يبقى مرجل الشهوة مشتعلاً.. إذاً فالإنسان هو على الدوام عاشق لما لا يملك ولما ليس بيده، وهذه فطرة أثبتها المشايخ العظام وحكماء الإسلام الكبار..).

---

(١) غرر الحكم.

وفي الحقيقة إن في الإنسان قسمين من الحاجات:

القسم الأول حاجات محدودة كالأكل والشرب والنوم فإن الإنسان يشبع منها وترتفع رغبته فيها، وعندها ينفر من المزيد، فالذي يأكل حتى يمتلىء يمكن أن يصاب بالغثيان إذا نظر إلى طعام وفكر بالاستزادة منه!

القسم الثاني حاجات غير محدودة تخرج من أعماق نفس الإنسان وتطلب دائماً المزيد، ولا تكل، ولا تهدأ، ولا تشبع، مثالها طلب المال والجاه.

ولتوضيح هذين القسمين أقول: إذا دخلت بلداً فإنه يمكن لك أن تحسب ما يسد حاجاتها المحدودة كالأكل والشرب، فيمكن أن تحسب بدقة مقدار ما يكفي هذه البلدة من الخبز إلى شهر مثلاً، وكذلك كم تحتاج إلى ماء، بحيث إذا سألت أهلها كم تريدون من طعام وماء لكي تشبعوا وترتووا إلى شهر لحددوا لك المقدار، وقالوا هذا يكفينا ويشبعنا.

ولكن إذا سألت كم تحتاج هذه البلدة من المال لكي نشبع نهم كل فرد فرد من أهلها إلى حب المال والتملك؟ سوف يبقى هذا السؤال بلا جواب، لأن الرقم سيكون غير محدود، ونفس الشيء في الحاجة إلى العلم فكما قال الرسول الأعظمﷺ: «**منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال**»، وكذلك حب الجاه والمقام فكلما نال الإنسان مقاماً رفيعاً طمحت نفسه إلى مقام أعلى منه.

وتعالَ معي إلى الغريزة الجنسية، فإذا تأملنا فيها بدقة وجدناها مُطَعَّمَة بكلا النوعين من الحاجات، فهي بلحاظ العلاقة الجسدية من نوع الحاجات المحدودة التي تشبع ويخف إوارها بمجرد الانتهاء من اللقاء الفزيولوجي الجسدي.

وأما بلحاظ الجانب النفسي المعنوي، فهي من سنخ الحاجات

اللامحدودة، فتجذرها أصيل في النفس وجوعها عميق، وعطشها لا يروى، إلا من خلال تقييدها وتعقيلها كما أشار أمير المؤمنين عليه السلام في الرواية السابقة، وهذا ما أشار إليه الإمام الخميني (قده) فيما نقلنا عنه آنفاً.

ويقول الشهيد مطهري فيه: (... هذا الشكل من العطش يميل إلى التنوّع فبعد أن يشبع صاحبه من واحدة يلتفت إلى الأخرى، فهو في نفس الوقت الذي يتوفر فيه على عشرات النساء تأسره العشرات الأخرى..

فإذا (افترضنا أنه امتلك من النساء الحسناوات بعدد ما كان في حريم هارون الرشيد وخسرو برويز، بحيث لا يصل الدور إلى بعضهن خلال السنة الكاملة، وسمع أن حسناء أخرى في أقصى الأرض فسوف يطلبها! ولا يقول كفى، لقد شبعت، فهو كجهنم «**يوم نقول لجهنم هل امتلأتِ وتقول هل من مزيد**» فالإشباع في مثل هذه الحالات أمر غير ممكن، وإذا أراد شخص أن يرد هذا السبيل فهو يشبه تماماً من يريد أن يشبع النار بالحطب).

يقول «كريستنس» في الفصل التاسع من كتابه (إيران في العصر الساساني):

(نلاحظ على رسوم الطاق الأثري بعضاً من صور الثلاثة آلاف امرأة التي كانت لدى «خسرو برويز» فلم يشبع الملك ميله هذا أبداً، فهو يجلب كل فتاة أو ثيّب أو ذات بعل يصفونها له إلى حرمه. وكلما حصل له ميل لتجديد زوجته، يكتب إلى عماله في البلدان كتاباً يصف فيه خصائص المرأة الكاملة، ثم يعمد عماله إلى جلب هذه المرأة إليه في أي مكان وجدوها وكانت مواصفاتها متطابقة مع ما جاء في كتاب الملك).

فإذا كان هذا الجانب المعنوي النفسي من الغريزة يأخذ هذا العمق في نفس الإنسان، وكانت المخيلة لديه تذكي نار ذلك الميل الغريزي فإذا أطلق لها العنان لا تقف عند حدود، فتطلب المزيد من المرئيات التي تمدها بالوقود، فتسيطر على كيان المرء، ويصبح أسيراً لها مشغول القلب بتلبية مبتغاها، بل يتحوّل إلى مدمن يبحث عن أي جديد في مجال المشاهدات، بل يتربص أي مشهد ليرمقه ويملي العين منه!

وفي الحقيقة هذا أمر خطير على النفس الإنسانية لأنه يصرف اهتمامها عن الكمالات التي خُلِقَتْ لأجلها، وعن بذل العمر فيما يوجب القرب من الخالق، والتدرج في مدارج الكمال الروحي والمعنوي، والسعي لإحقاق الحق وتحكيم القيم في المجتمع الإنساني، والانتصار للمظلوم من الظالم.

فإذا سيطر وهمُ الغريزة على الذات دبَّ فيها الاسترخاء ومنعها من بذل الوسع للوصول إلى الأهداف الرفيعة، وأذهب همتها العالية، وأضعفها عن الجهاد لذلك تجد أمير المؤمنين عليه السلام في إرشاداته للمجاهدين كما يأمرهم بالشدض على النواجذ يأمرهم أن يعذبوا عن ذكر النساء كي لا تضعف النفس بالتخيل فتنصرف الهمة ففي نهج البلاغة أنه قال عليه السلام لجيش يُشَيّعُه: (أعذبوا عن النساء ما استطعتم).

قال الرضي (رض) أي: اصدفوا عن ذكر النساء وشغل القلب بهن... لأن ذلك يفت في عضد الحمية ويقدح في معاقد العزيمة، ويكسر عن العدو، ويلفت عن الابعاد في الغزو.

وقد تنبه إلى ذلك أعداء الإسلام فعملوا بكل جهدهم لصرف همة الشباب عن القضايا الكبرى وجعلهم منغمسين في جحيم الشهوة ومستنقعاتها الآسنة، شاردي الذهن، مسترسلين في الخيالات الشيطانية،

فانظر التوصيات الواردة بهذا الشأن في بروتوكولات حكماء صهيون الذي يرسم السياسة اليهودية في العالم:

(يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان فتسهل سيطرتنا. إن فرويد منَّا وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس لكي لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية وعندئذٍ تنهار الأخلاق).

فالإمام إذن يدعو إلى تحكيم العقل في الغريزة، وشياطين الإنس والجن يدعون إلى تحكيم الغريزة في العقل ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾[1].

ـ عظة من الملك لأحد أفراد رعيته:

وفي إطار تحكيم العقل أذكر هذه النادرة التي حدثت في زمن أحد الملوك الذي كان يتنكر ثم يسير في أوساط الرعية يسمع ويرى ما يقال، وما يجري من دون واسطة، فإنه ذات يوم مرّ برجل في السوق وسمعه يقول: ما همُّ الملِك وهو يمتلك العديد من النساء ونحن المساكين ليس لنا حول أن نمتلك أكثر من امرأة واحدة؟!

فاقترب منه الملِكُ المتنكر وقال له: هل لك أن تأتيني بخمس بيضات بألوان مختلفة وأعطيك على ذلك مبلغ كذا..

فأتاه بما طلب، فقال له إذا أردت أن أهبك بعض البيض فأيها تختار؟ الحمراء.. أم الزرقاء.. أم الخضراء..؟؟!

فقال له الرجل أتمازُحُني يا رجل!؟ فما الفرق بين ذات اللون الأحمر وذات اللون الأزرق..؟!

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢٧.

فالبيض بيض وحقيقته واحدة وإن اختلف لونه وعوارضه الخارجية.

وعندها قال له الملك الذي كان يريد وعظه: وكذلك أمر النساء فإن حقيقتهن وجوهرهن واحد وإن اختلفن بالعوارض، فلا تتمنى ما عند الملك وتظن بأنه أمر خارق وغير عادي، ثم كشف له عن نفسه.

ـ غض البصر أمر شديد يحتاج إلى إيمان قوي:

وفي ختام هذا البحث أقول إن غض البصر لَأَمرٌ شديد على النفس يحتاج إلى درجة إيمانية سامية، وإيماناً كبيراً بالغيب يجعل العبد مراقباً لعلاّم الغيوب في سره وعلانيته، ويخاف سطواته، فقد سئل أمير المؤمنين عليه السلام بما يستعان على غمض البصر؟ فقال: «**بالخمود تحت سلطان المطّلِع على سترك**»[1].

وعن الصادق عليه السلام: «**ما اعتصم أحدٌ بمثل ما اعتصم بغض البصر فإن البصر لا يغض عن محارم الله إلا وقد سبق إلى قلبه مشاهدة العظمة والجلال**»[2].

ـ مكافأة الغاض لبصره:

ولذلك جعل غض البصر من سمات المتقين «**غضّوا أبصارهم عما حرّم الله عليهم**» ومن وصل إلى هذا التورع وغض البصر عن المحارم، الناتج عن قوة الإيمان، ومراقبة الجليل المطّلِع على الستر، فإن الله سيكافئه، ويزيد في إنعامه، ويَقوّي إيمانَه، ويهبه الثواب العظيم في الدنيا والآخرة.

---

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي ج ١٠١، ص ٤١.

(٢) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي ج ١٠١، ص ٤١.

فعن الصادق عليه السلام، عن أبيه عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**كل عين باكية يوم القيامة إلا ثلاثة أعين: عين بكت من خشية الله، وعين غضت عن محارم الله، وعين باتت ساهرة في سبيل الله**»(١).

ـ وعنه عليه السلام قال: «**من نظر إلى امرأة فرفع بصره إلى السماء أو غمض بصره لم يرتد إليه بصره حتى يزوجه الله عز وجل من الحور العين**»(٢).

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «**النظر سهم مسموم من سهام إبليس، فمن تركها خوفاً من الله أعطاه الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه**»(٣).

إذن فمن صفات المؤمنين، وسِمَات المتقين سِمَة غضّ البصر، «**قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم**».

«**غضّوا أبصارهم عما حرّم الله عليهم**».

فجسِّد هذه السِّمَة في نفسك كي تكون في عداد المتقين من ناحية حاسة النظر إنشاء الله تعالى، وهو المؤيد والمعين نعمَ المولى ونعم النصير.

---

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي ج ١٠١، ص ٣٥.
(٢) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي ج ١٠١، ص ٣٧.
(٣) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي ج ١٠١، ص ٣٨.

السّمَة الخامسة

وقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم:

- دائرة مسؤولية المؤمن بشأن السمع
- المرحلة الأولى: كف السمع عن المحرّمات:

أ ـ التورع عن سماع الغيبة

- كيف كان العلماء يتشدّدون في أمر سماع الغيبة

ب ـ التورع عن سماع الغناء

- أدلة تحريم الغناء:
  * الدليل القرآني المفسر بالروايات
  * الروايات الواردة في تحريم الغناء
- عقاب المستمع إلى الغناء والتغليظ بشأنه
- حرمة الغناء في المذاهب الأخرى الإسلامية
- ما قيل في مفاسد الغناء
- الغناء رقية الزنا
- الغناء يسلب العزم من الإنسان
- جزاء من نزه نفسه عن الغناء في الدنيا

- المرحلة الثانية: تنزيه السمع عمّا لا فائدة منه. (اجتناب اللغو)
- الإعراض عن سماع اللغو
- مثالان للمغتر بالدنيا
- الحسرة على هدر الوقت عند رؤية ملك الموت
- الحسرة على تفويت العمر يوم القيامة
- فصل في حرص علمائنا الأبرار عملياً على الاستفادة من كل ساعة

السّمَة الخَامِسَة

* ..وقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم *

إن حاسة السمع كسائر الحواس هي نعمة عظيمة قد مَنَّ الله تعالى بها على الإنسان.

وهي مع ذلك مورد لامتحانه واختباره، فإنها قد تكون وسيلة قرب إلى الله، وقد تُصَنَّفُ من أهم وسائل المعاصي!

والمرء مسؤول عنها فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾.

فلا ينبغي التسامح بشأنها كما هو ديدن بعض الذين زين لهم الشيطان أعمالهم، وهوّن عليهم المعاصي التي تُرْتَكَب عن طريقها، كالاستماع إلى الغناء، والفحش من القول، وذكر مثالب المؤمنين، وغيبتهم...

وإذا كان المرءُ مسؤولاً عن حاسة السمع فأول بحث يجب أن نطرقه هو تحديد دائرة تلك المسؤولية.

فأولاً: هل يكون الإنسان مسؤولاً عن سماعٍ لم يَتعمّدْه؟

أم فقط هو مسؤول عمّا تعمّد الإصغاء إليه؟

الصحيح هو الفرض الثاني، حيث أن الله تعالى يؤاخذ الخلق بما تعمدت قلوبهم: ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[1]، ﴿وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[2].

فمثلاً إذا كُنْتَ ماراً بمكان وطرق سمعَكَ صوتُ غِناءٍ، أو كلامُ فُحشٍ، أو ابتُليتَ بمن يدير المذياع، أو التلفاز على ما هو محرّم، فطرق سمعك دون أن تصغي إليه، وصرفت نفسك عنه، فإنه لا إشكال في ذلك، وإنك لم ترتكب محرماً.

وأما مع الإصغاء وتوجيه النفس وتعمّد الاستماع، فإنه سيكون مُحَرّماً، وداخلاً في دائرة المسؤولية الشرعية، والمرءُ معاقب عليه.

وهذا ما يقال من الفرق بين السماع والاستماع.

فالاستماع هو تعمد الإصغاء إلى الصوت، وتوجيه النفس إليه.

والسماع خلافه، فهو أن يطرق الصوت سمعك دون إرادة ولا تعمد منك للإصغاء إليه.

وبالالتفات إلى هذا التفريق تتضح أجوبةُ كثيرٍ من التساؤلات عن أحداث يبتلى بها المؤمن في حياته الاجتماعية وأثناء مخالطته للناس.

وثانياً: هل ينبغي للإنسان أن يكفَّ السمع عن المحرمات فحسب، أم أنه يوجد درجة أرقى من ذلك على المؤمن أن يسعى للوصول إليها؟ وهي درجة الإعراض حتى عن استماع اللّغو الذي لا فائدة منه، وإن لم يكن مُحرّماً؟

إنَّ ما يَظهر من قول أمير المؤمنين عليه السلام: «**وقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم**» هو الفرض الثاني أيضاً، أي أن المؤمن المُقْبِل على

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٥.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٥.

شأنه، المتزود لآخرته، عليه أن يرتقي إلى مرتبة حفظ سمعه حتى عن الأمو اللغوية التي لا طائل تحتها، ولا فائدة من سماعها، فضلاً عن حفظه عن المحرّمات.

فهناك مرحلتان للبحث إذن:

١ ـ **المرحلة الأولى**: والتكليف الأول المتوجه للمؤمن بما يتعلق بحاسة السمع هو: كف السمع وتنزيهه عن كل ما حرمت الشريعة الاستماع إليه، من غيبة، أو نميمة، أو تفكه بأعراض المسلمين، أو مزاح خارج عن ضوابط الشرع مؤدٍ إلى أذية المؤمنين، بل عن سماع كل أمر فيه انتقاص وتوهين للمؤمنين، وعن قول الفحش، والتجسس، والغناء، والشتم، والهجر...

ـ فعن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: «**إن الله تبارك وتعالى فرض الإيمان على جوارح بني آدم، وقسمه عليها، فليس من جوارحه جارحة إلا وقد وكلت من الإيمان بغير ما وكلت أختها، فمنها أذناه اللتان يسمع بهما، ففرض على السمع أن يتنزه عن الاستماع إلى ما حرم الله وأن يعرض عما لا يحل له فيما نهى الله عنه، والإصغاء إلى ما أسخط الله**»[1].

وهذا بحدّ ذاته أمر في غاية الشدّة ـ (قبل أن نصل إلى المرحلة الثانية، وهي مرحلة ترك المكروهات، والإعراض حتى عن سماع ما لا فائدة منه) ـ فأي مجلس في زماننا يخلو من الغيبة، أو النميمة، أو التفكه في أعراض المسلمين والانتقاص منهم..؟!

يقول العالم الزاهد آية الله العظمى السيد شهاب الدين المرعشي النجفي (قده) في وصيته لابنه: **وأوصيه.. أن يقلل من المعاشرة مع الناس، فإنك قلّ ما ترى مجلساً غير مشتمل على المناهي، من اغتياب**

(١) تفسير العياشي ـ محمد بن مسعود العياشي ج ١، ص ٢٨٢.

عباد الله، والتفكه في أعراضهم، والبهت في حقهم، وأكل لحومهم ميتة، سيما لو كان المغتاب (بالفتح) من أهل العلم، فإن اغتياب العلماء بمنزلة أكل الميتة المسمومة)[1].

ويقول (قده) في وصية أخرى له:

«وأوصيه.. بتقليل المعاشرة، فإن المعاشرة والدخول في نوادي الناس في هذه الأعصار مخطور محظور، قلّما يرى نادٍ يخلو من البهت والغيبة في حق المؤمنين والإزراء بهم، وتضييع حقوقهم وأخوَتهم»[2].

فأعظم الأمور خطراً وابتلاءً بما يتعلق بحاسة السمع: استماع الغيبة، واستماع الغناء. وقد تكلمنا عن الغيبة سابقاً عند حديثنا عن آفات اللسان، والذي أُذكّر به هنا هو أن المستمع للغيبة أحد المغتابين، فعن رسول الله ﷺ، أنه قال: **«السامع للغيبة أحد المغتابين»**[3].

وفي الاختصاص: قال: نظر أمير المؤمنين عليه السلام إلى رجل يغتاب رجلاً عند الحسن ابنه عليه السلام، فقال: **«يا بني، نزه سمعك عن مثل هذا، فإنه نظر إلى أخبث ما في وعائه، فأفرغه في وعائك»**[4].

ـ وروى القطب الراوندي في لب اللباب: عن النبي ﷺ، أنه قال: **«من سمع الغيبة ولم يغير كان كمن اغتاب، ومن رد عن عرض أخيه المؤمن، كان له سبعون ألف حجاب من النار»**[5].

والشريعة المقدسة لا تحرم استماع الغيبة فحسب، بل توجب على المكلَّف الانتصار للمؤمن ورد غيبته، فإنه ينال بذلك الأجر العظيم، وإن

---

(١) كتاب قبسات/ ص ١٢٨.
(٢) المصدر/ ص ١٢٣.
(٣) أبو الفتوح الرازي في تفسيره.
(٤) مستدرك الوسائل ـ الميرزا النوري ج ٩، ص ١٣٢.
(٥) مستدرك الوسائل ـ الميرزا النوري ج ٩، ص ١٣٣.

لم يفعل فله الخذلان في الدنيا والآخرة، والوزر الكبير.

يقول الشيخ الأعظم الأنصاري (قده) في مكاسبه: «**ثم إنه يظهر من الأخبار المستفيضة وجوب رد الغيبة**: فعن المجالس بإسناده عن أبي ذر رضوان الله عليه عن النبي ﷺ: «**من اغتيب عنده أخوه المؤمن وهو يستطيع نصره فنصره، نصره الله تعالى في الدنيا والآخرة، وإن خذله وهو يستطيع نصره، خذله الله في الدنيا والآخرة**»[1].

ـ وعن عقاب الأعمال بسنده عن النبي ﷺ: «**من رد عن أخيه غيبة سمعها في مجلس رد الله عنه ألف باب من الشر في الدنيا والآخرة، فإن لم يرد عنه وأعجبه كان عليه كوزر من اغتابه**»[2].

ـ وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «**من اغتيب عنده أخوه المؤمن فنصره وأعانه نصره الله وأعانه في الدنيا والآخرة، ومن لم ينصره ولم يعنه ولم يدفع عنه وهو يقدر على نصرته وعونه إلا خفضه الله في الدنيا والآخرة**»[3].

ـ وعن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «**من رد عن عرض أخيه المسلم، وجبت له الجنة البتة**»[4].

ـ وعنه عليه السلام قال: «**ما من مؤمن يُعين مؤمناً مظلوماً إلا كان أفضل من صيام شهر واعتكافه في المسجد الحرام، وما من مؤمن ينصر أخاه وهو يقدر على نصرته إلا نصره الله في الدنيا والآخرة، وما من مؤمن يخذل أخاه وهو يقدر على نصرته إلا خذله الله في الدنيا والآخرة**».

---

(١) كتاب المكاسب ـ الشيخ الأنصاري ج ١، ص ٣٦١.
(٢) عقاب الأعمال: ٣٣٥، وعه الوسائل ٨: ٦٠٧، الباب ١٥٦ من أبواب أحكام العشرة/ ح ١.
(٣) وسائل الشيعة (الإسلامية) ـ الحر العاملي ج ٨، ص ٦٠٦.
(٤) المصدر.

ـ وعن الصدوق بإسناده عن الصادق عليه السلام ـ في حديث المناهي ـ عن النبي صلى الله عليه وآله: **«من تطوّل على أخيه في غيبة سمعها، فردها عنه رد الله عنه ألف باب من الشر في الدنيا والآخرة، فإن هو لم يردها وهو قادر على ردها كان عليه كوزر من اغتابه سبعين مرة»**[1].

يقول الشيخ الأنصاري (قده): ولعلّ وجه زيادة عقابه ـ (سبعين مرة) ـ أنه إذا لم يردّه تجرأ المغتاب على الغيبة، فيصرّ على هذه الغيبة وغيرها.

والظاهر أن الرد غير النهي عن الغيبة، والمراد به الانتصار للغائب بما يناسب تلك الغيبة، فإن كان عيباً دنيوياً انتصر له بأن العيب ليس إلا ما عاب الله به من المعاصي التي من أكبرها ذكرك أخاك بما لم يعبه الله به.

وإن كان عيباً دينياً وجّهَه بمحامل تخرجه عن المعصية، فإن لم يقبل التوجيه انتصر له بأن المؤمن قد يبتلي بالمعصية، فينبغي أن تستغفر له وتهتم له، لا أن تعيّر عليه، وأن تعييرك إياه لعلّه أعظم عند الله من معصيته، ونحو ذلك[2].

أقول: وهذا يحتاج إلى تلطّف وحكمة، فإنك عندما تريد الانتصار للمؤمن ورد الغيبة عنه يعتبرك المغتاب أنك قد أخذت جانب ذلك الشخص فيصنفك خصماً، وتسوء علاقتك معه، فعلينا أن نتفنن بأساليب رد الغيبة لنجمع بين أمرين: رد الغيبة والانتصار للمؤمن من جهة، والإبقاء على العلاقة الحسنة بيننا وبين من نعظه وننهاه عن الغيبة من جهة أخرى، وإلا فسنقع في محذور آخر، وهو الجفاء، والتقاطع، والتدابر فيما بيننا.

---

(١) الفقيه ٤: ١٥، الحديث ٤٩٦٨، وعنه الوسائل ٨: ٦٠٠، الباب ١٥٢ من أبواب أحكام العشرة، الحديث ١٣.

(٢) كتاب المكاسب ـ الشيخ الأنصاري ج ١، ص ٣٦٢.

نعم في بعض الموارد المصيرية الحساسة قد يقتضي الانتصار للمؤمن ورد غيبته شيئاً من الحزم كما لو كان الكلام على عالم من العلماء مثلاً.

تقول ابنة الشيخ الأنصاري (قده) الذي كان المرجع الأعلى للشيعة في العالم في عصره: ذات يوم جاءت ابنة الشاه ناصر الدين لزيارة الشيخ في النجف الأشرف، فدخلت المنزل، وأخذت توزع نظراتها في جوانب الغرفة ـ قبل مجيء الشيخ ـ فترى السرجين مشتعلاً في المنقل (وهي فضلات الحيوانات تجفف وتجعل قطعاً للتدفئة بدلاً عن الفحم)، وتنظر إلى سفرة من الخوص (ورق النخل) معلقة على الحائط، وإلى جانب المنقل الذي كان من الطين كانت مسرجة من الفخار تضيء الغرفة نصف إضاءة.

فلم تستطع بنت الشاه أن تخفي ما يدور في خلدها من تعجب ودهشة من هذا الزهد لأكبر مرجع ديني في زمانه، فقالت للشيخ لمَّا حضر للقاء:

إذا كان ينبغي للعالم أن يكون هكذا زاهداً في معيشته فماذا عن الشيخ علي كني؟؟

ـ (الشيخ علي كني كان من كبار علماء طهران، ومن الذين يخشاهم الشاه، وكان من الناحية المادية في رفاه إلى حد ما، ولعلى سبب تعريض الأميرة به (قده) هو مواقفه المعارضة لأبيها الشاه ناصر الدين) ـ.

غضب الشيخ الأنصاري (قده) ولم يسمح لها أن تكمل كلامها، بل نهض من مكانه وقال بشدة: ماذا تقولين؟

إن هذا الكلام غيبة.

اعلمي أنك بهذا الكلام قد اشتريتِ لنفسك نار جهنم.

قومي واخرجي قبل أن ينزل الله من السماء عقاباً يشملني معكِ.

بكت ابنة الشاه من كلام الشيخ الأنصاري، وقالت: سيدي لقد أخطأت وتبت من خطئي، وإني أعتذر منك فلن أرتكب مثل هذه الحماقة مرة أخرى.

فعفى عنها الشيخ وقَبِلَ اعتذارها وقال لها: أين أنت من إبداء الرأي حول مكانة العلامة الشيخ علي كني؟؟[1].

أقول: سبحان الله كيف يفعل الإيمان فعله في الإنسان، فيجعله ينفي الحسد من قلبه، ولا يداهن في الحق، ولا يخاف في الله لومة لائم. وهذا ما جُمع للشيخ الأنصاري (قده) في هذا الموقف المشرِّف الخالد، فإنه برهَنَ عن عدم وجود ذرة حسد في قلبه للشيخ علي الكني، ولم يداهن مَنْ هي الأميرة وبنت الملك، ولأجل إظهار الحق والنهي عن المنكر والانتصار للمؤمن لم يخف في الله لومة لائم!!

فأعظم بها من شجاعة إيمانية جميعنا يحتاج إليها لأجل الورع وعدم الوقوع في حبائل الشيطان.

* خلاصة يحرم الاستماع إلى الغيبة، وعلى المكلف إذا كان في مجلس وتعرَّضَ المتحدثون فيه لغيبة مؤمن أن يدفع الغيبة عن أخيه وينتصر له، فإن لم يستطع، أو كان لا يؤثِّر، أو كان دفعه عنه إغراءً لهم في الازدياد من الطعن عليه، فعليه حينئذٍ أن يقوم من المجلس.

فهذا السيد بحر العلوم (قده) وهو فتى صغير يخرج من المجلس باكياً عندما يسمع أحد الحاضرين يتعرض لغيبة شخص.

---

(١) سيماء الصالحين/ ص ٣٦٥.

فيسأله الحاضرون عن تصرفه الغريب فيجيبهم: بأن شخصاً كان يغتاب مؤمناً فلم أتحمل الاستماع إلى الغيبة، فخرجت فراراً من عذاب الله تعالى.

نعم هذا الفتى المتورِّع في صغره قد غدا من أكابر الفقهاء في كبره، ومن الذين استفاض النقل بشأن لقائهم بإمام الزمان (عج).

ـ وقد انزعج العالم العارف الكامل الورع الملكي التبريزي (قده) من رجل اغتاب شخصاً في محضره فقاطعه فوراً وقال له: (إنك باغتيابك هذا قد سببت لي تعباً لمدة أربعين يوماً)[1].

فأصحاب القلوب الصافية النقية يشعرون بالأثر الأسود البغيض للغيبة على قلوبهم، الذي يحتاج إلى أربعين يوماً من العمل والاستغفار لكي ينجلي.

وأما حال من لا يشعر بأثر الغيبة على نفسه فهي سيئة للغاية، لأنها تدلّل على قلب قد اسوَدّ من كثرة الذنوب، فلا يكاد يشعر بإضافة بقعة سوداء أخرى إلى رين قلبه.

(١) رسالة لقاء الله.

الأمر الثاني
الغناء

لقد تفشَّت ظاهرةُ الغِناء في مجتمعاتنا بشكل مخيف حتى أضحت تسيطر على نفوس وأذهان كثير من شبابنا وفتياتنا، وتحدو بهم نحو الأوهام والخيالات الباطلة التي تقود إلى الفساد، وإضاعة الوقت، والابتعاد عن أجواء الفضيلة، والدين.

وقد تجد فتاةً أو شاباً يؤدي الصلاة ولكنه مسربل الفكر، ومتعلق القلب بسماع الموسيقى والغناء، وإن نهيتَه رأيتَه أبعد ما يكون عن الانتهاء، بل لعلّه يريد أن يثبت لك عدم المنافاة بين تأدية طقوسه الدينية وبين ما هو مقيم عليه من عادة ميشومة.

والبعض يذهب إلى أكثر من ذلك فيدخل معك في سجال بغية التبرير لنفسه فينفي الدليل على حرمة الغناء وسماعه.

وهذا أمر تجده في الكثير من الناس - إلا المنصفين منهم - وهو أن الإنسان إذا تعلق قلبه بشيء وأحبَّه، وصعب عليه تركه، والإقلاع عنه، عمي قلبه عن عاقبة ذلك الأمر كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«من عشق شيئاً أعشى بصره وأمرض قلبه»[1] **و «إذا أبصرت العين**

(١) نهج البلاغة خطبة ١٠٩، تحقيق الشيخ محمد عبده ج ١ ص ٢١١.

الشهوة عمي القلب عن العاقبة»، فيأخذ بإنكار قبح ما يفعل وتأويل ما ورد في ذمه، بل ويسعى جهده لإثبات عدم المنع عنه وعدم تحريمه، ويتمسك بحجج أوهن من بيت العنكبوت..

فبعض الذين يشربون المسكر مثلاً يقولون لم تنزل آية من القرآن تحرّم الخمر، وهم أبعد ما يكون عن القرآن وفهم أحكامه والالتزام بتعاليمه، فهم متعنتون يريدون الجدل العقيم فحسب للتبرير لأنفسهم، أما طرقت أسماعهم الآية الكريمة: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾، والرسول قد نهى بشكل شديد عن الشراب فجعل شارب الخمر كعابد الوثن.

وكذلك بعض الذين يرتكبون معصية سماع الموسيقى والغناء يتعللون ببعض التعليلات الواهية بغية عدم الإقلاع عما هم عليه، ولكن البعض الآخر طيبون منصفون إذا سمعوا الدليل على الحرمة أقلعوا عن المحرّم طاعة لله تعالى وخوفاً من عذابه..

وفيما يلي سأذكر ما يستدل به على حرمة استماع الموسيقى والغناء المتناسبة مع مجالس اللهو والفسق، أولاً الدليل القرآني بضميمة الروايات المفسِّرة عن أهل بيت العصمة عليهم السلام، وثانياً الروايات المستفيضة بمضامينها العجيبة التي مفادها التحذير، والزجر، والنهي عن الغناء وسماعه بأبلغ صورة وأفصح بيان.. بل قد يقال بأن الحكم بالحرمة مجمع عليه بل هو من الضرورات الدينية!

يقول الإمام الخوئي (قده):

«لا خلاف في حرمة ما ذكرناه أنه غناء قطعاً، ولعلّ عدم الخلاف بل الإجماع عليه مستفيض، بل هو إجماع محقق قطعاً، بل ضرورة دينية»[1].

(١) مصباح الفقاهة ـ السيد الخوئي ج ١، ص ٣٠٤.

ولنذكر أولاً الدليل القرآني بضميمة تفسير المعصومين عليهم السلام:

ـ عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد اللّه عليه السلام عن قول الله (عز وجل): ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ قال عليه السلام: الغناء[1].

ـ عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال في قوله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ قال عليه السلام: الغناء[2].

قال العلامة المجلسي (قده): وقد ذكر اللغويون من معاني الزور مجلس الغناء، ذكره الفيروز آبادي[3].

ـ وعن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول: الغناء مما وعد الله عز وجل عليه النار وتلا هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦﴾[4].

ـ وعن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: سمعته يقول: الغناء مما قال الله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[5].

ـ وعن الوشاء قال: سمعت أبا الحسن الرضا عليه السلام يقول: سئل أبو عبد اللّه عليه السلام عن الغناء فقال: هو قول الله (عز وجل): ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[6].

ـ وعن أبي عبد اللّه عليه السلام: الغناء مجلس لا ينظر الله إلى أهله وهو

(١) الكافي ـ الشيخ الكليني ج ٦، ص ٤٣١.
(٢) المصدر.
(٣) البحار ج ٦٧، ص ٢٣٩.
(٤) المصدر.
(٥) المصدر.
(٦) الكافي ـ الشيخ الكليني ج ٦، ص ٤٣٢.

مما قال الله (عز وجل): ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[1].

ثانياً: الروايات الواردة عن أهل بيت العصمة عليهم السلام المُحَرِّمَة للغناء:

إن الروايات الدالّة على حرمة الغناء، وحرمة تعليمه وتعلمه، وحرمة التكسب به واستماعه بمضامينها المدهشة قد تصل إلى حد التواتر كما في تقريرات السيد الخوئي (قده)[2].

وسنذكر فيما يلي بعض ما اشتملت عليه هذه الأحاديث عن المعصومين عليهم السلام في ذم الغناء وتحريمه والزجر عنه، فقد ورد أن الغناء:

- **ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء الخضرة.**
- **وأنه يورث الفقر والقساوة وينزع الحياء.**
- **وأنه رقية الزناء.**
- **ويرفع البركة.**
- **وينزل البلاء، كما نزل البلاء على المغنِّين من بني إسرائيل.**
- **وأنه ممَّا وعد الله عليه النار وبئس المصير.**
- **وأنه عشُّ النفاق.**
- **وأن الغناء مجلسٌ لا ينظر الله إلى أهله.**
- **وأن استماع الغناء نفاق وتعلمه كفر.**
- **وأن صاحب الغناء يحشر من قبره أعمى وأخرس وأبكم.**

---

(١) المصدر.

(٢) مصباح الفقاهة ـ السيد الخوئي ج ١، ص ٣٠٧.

ـ وأن من ضرب في بيته شيئاً من الملاهي أربعين يوماً فقد باء بغضب من الله فإن مات في أربعين مات فاجراً فاسقاً مأواه النار وبئس المصير.

ـ وأن من أصغى إلى ناطق يؤدي عن الشيطان فقد عبد الشيطان.

ـ وأن الغناء أخبث ما خلق الله وشر ما خلق الله.

ـ وأنه يورث الفقر والنفاق.

ـ وأن من استمع إلى الغناء يذاب في أذنه الإفك[1].

ـ وفي الكافي عن أبي عبد اللّه عليه السلام: **لما مات آدم** عليه السلام وشمت به إبليس وقابيل فاجتمعا في الأرض فجعل إبليس وقابيل المعازف والملاهي شماتة بآدم عليه السلام فكل ما كان في الأرض من هذا الضرب الذي يتلذذ به الناس فإنما هو من ذاك[2].

ـ وقال عليه السلام: «**بيت الغناء لا تُؤمَن فيه الفجيعة، ولا تُجَاب فيه الدعوة، ولا يدخلُهُ الملَك**»[3].

أقول: من لم تُخِفْه الروايات المتوعدة بالعذاب على استماع الغناء، ولم تنزجر نفسُه مع ما ورد من الوعيد الأخروي أفلا يخافنّ من الفجيعة في الدنيا!!؟ فإن المعصوم عليه السلام الذي هو مشكاة الأسرار الغيبية ينبىء عن سر غيبي.. وهو أمر مخيف.. وهو أن «**بيت الغناء لا تُؤمَن فيه الفجيعة**»!!.

وقد ورد أنه يورث الفقر أيضاً كما سبق وذكرنا، فهذه آثار عاجلة

---

(١) راجع الكافي ج ٦، ص ٤٣١، باب الغناء ـ دعائم الإسلام ج ٢، ص ٢٠٧ ـ دار المعارف ـ وسائل الشيعة ج ١٢، ص ٢٢٥، باب تحريم الغناء ـ البحار ج ٧٦، ص ٢٣٩، باب الغناء ٣.

(٢) الكافي ـ الشيخ الكليني ج ٦، ص ٤٣١.

(٣) المصدر.

تشمل مرتكب هذه المعصية حتى في الدنيا!!

ـ وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «**من أصغى إلى ناطق فقد عبده فإن كان الناطق يؤدي عن الله (عز وجل) فقد عبد الله، وإن كان الناطق يؤدي عن الشيطان فقد عبد الشيطان**»[1].

ـ وعن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: «**المنجم ملعون والكاهن ملعون، والساحر ملعون: والمغنية ملعونة، ومن آواها وأكل كسبها فهو ملعون**»[2].

ـ وعن إبراهيم بن أبي البلاد قال: قلت لأبي الحسن الأول عليه السلام: «**جعلت فداك إن رجلاً من مواليك عنده جوار مغنيات قيمتهن أربعة عشر ألف دينار وقد جعل لك ثلثها**»، فقال: «**لا حاجة لي فيها، إن ثمن الكلب والمغنية سحت**»[3].

ـ وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**الغناء نوح إبليس على الجنة**»[4].

ـ وعن الريان بن الصلت قال: سألت الرضا عليه السلام يوماً بخراسان فقلت: يا سيدي إن هشام بن إبراهيم العباسي حكى عنك أنك رخصت له في استماع الغناء؟ فقال: كذب الزنديق إنما سألني عن ذلك فقلت له: إن رجلاً سأل أبا جعفر عليه السلام عن ذلك فقال أبو جعفر عليه السلام: إذا ميز الله بين الحق والباطل فأين يكون الغناء؟ فقال: مع الباطل، فقال له أبو جعفر عليه السلام قد قضيت[5].

ـ وعن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: «**أما يستحي أحدكم أن يغني على**

(١) وسائل الشيعة (آل البيت) ـ الحر العاملي ج ٧١، ص ٣١٧.
(٢) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي ج ٦٧، ص ٢٤٢.
(٣) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي ج ٦٧، ص ٢٤٢.
(٤) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي ج ٦٧، ص ٢٤٣.
(٥) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي ج ٦٧، ص ٢٤٣.

دابته وهي تسبح»[1].

ـ وعن مسعدة بن زياد قال: كنت عند أبي عبد اللّه عليه السلام فقال له رجل: بأبي أنت وأمي إنني أدخل كنيفاً لي (بيت الخلاء)، ولي جيران عندهم جوار يتغنين ويضربن بالعود، فربما أطلت الجلوس استماعاً مني لهن؟

فقال عليه السلام: لا تفعل.

فقال الرجل: والله ما آتيهن إنما هو سماع أسمعه بأذني.

فقال عليه السلام: لله أنت أما سمعت الله (عز وجل) يقول: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾[2].

فقال: بلى والله لكأني لم أسمع بهذه الآية من كتاب الله من أعجمي ولا عربي لا جرم إنني لا أعود إن شاء الله وإني أستغفر الله.

فقال له عليه السلام: «**قم فاغتسل وصل ما بدا لك فإنك كنت مقيماً على أمر عظيم، ما كان أسوأ حالك لو مت على ذلك، احمد الله وسله التوبة من كل ما يكره فإنه لا يكره إلا كل قبيح والقبيح دعه لأهله فإن لكل أهلاً**»[3].

فانظر يا أخي الكريم إلى هذا التشديد والتغليظ من الإمام عليه السلام على رجل لم يتعمّد، ولم يتقصد الذهاب إلى مكان الغناء، بل تقوده الحاجة إلى الكون في ذلك الموضع الذي يصل إليه الصوت، فيطرق سمعه، فيطيل الجلوس بغية الاستماع، فإنه بعد أن تلى عليه الإمام الآية الكريمة والتفت الرجل إلى نفسه وقال لا أعود، وإني أستغفر الله، لم يكتفِ منه

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي ج ٦٧، ص ٢٤٦.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.
(٣) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي ج ٦٧.

الإمام بذلك بل:

ـ أمره ﷺ أولاً بالاغتسال (ولعلّه غسل التوبة) لكي يشعر بأنه كان مقيماً على أمر عظيم، ولكي يُقَوّي داعي المغفرة من قبل رب العالمين تبارك وتعالى.

ـ ثم صرح له ﷺ بأنه كان مقيماً على أمر عظيم!.

ـ ثم بين شدّة الأمر أكثر عندما قال له ﷺ: **«ما كان أسوء حالك لو مت على ذلك»!**.

ـ ثم بين له ﷺ أن التفاته إلى ذلك واستدراكه لهذا الأمر قبل فوات الأوان هو نعمة قد من الله بها عليه فليحمد الله تعالى على ذلك.

أقول:

فما هو يا ترى إذن عقاب المولعين بسماع الغناء؟!

أو الذين لا تغفو أعيُنُهم إلا على صوت الموسيقى؟!

أو الذين يتقصدون الأماكن البعيدة المدى والملاهي الليلية للحضور في الحفلات الغنائية الجهنمية؟!

أو الذين ينفقون أموالهم على أشرطة الكاسيت والفيديو التي تعرض موسيقى الصخب، وغناء الفجور؟!

أو الذين لا تكاد تدخل بيوتهم أو تمر بها إلا ويسبق إلى سمعك منها صوت الصخب والغناء قبل أي شيء؟!

أو الذين يرافقهم الطنين والرنين حتى في حافلات نقلهم الشخصية، ويا ليتهم يكتفون بإسماع أنفسهم فحسب، بل يؤذون الآخرين بالأصوات المنبعثة التي يخيل إليك أنهم يريدون من خلالها إسماع أهل المحلة كلها!!

الجواب إن عقابهم لعسير.. إن بطش ربك لشديد.. إن المعاصي في الدنيا تذهب لذاتها وتبقى تبعاتها، فلا تشترِ أيها المستمع للغناء عقاباً لا تقوم له السماوات والأرض بلذة سماع عابرة فانية لا تبقى، استمع إلى ما ورد عن الرسول الأكرمﷺ في عقاب من يستمع اللهو المحرّم يقولﷺ:

«**من استمع إلى اللهو يذاب في أذنه الآنك**»[1] (والآنك هو الرصاص المذاب).

وفي رواية أخرى عنهﷺ:

«**من جلس إلى قينة يسمع منها** (أي من جلس إلى مغنية يستمع إلى غنائها) **صُبّ في أذنه الآنك يوم القيامة**»[2].

هل عندك من القدرة ما تتحمل به هذا العذاب الإلهي..؟؟!!

وفي رواية أخرى عن النبي الأعظمﷺ: «**يحشر صاحب الطنبور** (آلة عزف وغناء) **يوم القيامة وهو أسود الوجه، وبيده طنبور من نار، وفوق رأسه سبعون ألف ملك، بيد كل ملك مقمعة يضربون وجهه ورأسه.**

ويحشر صاحب الغناء من قبره أعمى وأخرس وأبكم»[3].

أتصور أنك أضعف بكثير من أن تحتمل مثل هكذا نكال وغضب ربّانيين، إذن فانظر لنفسك من الآن، وارحمها بإقلاعك عن هذه المعصية الشنيعة، قبل أن يحين أوان أن تقول ربّ ارجعون لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت فيأتيك الجواب: كلاّ!!

(١) تفسير القرطبي ج ١٤، ص ٥٣.
(٢) نيل الأوطار للشوكاني ج ٨، ص ٢٦٤.
(٣) لئالىء الأخبار ج ٣، ص ٥٩٣.

فهذا بعض ما ورد من طرق أهل بيت العصمة عليهم السلام في تحريم الغناء، والتغليظ بشأنه، والزجر عن الاستماع إليه.

فلا أدري! هل من الممكن لذي عقل ولبٍّ وإنصاف، مع هذه المضامين العجيبة المدهشة في ذم الغناء والنهي عنه أن يبقى مقيماً على هذه المعصية الأثيمة ولا ينزجر عنها؟!

إلا إذا كان هائماً على وجهه في تيه الضلالة والهوى فإن هوى النفس الأمارة بالسوء يُعمي ويصم فعن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله: «**رب ذي عقل أشغله هواه عما خلق له حتى صار كمن لا عقل له**».

فهذا يحتاج إلى دعاء كي يتيقظ من نوم الغفلة عن الله، وعن عذابه الشديد!

وهل لا زال هنالك مجال أمام البعض لدعوى عدم وجود الدليل على حرمة استماع الغناء؟؟!

فمع هذه الآيات الكريمة، والروايات الشريفة، ومع تصريح العلماء بالإجماع المحقق على حرمة الغناء وبعدم الخلاف في ذلك، وبأن حرمته ضرورة دينية، كما يقول الإمام الخوئي (قده):

«**لا خلاف في حرمة ما ذكرناه أنه غناء قطعاً، ولعلّ عدم الخلاف بل الإجماع عليه مستفيض، بل هو إجماع محقق قطعاً، بل ضرورة دينية**».

بعد هذا كله ماذا يريد من يطالب بالدليل على حرمة الغناء؟؟!!

هل يريد أن يعلم بالحرمة عن طريق الوحي إليه، ليعتبر ذلك دليلاً تركن إليه نفسه؟؟!!

حرمة الغناء لدى المذاهب الإسلامية الأخرى:

وتحريم الغناء لم يقتصر على المذهب الحق بل إن أساطين الفقه عند أهل الخلاف قد حرّموه وهاك بعض آرائهم فيه:

ـ أبو حنيفة (إمام المذهب الحنفي): حرّم الغناء، وعدّه وسماعه من الذنوب.

ـ وهو مذهب مشايخ أهل الكوفة: سفيان وحمّاد وإبراهيم والشعبي.

ـ مالك بن أنس (إمام المالكية): نهى عنه وقال: إذا اشترى أحد جارية فوجدها مغنية فله أن يردها بالعيب. وقال إنما يفعله عندنا الفسّاق.

ـ وهو مذهب أهل المدينة، إلا إبراهيم بن سعد.

ـ أحمد بن حنبل (إمام الحنابلة): حرّم الغناء، ويقول ابنه سألت أبي عن الغناء، فقال: ينبت النفاق في القلب.. لا يعجبني، ثم قال: إنما يفعله عندنا الفسّاق.

ـ الشافعي (إمام الشافعية): حرّم الغناء، وله في ذمه كتاب مصنَّف، وأنكر أصحابه العارفون بمذهبه على من نسب إليه حليّة الغناء[1].

ـ وقال ابن الصلاح: هذا السماع حرام بإجماع أهل الحل والعقد من المسلمين.

ـ وقال الطبري: أجمع علماء الأمصار على كراهة الغناء والمنع

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١٤، ص ٥١ ـ ٥٦ ـ سنن البيهقي ج ١٠، ص ٢٢٤ ـ الغدير ج٨، ص ٧٣ ـ ٧٤.

منه، وإنما فارَق الجماعة إبراهيم ابن السعد، وعبيد اللَّه العنبري.

ـ وقال المحاسبي في رسالة الإنشاء: الغناء حرام كالميتة[1].

مفاسد الغناء

قول البعض في مفاسده:

ـ قال الضحاك: الغناء منفدة للمال، مسخطة للرب، مفسدة للقلب.

ـ وقال يزيد بن الوليد الناقص: يا بني أمية إياكم والغناء فإنه ينقص الحياء، ويزيد في الشهوة، ويهدم المروءة، وأنه لينوب عن الخمر، ويفعل ما يفعل السكر، فإن كنتم لا بد فاعلين فجنبوه النساء فإن الغناء داعية الزنا.

وقيل: الغناء جاسوس القلب، وسارق المروءة والعقل، يتغلغل في سويداء القلوب، ويطلع على سرائر الأفئدة، ويدب إلى بيت التخييل، فينشر ما غرز فيها من الهوى والشهوة والسخافة والرعونة، فبينما ترى الرجل وعليه سمت الوقار، وبهاء العقل، وبهجة الإيمان، ووقار العلم، وكلامه حكمة، وسكوته عبرة، فإذا سمع الغناء نقص عقله وحياؤه، وذهب مروءته وبهاؤه، فيستحسن ما كان قبل السماع يستقبحه، ويبدي من أسراره ما كان يكتمه، وينتقل من بهاء السكوت والسكون إلى كثرة الكلام والهذيان والاهتزاز كأنه جان وربما صفق بيديه، ودق الأرض برجليه، وهكذا تفعل الخمر إلى غير ذلك[2].

---

(١) المصدر.

(٢) راجع سنن البيهقي ١: ٢٢٣، نقد العلم والعلماء لابن الجوزي ص ٢٥٠، تفسير الزمخشري ٢: ٤١١، تفسير القرطبي ١٤: ٥٢، إرشاد الساري ٩: ١٦٤، الدر المنثور ٥: ١٥٩، ١٦٠، كنز العمال ٧: ٣٣٣، تفسير الخازن ٣: ٤٦، تفسير الشوكاني ٤: ٢٢٨، نيل الأوطار ٨: ٢٦٤، تفسير الآلوسي ٢١: ٦٧، ٦٨.

فبالفعل عندما ينتشي المستمع للغناء ويطرب فإن ذلك يحدو به نحو الهوى فيتنحى العقل جانباً، وتحل في ميدان النفس خطرات الهوى المردية التي تنقل الشخص من التعقل إلى الخرق، ومن الحكمة في اتخاذ القرار إلى المجازفة والحمق، ومن التأني إلى التسرع، ومن الوقار إلى الخفة والطيش والأعمال غير العقلانية.

فالله تعالى كرّم ابن آدم بالعقل، فكل ما يقوّي في الإنسان جانب التعقل والحكمة يشجع عليه الدّين ويقرب نحوه، وكل ما فيه تضعيف لجانب التعقل تزجر عنه الشريعة.

ومما لا شك فيه أن الغناء الذي فيه تحفيز على الشهوات واستثارة للأهواء النفسانية يضعف جانب التعقل والتأني والتثبت لدى الإنسان، وبالمقابل يقوي جانب اقتحام ما تهوى النفس الأمارة بالسوء، وما يوسوس به الشيطان الرجيم، وعليه فمن الطبيعي أن تردع عنه الشريعة وتحرّمه.

نَشَرَت مجلّة سويسرية مقالاً بعنوان «جنون الموسيقى»، انتقدت فيه الموسيقى والغناء بشدّة، وأشارت إلى المفاسد التي تنجم عنها، وقد كان سبب نشر هذه المقالة أن مائة وخمسين ألف (١٥٠,٠٠٠) شاب اجتمعوا في ساحة «لانسيون» في باريس، واستمعوا إلى ألحان موسيقية ساحرة ومهيجة للمشاعر، وعندما ثارت أنفسهم وهاجت غرائزهم قاموا فجأة وهجموا على المحلات، وكسروا الزجاج ونهبوا البضائع والأمتعة، وأراقوا الدماء، وآذوا وجرحوا كثيراً من الناس، وصنعوا من المفاسد ما صنعوا، كل ذلك بسبب فقدانهم لإرادتهم النفسية وعدم قدرتهم على ضبط أعصابهم على أثر استماعهم إلى الغناء والموسيقى[1].

(١) عن مجلة «تهران مصور» العدد ١٠٣٦.

وقد كتب «ويليام كوراجوس» (ـ الخبير في هيئة الأمم المتحدة، ورئيس شؤون الشباب في جامعة «مدفورد» بأميركا، والمعيَّن من قِبل منظمة يونسكو لإصدار مجلة شهرية تبحث في شؤون الشباب، وعوامل فسادهم وانحرافهم ـ) كتب في إحدى نشراته مقالاً عن الغناء، وانتقد فيه الموسيقى والسينماءات بصورة شديدة وعنيفة وقال نقلاً عن أحد الأطباء: «إن من أهم عوامل الفساد والأمراض النفسية والجنسية في الشباب هو الموسيقى والغناء والسينماءات»[1].

الغناء رقية الزنا:

وقد ورد في الرواية أن: (الغناء رقية الزنا)[2]، وهذا يشهد بصحته الوجدان، فإن الغناء يضرب على وتر الغريزة الحساس جداً، فيناغي تلك الأحسايس المرهفة ليجعلها تتأجج طالبةً مقتضاها حتى وإن كان عن طريق غير شرعي، فإنك تجد أكثر كلمات الأغاني تصب في خانة العشق، وما يثير المشاعر العاطفية بين الجنسين.. فإذا اجتمعت مع الكيفية اللهوية في أدائها ومع الموسيقى المهيجة لتلك الأحاسيس العميقة في الإنسان، فإنها ستحدو به حينئذٍ إلى عالم المجون، المشحون بالوهم والخيالات الأهوائية، مدخلةً له في غيبوبة عن جزء كبير من التعقل، فينفسح المجال أمام هوى النفس الامارة بالسوء وأمام الشيطان وتزيينه ووسوسته، ويتم ذلك كله داخل النفس وعلى مستوى المشاعر فيكون بمثابة الرّقية التي تقرّبه إلى المحرّم من حيث لا يشعر، وكأنه مسلوب الإرادة، لما أحدث له الغناء من تفاعلات نفسية غريزية جعلته أبعد ما يكون عن عالم التعقل، فيقدم على الزنا أو غيره من المحرّمات من دون التفات إلى العاقبة سواء منها الدنيوية أو الأخروية!! «فرب ذي عقل

(١) مضرّات الموسيقى، ص ١٧.

(٢) مستدرك الوسائل، ج ٣، ص ٢١٤ ـ البحار، ج ١٦، ص ٢٩٧.

أشغله هواه عمّا خُلقِ له حتى صار كمن لا عقل له»[1]. فصدقاً إن الغناء رقية الزنا.

الغناء يسلب العزم من الإنسان:

وأيضاً من آثار الغناء الخطيرة على نفس المرء ودينه أنه يسلب منه العزم والإرادة.

فمن يرضى على نفسه أن يكون سارح الخيال.. هائم الفكر.. يعيش في أوهام تسلبه الإرادة والعزم الذي هو جوهرة الإنسانية، ومعيار ميزة الإنسان..

العزم الذي من خلاله يوطن الإنسان نفسه ويتخذ قراراً بترك المعاصي، وبأداء الواجبات، وتدارك ما فاته أيام حياته، ويجعل أوقاته في الليل والنهار بذكر خالقه معموره، وبخدمته موصولة، وحاله في خدمته سرمداً..

يقول الإمام الخميني (قده):

أيها العزيز... اجتهد لتصبح ذا عزم وإرادة، فإنك إذا رحلت من هذه الدنيا دون أن يتحقق فيك العزم على ترك المحرمات فأنت إنسان صوري، بلا لب، ولن تُحْشَر في ذلك العالم (عالم الآخرة) على هيئة إنسان، لأن ذلك العالم هو محل كشف الباطل وظهور السريرة. وإن التجرؤ على المعاصي يُفْقَدُ الإنسانَ تدريجياً، ويَخْتَطِف منه هذا الجوهر الشريف.

يقول الأستاذ المعظم دام ظله (الظاهر أنه الشاه آبادي): «إن أكثر ما يسبب فقدان الإنسان العزم والإرادة هو **الاستماع إلى الغناء**»[2].

---

(١) إرشاد القلوب/ للديلمي.

(٢) الأربعون حديثاً/ ص ٢٥.

فانظر يا أخي الكريم إلى هذه النتيجة المخيفة:

فإذا كان العزم على طاعة الإله جوهرة الإنسانية.

والخروج من الدنيا بلا هذا العزم يجعل الإنسان صورياً، وبلا لب، ولا يحشر في ذلك العالم على هيئة إنسان.

وكان الغناء هو أكثر ما يفقد الإنسان العزم.

فهذا يعني أن الغناء هو من أبرز الأمور التي تحوّلك إلى إنسان صوري، قشري، لا لب لك، ولا مضمون، ولا قيمة، ولا كرامة عند الله تعالى،

وهل فوق هذا خسران؟ وهل بعد هذا من ضلال؟

وهل أحد ممن يمتلك الكرامة الإنسانية بالمفهوم الإلهي يرتضي ذلك لنفسه؟؟

جزاء من نزه نفسه عن الغناء في الدنيا:

من تزكى فإنما يتزكى لنفسه ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه، فإن مردود الالتزام بالأحكام الشرعية الإلهية يعود إلى المكلف نفسه في الدنيا والآخرة فإن الله غني عن العالمين، فرب العالمين تبارك وتعالى يعطي الثواب الجزيل في الجنة لمن نزّه سمعه عن استماع الغناء ففي الرواية عن رسول الله ﷺ: «**ما من عبد يدخل الجنة إلا يجلس عند رأسه وعند رجليه ثنتان من الحور العين، تغنيانه بأحسن صوت سمعه الإنس والجان، ليس بمزمار شيطان، ولكن بتمجيد الله وتقديسه، ذاك لمن نزّه نفسه عن الغناء في الدنيا**»[1].

- وفي رواية أن رجلاً قال يا رسول الله إني رجل حُبِّبَ إليَّ

(١) البحار ج ٨، ص ١٩٦.

الصوت، فهل لي في الجنة صوت حسن؟

فقالﷺ: «**إي والذي نفسي بيده، إن الله تعالى يوحي إلى شجرة في الجنة أن أسمعي عبادي الذين اشتغلوا بعبادتي وذكري عن عزف البرابط والمزامير، فترفع صوتاً لم يسمع الخلائق بمثله قط ـ من تسبيح الرب جلّ جلاله ـ**».

ـ وعن إمامنا الكاظمعليه السلام قال: «**من نزه نفسه عن الغناء فإن في الجنّة شجرة يأمر الله عز وجل الرياح أن تحركها، فيسمع منها صوتاً لم يسمع مثله، ومن لم يتنزه عنه لم يسمعه**»[1].

ـ وعن عاصم بن حميد قال: قلت لأبي عبد اللّه الصادقعليه السلام: جعلت فداك إني أريد أن أسألك عن شيء أستحي منه؟،

قال: سل.

قلت: في الجنة غناء؟

قال: «**إن في الجنة شجرة يأمر الله رياحها فتهب، فتضرب تلك الشجرة بأصوات لم يسمع الخلائق بمثلها حسناً، ثم قال هذا عوضاً لمن ترك السماع في الدنيا مخافة الله**»[2].

(١) وسائل الشيعة ج ١٢، ص ٢٣٦.

(٢) بحار الأنوار، ج ٧٦، ص ٢٤١.

٢ ـ المرحلة الثانية من البحث: فيما يتعلق بحاسة السمع
تنزيه السمع عما لا فائدة منه (اجتناب اللغو):

الإمام عليه السلام يقول من سمات المتقين أنهم: «**وقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم**»، وهي درجة أعلى من تنزيه السمع عن المحرم فحسب.

فالمؤمن المتكامل من يستنفد طاقة سمعه بالإصغاء إلى علم ينتفع منه، ولايهدر وقته بسماع الأحاديث التي لا نفع لها، وبالجلسات المتطاولة التي لا تعود بثمرة عليه لا على الصعيد الدنيوي ولا على الصعيد الأخروي.

فهو يقصر سمعه على العلم، وليس أي علم بل العلم النافع فحسب، فالعلوم كثيرة والعاقل من يقدِّم منها الأنفع له في دينه ودنياه.

والمؤمن المتقي مقبل على شأنه، واضع نصب عينيه:

ـ كون الدنيا مزرعة الآخرة.

ـ وأن هذا العمر المؤلف من دقائق وأيام.. هو رأس ماله الوحيد الذي لا فرصة له غيره..

ـ وأن كل نَفَس يتنفسه مقرب له من حافة قبره، فأنفاس المرء خطاه إلى أجله.. وأنه مجموعة أيام فإن ذهب يوم ذهب بعضه..

ـ وأن مصيبة خسران الوقت والعمر أعظم بكثير من مصيبة خسران المال، لأن المال قد يُعوَّض وأما ما ذهب من العمر فلا طمع في عودته وتعويضه..

ـ وأنه يستطيع في كل جزء من الوقت ما دام في عالم التكليف أن يجني ما يزيد في ملكه في الآخرة، ويرفع من درجة قربه لدى خالقه عز شأنه..

فطبيعي لمن يعتقد بهذا الاعتقاد ويذعن له قلبه أن يستنفذ وقته بما خُلق له، وأن يستفيد من كل لحظة من عمره لزيادة رصيده من العمل الصالح المقرِّب له من خالقه وباريه تبارك وتعالى.

فعن رسول الله ﷺ: «**كن على عمرك أشح منك على درهمك ودينارك**».

وعن أمير المؤمنين عليه السلام:

* «**إن الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما، ويأخذان منك فخذ منهما**».
* «**الساعات تخترم الأعمار، وتدني من البوار**».
* «**رحم الله امرأ علم أن نفسه خطاه إلى أجله، فبادر عمله وقصر أمله**».
* «**من اشتغل بغير المهم ضيع الأهم**».
* «**احذروا ضياع الأعمار فيما لا يبقى لكم، ففائتها لا يعود**».
* «**لو اعتبرت بما أضعت من ماضي عمرك لحفظت ما بقي**».
* «**إن عمرك مهر سعادتك إن أنفذته في طاعة ربك**».

* «**إن أنفاسك أجزاء عمرك، فلا تفنها إلا في طاعة تزلفك**».

* «**إن أوقاتك أجزاء عمرك، فلا تنفد لك وقتاً إلا فيما ينجيك**».

* «**احفظ عمرك من التضييع له في غير العبادة والطاعات**».

* «**شر ما شغل به المرء وقته الفضول**»[1].

ومن الطبيعي أن يُعرض عن كل ما من شأنه أن يفوّت عليه فرصة الاستزادة من الربح الأخروي ومنه الجمود أمام التلفاز لساعات يتلفها من عمره في مشاهدة أفلام إن خليت من المحرمات لا تخلو من كونها لا تضر ولا تنفع، فهي هدر للعمر الثمين الذي يمر مرّ السحاب..!

ومنه الاستماع إلى أحاديث، وأقاصيص، وقيلٍ وقال، يُفني قسطاً كبيراً من عمره (الذي هو رأس ماله) لأجلها في سهرات متطاولة، وجلسات متواترة!!

ويقول (المؤمن المتقي) لأصحاب الأحاديث اللغوية: لي عملي ولكم عملكم، فأنا إنسان أعتقد بذاك الاعتقاد الذي يملي عليَّ الإقبال على شأني، والعمل بجد وبذل كل الوسع، لأجل يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار.. يوم ترى كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تودّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً.. لذلك أنا لا أخاصمكم ولا أجادلكم ولا أقابلكم بالمثل بل أترككم لشأنكم وأذهب لشأني ولكم مني الأمان..

ويصف رب العالمين (تعالى) هذه الثلة من المؤمنين الكمّل بقوله عزّ من قائل: «**وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين**»[2].

---

(١) راجع ميزان الحكمة.

(٢) سورة القصص، الآية: ٥٥.

قال في معجم ألفاظ الفقه الجعفري:

اللغو: (الهراء، ما لا يعتد به من كلام وغيره، ولا يحصل منه على فائدة أو نفع)[1].

وفي معجم لغة الفقهاء:

(ما لا يعتد به من كلام وغيره)[2].

ويقول العلامة الطباطبائي (قده) (اللغو: ما لا يعتد به من الأفعال والأقوال لعدم اشتماله على غرض عقلاني، فعباد الرحمن إذا مروا بأهل اللغو وهم يلغون مروا معرضين عنهم منزهين أنفسهم عن الدخول فيهم والاختلاط بهم ومجالستهم)[3].

ويقول (قده): المراد باللغو (في الآية) لغو الكلام بدليل تعلقه بالسمع، **والمراد سقط القول الذي لا ينبغي الاشتغال به من هذر أو سب وكل ما فيه خشونة**، ولذا لما سمعوه أعرضوا عنه ولم يقابلوه بمثله وقالوا: لنا أعمالنا ولكم أعمالكم وهو متاركة، وقوله: (سلام عليكم) أي أمان منا لكم، وهو أيضاً متاركة وتوديع تكرماً كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾.

وقوله: ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ أي لا نطلبهم بمعاشرة ومجالسة، وفيه تأكيد لما تقدمه، وهو حكاية عن لسان حالهم إذ لو تلفظوا به لكان من مقابلة السيء بالسيء[4].

فالمؤمنون يعتبرون أهل مجالس اللغو جاهلين، فلا يطلبون مجالسهم، ولا يقصدونها، وإذا ابتلو مرة بالتواجد فيها تاركوا أهلها

---

(١) معجم ألفاظ الفقه الجعفري ـ الدكتور أحمد فتح الله ص ٣٥٦.

(٢) معجم لغة الفقهاء ـ محمد قلعجي، ص ٣٩٢.

(٣) تفسير الميزان، ج ١٥، ص ٢٤٤.

(٤) تفسير الميزان ـ السيد الطباطبائي ج ٦١، ص ٥٥.

بسلام وذهبوا إلى شأنهم وما ينفعهم.

ويقول الشيخ الطوسي (قده) في تفسيره:

وإذا سمعوا لغواً من الكلام، ورأوا لغوا من الفعل أعرضوا عنه، ولم يخاصموا فيه فقالوا لفاعل اللغو «لنا أعمالنا ولكم أعمالكم» أي لنا جزاء أعمالنا ولكم جزاء أعمالكم «سلام عليكم» أي ويقولون لهم قولاً يسلمون منه. ويقولون «لا نبتغي الجاهلين» أي لا نطلبهم ولا نجازيهم على لغوهم. **واللغو الفعل الذي لا فائدة فيه**، وإنما يفعله فاعله على توهم فاسد[1].

ويقول الشيخ الطبرسي (قده) في مجمع البيان:

(وإذا سمعوا اللغو) أي: السفه من الناس، والقبيح من القول، والهزء الذي لا فائدة فيه.

(أعرضوا عنه) ولم يقابلوه بمثله (وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم) أي: لا نسأل نحن عن أعمالكم، ولا تُسْأَلون عن أعمالنا، بل كل منا يجازى على عمله. وقيل: معناه لنا ديننا ولكم دينكم. وقيل: لنا حلمنا، ولكم سفهكم. (سلام عليكم) أي: أمان منا لكم أن نقابل لغوكم بمثله... (لا نبتغي الجاهلين) أي لا نطلب مجالستهم ومعاونتهم، وإنما نبتغي الحكماء والعلماء. وقيل: معناه لا نريد أن نكون من أهل الجهل والسفه، عن مقاتل[2].

وكيف يتلف المؤمن وقته ويشتغل بسماع اللغو وهو يعلم حقيقة الدنيا وبأنها ليست بدار قرار بل هي ممر للتزود؟!

بل هو عاكف على الأخذ من ممره إلى مقره، وهو يعلم أن كل

(١) التبيان ـ الشيخ الطوسي ج ٨، ص ١٦٢.
(٢) تفسير مجمع البيان ـ الشيخ الطبرسي ج ٧، ص ٤٤٦.

لحظة بل كل نفس يتنفسه هو محسوب عليه بدقة بحيث إذا جاء أجله لا يستأخر ساعة ولا يستقدم، وهو لا يدري ساعة الأجل متى تحل:

يا نائم الليل مسروراً بأوله إن الحوادث قد يأتين أسحاراً

فانظر يا أخي إلى ما سأذكره لك من أمثلة وتشبيهات موقظة وموضحة لحقيقة الدنيا علّها تكون مُحَفِّزَةً لترك الاشتغال باللغو وبما لا ينفع، وترك إضاعة هذا العمر الثمين في أمور تافهة لا تجني سوى الحسرات عند سكرات الموت ويوم القيامة..

المثال والتشبيه الأول:

ـ إن اغترار الإنسان بالدنيا، وغفلته عن الموت وما بعده من الأهوال، وانهماكه في اللذات العاجلة الفانية الممتزجة بالكدورات، وإتلافه للعمر بما لا ينفع غافلاً عن مصيره الرهيب، مثله كمثل شخص مدلّى في بئر، مشدود وسطه بحبل، وفي أسفل ذلك البئر ثعبان عظيم متوجه إليه، منتظر سقوطه، فاتح فاه لالتقامه، وفي أعلى ذلك البئر جرذان أبيض وأسود، لا يزالان يقرضان ذلك الحبل شيئاً فشيئاً، ولا يفتران عن قرضه آنا من الآنات، وذلك الشخص، مع أنه يرى ذلك الثعبان ويشاهد انقراض الحبل آنا فآنا، قد أقبل على قليل عسل قد لطخ به جدار ذلك البئر وامتزج بترابه واجتمعت عليه دبابير كثيرة، وهو مشغول بلطعه منهمك فيه، ملتذ بما أصاب منه مخاصم لتلك الدبابير عليه، قد صرف باله بأجمعه إلى ذلك، غير ملتفت إلى ما فوقه وإلى ما تحته. فالبئر هو الدنيا، والحبل هو العمر، والثعبان الفاتح فاه هو الموت، والجرذان الليل والنهار القارضان للعمر، والعسل المختلطة بالتراب هو لذات الدنيا الممتزجة بالكدورات والآلام، والدبابير هم أبناء الدنيا المتزاحمون عليها[1].

(١) جامع السعادات ج ٢ ـ محمد مهدي النراقي ص ٣٠.

التشبيه الثاني:

- **وشبه بعض العرفاء الدنيا وأهلها**، في اشتغالهم بنعيمها وغفلتهم عن الآخرة، وحسراتهم العظيمة بعد الموت لإضاعة العمر وفقدهم نعيم الجنة بسبب انغمارهم في لغوها ولهوها وخسائسها: بقوم ركبوا السفينة، فانتهت بها إلى جزيرة، فأمرهم الملاح بالخروج لقضاء الحاجة، وحذرهم المقام فيها، وخوفهم مرور السفينة واستعجالها، فتفرقوا في نواحي الجزيرة، فقضى بعضُهم حاجتَه، وبادر إلى السفينة، فصادف المقام خالياً، فأخذ أوسع الأماكن وأوفقها بمراده. وبعضُهم توقَّفَ في الجزيرة، واشتغل بالنظر إلى أزهارها وأنوارها وأشجارها وأحجارها ونغمات طيورها، ثم تنبه لخطر فوات السفينة، فرجع إليها، فلم يصادف إلا مكاناً ضيقاً، فاستقر فيه. وبعضهم، بعد التنبه لخطر مرور السفينة، لما تعلق قلبه ببعض أحجار الجزيرة وأزهارها وثمارها، لم تسمح نفسه بإهمالها، فاستصحب منها جملة ورجع إلى السفينة، فلم يجد فيها إلا مكاناً ضيقاً لا يسعه إلا بالتكلف والمشقة، وليس فيه مكان لوضع ما حمله، فصار ذلك ثقلاً عليه ووبالاً، فندم على أخذها، ولم يقدر على رميها، فحملها في السفينة على عنقه متأسفاً على أخذها، وبعضهم اشتغل بمشاهدة الجزيرة، بحيث لم يتنبه أولاً من خطر مرور السفينة ومن نداء الملاح، حتى امتلأت السفينة، فتنبه أخيراً ورجع إليها، مثقَلاً بما حمله من أحجار الجزيرة وحشائشها، ولما وصل إلى شاطىء البحر سارت السفينة ولم يجد فيها موضعاً أصلاً، فبقي على شاطىء البحر. وبعضهم لكثرة الاشتغال بمشاهدة الجزيرة وما فيها نسوا المركب بالمرَّة، ولم يبلغهم النداء أصلاً، لكثرة انغمارهم في أكل الثمار وشرب المياه والتنسم بالأنوار والأزهار والتفرج بين الأشجار، فسارت السفينة وبقوا في الجزيرة من دون تنبههم بخطر مرورها، فتفرقوا فيها، فبعضهم نهشته العقارب والحيات، وبعضهم افترسته السباع، وبعضهم مات في

الأوحال، وبعضهم هلك من الندامة والحسرة والغصَّة. وأما من بقي على شاطىء البحر فمات جوعاً، وأما من وصل إلى المركب مثقلاً بما أخذه، فشغله الحزن بحفظها والخوف من فوتها وقد ضَيَّق عليه مكانه، فلم يلبث أن ذبلت ما أخذه من الأزهار، وعفنت الثمار، وكمدت ألوان الأحجار، فظهر نتن رائحتها، فتأذى من نتن رائحتها ولم يقدر على إلقائها في البحر لصيرورتها جزءاً من بدنه، وقد أثر فيه ما أكل منها، ولم ينته إلى الوطن إلا بعد إحاطة الأمراض والأسقام عليه لأجل ما لم ينفك عنه من النتن، فبلغ إليه سقيماً مدنفاً، فبقي على سقمه أبداً، أو مات بعد مدة. وأما من رجع إلى المركب بعد تضيّق المكان، فما فاته إلا سعة المحل، فتأذى، بضيق المكان مدة، ولكن لما وصل إلى الوطن استراح ومن رجع إليه أولاً ووجد المكان الأوسع فلم يتأذ من شيء أصلاً ووصل إلى الوطن سالماً. فهذا مثال أصناف أهل الدنيا في اشتغالهم بحظوظهم العاجلة، ونسيانهم وطنهم الحقيقي، وغفلتهم عن عاقبة أمرهم. وما أقبح بالإنسان أن تغرّه أحجار الأرض وهشيم النبت: مع مفارقته عند الموت وصيرورته كلاً ووبالاً عليه[1].

الحسرة على هدر الوقت عند رؤية ملك الموت:

فما أعظم الحسرة على ساعات العمر التي ضاعت وهدرت من دون استثمار عند رؤية ملك الموت فقد روي:

أن ملك الموت إذا ظهر للعبد عند موته أعلمه أنه قد بقي من عمرك ساعة لا تستأخر عنها طرفة عين، فيبدو للعبد من الحزن والحسرة والأسف ما لو كانت له الدنيا بحذافيرها لأعطاها بدل أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ليتدارك فيها تفريطه، ولا يجد إليها سبيلاً.

---

(١) المصدر.

وقد روي ـ أيضاً ـ أنه إذا كشف الغطاء للعبد قال لملك الموت: أخرني يوماً أعتذر فيه إلى ربي وأتوب، وأتزوّد صالحاً لنفسي، فيقول: فَنِيَت الأيام فلا يوم، فيقول: أخرني ساعة، فيقول: فَنِيَت الساعات فلا ساعة، فيغلق عليه باب التوبة، فيغرغر بروحه، وتتردد أنفاسه في شراسيفه، ويجرع غصة اليأس عن التدارك وحسرة الندامة على تضييع العمر فيضطرب أصل إيمانه في صدمات تلك الأهوال[1].

وفي رواية: يدخل عليه مَلَكٌ (عند النزع) فيقول السلام عليك أنا الملك الموكل بآجالك وأعمارك طلبت في الأرض شرقاً وغرباً فما وجدت لك أجلاً حتى دخلت الساعة!

ويدخل عليه مَلَكٌ فيقول أنا الملك الموكل بأنفاسك طلبت في الأرض شرقاً وغرباً فما وجدت لك نفساً واحداً من أنفاسك!!

وعن الصادق عليه السلام في تفسير الآية الكريمة: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾.

إنه قال عليه السلام: «**يعد السنين ثم يعد الشهور ثم يعد الأيام ثم يعد الساعات ثم يعد النَّفَس فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون**».

فيا لها من حسرة لا يمكن إدراك ألمها ولا توصيف حرقتها!!

الحسرة على تفويت العمر يوم القيامة:

وما أعظَمَها حسرةً يوم القيامة عندما يطَّلِع المرءُ على ساعات نهاره وليله كيف كان يطويها من دون أداء طاعة أو تأدية عمل صالح مقرب من (الباري عز وجل).

---

(١) جامع السعادات ج ٣ ـ محمد مهدي النراقي ص ٤٨.

ففي الخبر النبوي ﷺ: إنه يفتح للعبد يوم القيامة على كل يوم من أيام عمره أربع وعشرون خزانة عدد ساعات الليل والنهار، فخزانة يجدها مملوءة نوراً وسروراً فيناله عند مشاهدتها من الفرح والسرور ما لو وُزّع على أهل النار لأدهشهم عن الإحسان بألم النار وهي الساعة التي أطاع فيها ربه، ثم يفتح له خزانة أخرى فيراها مظلمة منتنة مفزعة فيناله منها عند مشاهدتها من الفزع والجزع ما لو قسّم على أهل الجنة لنقص عليهم نعيمها وهي الساعة التي عصى فيها ربه، ثم يفتح له خزانة أخرى فيراها خالية ليس فيها ما يسره ولا يسوؤه وهي الساعة التي نام فيها، أو اشتغل فيها بشيء من مباحات الدنيا فيناله من الغبن والأسف على فواتها حيث كان متمكناً من أن يملأها حسنات ما لا يوصف، ومن هذا قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾[1].

فلنقل لأنفسنا كل يوم محاسبين ما قاله الشيخ الكفعمي (قده) في محاسبة النفس:

يا نفس: هذا يوم جديد، وهو عليك شهيد، فاعملي فيه لله بطاعته، وإياك إياك من إضاعته، فإن كل نَفَس من الأنفاس، وحاسة من الحواس، جوهرة عظيمة، ليس لها من قيمة...

يا نفس: إن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة، فاشتغلي فيها بالطاعة، فقد ورد في الخبر عن سيد البشر: أنه ينشر للعبد كل يوم أربع وعشرون خزانة، بعضها فارغة وبعضها ملانة.. فإن فتحت الفارغة من الأعمال، الموصوفة بالتكاسل والإهمال، لحقه الحزن العظيم، على خلوها من الثواب الدائم المقيم...

يا نفس: فاملئي تلك الساعات من الحسنات، واشحنيها بما شق

(١) عدة الداعي - ابن فهد الحلي ص ١٠٣.

من العبادات والقربات، ولا تميلي إلى الكسل والاستراحة، فما ملأ الراحة من استوطأ الراحة.

وهب كنتِ مسيئة قد عُفِيَ عن جريرتِك، وسُتِرَ على سريرتك، أليس قد فاتك ثوابُ المحسنين، ودرجاتُ الأرار في عليين؟!

صدقاً من أيقن بهذه المضامين، وأذعن لهذه الحقائق، واستنار قلبه بنور البصيرة، وخرج من ظلمات الوهم، وأُكْرِم بنور الفهم، عمل على عدم إضاعة ساعة من عمره فيما لا يعنيه من أمر آخرته، ومع ذلك يبقى شعوره بالتقصير لا يبرح خياله، فإذا ألقينا نظرة إلى أئمتنا وقادتنا وأولياء نعمتنا أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام لوجدنا عجباً!

فهذا إمامنا زين العابدين عليه السلام كان يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة، ففي علل الشرائع:

عن عبد العزيز بن أبي حازم قال: سمعت أبا حازم يقول: «**ما رأيت هاشمياً أفضل من علي بن الحسين وكان** عليه السلام يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة»[1].

وعن الباقر عليه السلام: «**كان علي بن الحسين** عليهما السلام يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة، وكانت الريح تميله بمنزلة السنبلة، وكانت له خمسمائة نخلة، فكان يصلي عند كل نخلة ركعتين»[2].

وكان مع ذلك يدعو بصحيفة أمير المؤمنين عليه السلام ثم يرمي بها كالمتضجر ويقول: «**أنى لي بعبادة علي**»[3].

وإذا أتينا إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام نجده يتأوه من قلة الزاد،

(١) علل الشرائع ـ الشيخ الصدوق ج ١، ص ٢٣٢.
(٢) مستدرك الوسائل ـ الميرزا النوري ج ٣، ص ٦٩.
(٣) كشف اليقين ـ العلامة الحلي ص ١١٨.

يقول ضرار بن ضمرة: (فأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله، وهو قائم في محرابه قابض على لحيته، يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين ويقول: يا دنيا يا دنيا إليك عني، أبي تعرضت، أم إلي تشوقت: لا حان حينك هيهات غري غيري، لا حاجة لي فيك، قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها، فعيشك قصير، وخطرك يسير، وأملك حقير. آه من قلة الزاد، وطول الطريق، وبعد السفر، وعظيم المورد)[1].

وأما إمامنا الحسين عليه السلام، فقد ذكر ابن عبد ربه في الجزء الرابع من كتاب العقد، قال قيل لعلي بن الحسين عليه السلام ما أقل ولد أبيك؟! فقال: **«العجب كيف ولدت له كان يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة فمتى كان يتفرغ للنساء»**[2].

وإمامنا الصادق عليه السلام كان له أوراد من ذكر وعبادة في كل ساعة من آناء الليل والنهار كما يستفاد ذلك من رواية عنوان البصري:

ففي البحار، عن عنوان البصري ـ وكان شيخاً كبيراً قد أتى عليه أربع وتسعون سنة ـ قال: كنت أختلف إلى مالك بن أنس سنين، فلما قدم جعفر الصادق عليه السلام المدينة اختلفت إليه، وأحببت أن آخذ عنه كما أخذت عن مالك، فقال لي يوماً: إني رجل مطلوب ومع ذلك **لي أوراد في كل ساعة من آناء الليل والنهار، فلا تشغلني عن وردي**، وخذ عن مالك، واختلف إليه كما كنت تختلف إليه، فاغتممت من ذلك، وخرجت من عنده وقلت في نفسي: لو تفرس في خيراً لما زجرني عن الاختلاف إليه والأخذ عنه[3].

---

(١) نهج البلاغة ـ خطب الإمام علي عليه السلام ج ٤، ص ١٦.
(٢) اللهوف في قتلى الطفوف ـ السيد ابن طاووس الحسني ص ٥٧.
(٣) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي ج ١، ص ٢٢٤.

وكان مالك بن أنس فقيه المدينة يقول كنت أدخل إلى الصادق جعفر بن محمدعليه السلام فيقدم لي مخدة ويعرف لي قدراً ويقول يا مالك إني أحبك فكنت أسر بذلك وأحمد الله تعالى عليه قال: «**وكانعليه السلام لا يخلو من أحد ثلاث خصال أما صائماً وأما قائماً وأما ذاكراً**»[1].

* فصل في حرص علمائنا الأبرار عملياً على الاستفادة من كل ساعة من ساعات عمرهم الشريف:

حقاً إن علماءنا الربانيين (رضوان الله عليهم) هم شموس ساطعة في سماء الفضيلة والقيم، جاهدوا أنفسهم أيماً جهاد ليلتحقوا بقائدهم أهل الولاية والعصمةعليهم السلام بعد التأسي بأفعالهم، واقتفاء آثارهم، وانتهاج نهجهم، والسير على خطاهم، فكانوا مثال الحلقة الموصلة لنا بهمعليهم السلام وإليك باقة من أزاهير حدائق مناقبهم المونقة، المتألقة بنور الرسالة، التي تشتم منها أريج الولاية الإلهية، وتتلمس في ثناياها بصمات الإمامة، وعبق النبوة، أليس العلماء ورثة الأنبياء؟.

أليس العلماء أمناء الرسل ما لم يدخلوا في الدنيا؟.

* آية الله البروجردي (قده) *

ذكر عنه (قده) أنه عند تصديه للمرجعية وإدارة شؤون الأمة كثرت انشغالاته فكان يتأخر دقائق عن موعد الدرس، حيث الطلبة العلماء ينتظرونه لإلقاء دروسه في الفقه الاستدلالي المعروف في الحوزات العلمية (بالبحث الخارج).

وفي إحدى المرات زاد تأخره دقائق أكثر مما كان يتأخر عادة.

وعند وصوله إلى قاعة الدرس اعترض عليه أحد الطلاب من

(١) علل الشرائع ـ الشيخ الصدوق ج١، ص ٢٣٥.

العلماء بلطف وقال: إن أوقات الطلبة تضيع هكذا!

فقال له السيد البروجردي (قده): «**لماذا تتلفون أوقاتكم؟ أنا حفظت اثني عشر جزءاً من القرآن الكريم في أوقات الانتظار**».

فأنتم لا تجلسوا كذلك عاطلين، بل استفيدوا من دقائق الانتظار لحفظ الآيات القرآنية»[1].

وهو نفسه هذا الرجل الذي ما كان يتلف حتى أوقات الانتظار، بل كان يستفيد منها حتى حَفِظَ في أثنائها اثني عشر جزءاً من القرآن، عندما كان على فراش مرضه الأخير كان يتحسر على العمر الذي ضاع، وعلى الوقت الذي لم يستغل، كما ينقل الشهيد مطهري (قده)، فقال له أحد الحاضرين سيدنا أنتم تقولون ذلك مع ما لكم من خدمات للدين ولشريعة سيد المرسلين..؟!!

فلم يعر (قده سره) أهمية لذلك الكلام، وبقي على تضجره وتحسّره على أوقات لم تُسْتَغَل ولم يستفد منها حق الاستفادة..

مع أنك إذا اطلعت على سيرة هذا العظيم لوجدتها حافلة بطاعة الله وخدمة عباده، ولكن عباد الرحمن المخصلين يتحسرون حتى على الأوقات التي يصرفونها بالمباحات؟!!

* آية الله الشيخ محمد حسن النجفي (صاحب الجواهر (قده) *

يقول الشيخ عباس القمي (قده) كان لصاحب الجواهر ولد رشيد اسمه الشيخ حميد، كان متكفلاً بكل أمور والده، والشيخ صاحب الجواهر متفرغ لتأليف كتابه الفقهي (الجواهر) ولا يحمل هم أمور المعاش، فتوفي ولده هذا فجأة، فحزن عليه حزناً شديداً وقال: انقطعت

(١) كتاب مردان علم در ميدان عمل، ص ٢١٢.

بي الأسباب، وضاق صدري وضاقت الدنيا في عيني، وصرت لا أستقر ليلاً ولا نهاراً، دائم التفكر، مضطرب القلب حزيناً كئيباً، وبينما أنا كذلك وقد خرجت من مجلس كنت فيه أول الليل، وأنا متوجه إلى البيت، إذ نوديت من خلفي (لا تفكر، لك الله) فالتفتُّ حولي فلم أرَ أحداً، فحمدت الله تعالى وتوجهت إليه، فَفُتِحَتْ عليَّ بعد تلك الليلة أبوابُ رحمته وانتظمت أموري وترقت أحوالي[1]، والشيء العجيب الذي أريد أن أبينه في مقامنا هو أن الشيخ في تلك الليلة التي مات فيها هذا الإبن البَارّ الذي كان يعني الكثير لوالده، حضر جنازته وبيده قلمه وأوراقه، يكتب أسطراً من كتابه (الجواهر) ودموعه منهمرة على لحيته البيضاء، والحزن يعتصر قلبه على هذا المصاب الجلل!!

وذلك حيث أنه كان قد أخذ على نفسه أن يكتب كل يوم قسطاً من كتابه الفقهي الاستدلالي الكبير (جواهر الكلام) الذي يُعْتَبَر من أهم مصادر الأبحاث الفقهية العالية في الحوزة العلمية المقدسة.

فبالفعل هذا أمر تعجز عن تصديقه الأذهان الخاملة، والإرادات الخائرة، والهمم المتدنية الضعيفة!!

* آية الله السيد محمد باقر الصدر (قده) *

كان (قده) يتخذ منهجاً خاصاً لتربية نفسه.. فقد كان يقتطف أكثر من عشرين ساعة من الليل والنهار للتحصيل العلمي، وكان يقسمها بين المطالعة والكتابة والتفكير..

وكان لا يخلد إلى النوم حتى في أشد أيام الصيف حرارة، فكان حتى في هذا الوقت لا يفارق كتبه، وقد قارب الخمسين من عمره الشريف!

(١) الفوائد الرضوية، ص ٤٥٤.

نعم في العام الأخير من عمره وبعد أن ضعفت قواه كان يستلقي على فراشه أقل من ساعة، يقول الشيخ النعماني: كان يقول لي إذا رآني نائماً: لم أعود نفسي على النوم لأن العمر قصير، فَلِمَ تعوِّد نفسك على ذلك وأنت لا زلت شاباً[1].

ـ ويقول أحد تلامذة السيد الشهيد (قده): لقد دعانا السيد (قده) وقد كنا لا نتجاوز العشرة طلاب قد التحقنا بدروسه جديداً، وعند حضورنا الاجتماع قال لنا (قده):

«إني أريد أن أخوض بكم البحر في المستقبل القريب اجهدوا فإني كنت أجهد وأتعب في اليوم (١٨) ساعة، وأعمل في طلب العلم ما يعادل عمل ثلاثة أشخاص مجدين»[2].

* الإمام الخميني (قده) *

ـ كان (قده) في أصعب الظروف لا يسمح لوقته أن يمر سدى وبلا استفادة منه، فكان وهو على سرير مرضه وربما الخراطيم بيده يضع المصحف أمامه ويتلو من آياته ما فيه شفاء ورحمة. وكان مفروضاً عليه طبياً أن يمشي كل يوم مدة زمنية محددة، فكان (قده) حتى أثناء التمشي لا تفارق السبحة يده، وهو مشغول بالذكر والزيارة..!

* العلاّمة الطباطبائي (قده) *

ـ يقول أحد تلامذته كنت أراه في الطريق منشغلاً بذكر الله تعالى.

وفي الجلسات عندما يخيّم الصمت كانت شفتاه تتحركان بذكر الله تعالى.

---

(١) الشهيد الصدر (سنوات المحنة وأيام الحصار) ص ٨٠ ـ ٨١.

(٢) المبلغ الرسالي، عدد ٢٧، سنة ١٤١٣.

وكان أحياناً في الطريق يصلي النافلة..!

حتى أن البعض كان يستغرب من السيد حيث أنه يمر بقربه دون أن ينتبه إليه أو يشير إليه بالسلام، ولم يكن يدري بأن السيد مشغول بأداء النوافل حتى في طي طريقه نحو الدرس أو أي مقصد آخر[1].

* الشيخ نصير الدين الطوسي (قده) *

ـ كان (قده) يفترش حوله الكتب المتنوعة، فيطالعها على حساب ساعات نومه، وكان إذا تعب من كتاب تناول كتاباً آخر في موضوع آخر.

وكان يجعل بجانبه إناء ماء لينضح وجهه بالماء من حين لآخر كي يتغلب على نعاسه في جوف الليل[2]!.

* آية الله الشيخ هاشم القزويني *

ـ ينقل المرحوم الأستاذ جلال همائي، أنه كان يدرس مع الشيخ هاشم القزويني (الذي هو من كبار أساتذة الحوزة في مدينة مشهد المقدسة) في أصفهان فترة الشباب.

يقول وذات مرّة كنا نتباحث في الدرس وإذا بالشيخ ينقلب وضعه ويفترش الأرض مغمى عليه، فسارعت خائفاً أطلب له طبيباً، ولمّا عاينه الطبيب أمر بإعطائه ماءً محلّى بالسكر، شَرِبَ قليلاً ففتح عينيه. ثم جلس وفتح كتابه مباشرة وهو يسألني: أين وصلنا في البحث؟! وكأنه لم يحدث له طارىء!

وأشار إليَّ الطبيب في الخارج أن إغماء الشيخ كان بسبب الجوع!!

---

(١) يادنامه علامة طباطبائي، ١٣١.

(٢) قصص العلماء، ص ٦٠.

ولما حققت في أمره علمتُ أَنَّه لم يتذوق طعاماً منذ يومين، لشدة فقره، ولم يخبر أحداً لتعففه[1].

ولست أدري لأي شيء أعجب في هذه الحادثة! أَلِشِدَّةِ تَعفُّف وصبر الشيخ (رض)!

أم لشدة حرصه على تحصيل العلم المفيد وعدم إضاعة الوقت حتى مع ما به من ابتلاء الجوع المضني؟! حيث إنه يفيق فلا يسأل عن وضعه وما أَلَمَّ به! وإنما يقول لصاحبه: (أين وصلنا في البحث)!!

* الميرزا القمي (قده) *

ـ إن من جملة ما يُحْكَى من ارتفاع همة هذا العلم (رض)، ومن حرصه على عدم إضاعة الوقت، وعلى إشغال هذا العمر القصير بما يكون نافعاً في يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار، إنه كان إذا غلبه النوم في آخر الليل يضع سراجه تحت طاسة كان يضعها تحته، ثم يضع يديه عليها وجبهته الشريفة عليهما ويكتحل عليه بشيء من النوم بقدر ما تسخن الطاسة من حرارة وهج السراج، فلا يطيق وضع يديه بعد ذلك عليها، فأعظم به من احتمال المرارة العظمى، ومخالفة النفس والهوى، في مقام تأييد الدين المبين[2]!!

ختام:

وأختم هذه السِّمَة من سمات المتقين بمقطعين من أدعية أئمة الهدى عليهم السلام التي تطفح بالإرشاد إلى حسن الاستفادة من فرصة العمر الثمينة فتدعو الإنسان إلى إنفاق عمره فيما خُلِقَ له من العلم والعمل الصالح وطاعة الرب المنعم الكريم.

---

(١) تعليم وتعلم/ باللغة الفارسية، ص ٧٦.

(٢) روضات الجنات/ الخونساري ج ٥، ص ٣٧٨.

ففي دعاء كميل: «**واجعل أوقاتي في الليل والنهار بذكرك معمورة، وبخدمتك موصولة، وأعمالي عندك مقبولة، حتى تكون أعمالي وأورادي كلّها ورداً واحداً، وحالي في خدمتك سرمداً..**».

وفي دعاء مكارم الأخلاق: «**اللهم صل على محمد وآله واكفني ما يشغلني الاهتمام به، واستعملني بما تسألني غداً عنه، واستفرغ أيامي فيما خلقتني له**»[1].

إن امتياز الإنسان عن سائر العجماوات ليس إلا بهذه القوة العاقلة، التي قد خصَّه الله بها من بينها، المميزة بين الخطأ والصواب، المقتضية لتحصيل العلوم النافعة له والاشتغال بالعبادة والطاعة الموجبة للسعادة في هذه الدار وفي دار المآب، فقعوده عن استعمالها فيما خُلِقَ له، وانهماكه وصرف عمره في المأكل والمشرب، وغيرهما من الأعمال التي يشاركه فيها سائر الحيوانات ـ حتى الديدان والخنافس فإنها تأكل وتشرب وتجمع القوت وتتناكح وتتوالد ـ مع أنه قادر على أن يستفيد من كل ساعة من ساعات حياته، وقادر على أن يَتَرقّى لأن يصير خليفة الله في أرضه باستعمال قوّته في العلم والعمل، هو خسران ما بعده خسران!

فأُنَبِّهُ نفسي ومعشر إخواني الأعزاء أيقظنا الله جميعاً من سبات الغفلة على اغتنام أيام المُهْلَة، وتلافي التفريط، قبل فوات الأوان وانقضاء فرصة الجبران، فيا لها حسرة لا يمكن تداركها، وندامة تخلد محنتها! نبهنا الله وإياكم من نومة الغافلين، وجعل ما بقي من أيام هذه المهلة مصروفاً في العلم والعمل الصالح.

«**رب وعمّرني ما كان عُمْري بذلةً في طَاعتِك فإن كان عُمْري مرتعاً للشيطان فاقبضني إليك قبل أن يَسْبِقَ مقتُكَ إليّ أو يستحكِمَ غضبُكَ عليّ**».

---

(١) الصحيفة السجادية (جامعة المدرسين)، ص ٩٩ ـ ١٠٠.

فمن أراد أن يكون من المتقين عليه أن يتسم بهذه السِّمَة من سماتهم وهي أن يقصر سمعه على العلم النافع له، كما يقول إمام المتقين عليه السلام: «... ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم».

وقد فرغت من كتابة هذه الصفحات
أنا العبد الفقير إلى رحمة ربه الغني
رضا علي حجازي العاملي عاملني الله بلطفه،
حامداً شاكراً مصلياً على النبي محمد وآله (صلى الله عليهم أجمعين)
في غرة جمادي الأولى ١٤٢٤هـ/ ١ تموز من سنة ٢٠٠٣ م
وتلي هذه السِّمات سمات أخرى في جزء آخر
من الكتاب بمشيئة المولى عزّ وجلّ

فهرست المصادر

ـ القرآن الكريم	كتاب الله المجيد
ـ نهج البلاغة	الإمام علي بن أبي طالب (ع)
ـ الصحيفة السجادية	الإمام زين العابدين (ع)
ـ بحار الأنوار	العلامة المجلسي (قده)
ـ وسائل الشيعة	الحرّ العاملي (قده)
ـ منية المريد	الشهيد الثاني (قده)
ـ من لا يحضره الفقيه	الشيخ الصدوق (قده)
ـ الكافي	الكليني (قده)
ـ نزهة الناظر وتنبيه الخاطر	الحلواني
ـ غرر الحكم	الآمدي
ـ كنز العمّال	المتقي الهندي
ـ مصباح الشريعة	منسوب للإمام الصادق (ع)
ـ المحجة البيضاء	الفيض الكاشاني (قده)
ـ الذنوب الكبيرة	السيد دستغيب (قده)

ـ تحف العقول	الحرّاني
ـ مجمع البيان	الطبرسي (قده)
ـ اليوم الآخر	الشهيد دستغيب (قده)
ـ القصص العجيبة	الشهيد دستغيب (قده)
ـ إرشاد القلوب	الديلمي (قده)
ـ تفسير الميزان	العلاّمة الطباطبائي (قده)
ـ جهاد النفس	الشيخ المظاهري
ـ عقاب الأعمال	الشيخ الصدوق (قده)
ـ قبسات من سيرة النجفي (قده)	السيد عادل العلوي
ـ مجلة (باسدار اسلام)	بالفارسية
ـ المكاسب المحرّمة	الشيخ الأنصاري (قده)
ـ مستدرك الوسائل	المحدِّث النوري (قده)
ـ الكشّاف	الزمخشري
ـ مفردات ألفاظ القرآن	الراغب الأصفهاني
ـ لسان العرب	ابن منظور
ـ النهاية	ابن الأثير
ـ الأنوار النعمانية	نعمة الله الجزائري (قده)
ـ الترغيب	المنذري
ـ روضة الكافي	الكليني (قده)
ـ مصباح الفقاهة	أبحاث السيد الخوئي (قده)

- مردان علم در ميدان عمل بالفارسية
- مهر تابان بالفارسية
- ميزان الحكمة الريشهري
- مستدرك سفينة البحار الشيخ علي النمازي
- المناقب ابن شهراشوب
- الإمام علي (ع) أحمد الرحماني الهمداني
- خصائص الأئمة الشريف الرضي (قده)
- شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد
- كتاب الأربعين محمد طاهر القمي الشيرازي
- روضة الواعظين الفتال النيسابوري
- أمالي الشيخ الطوسي الشيخ الطوسي (قده)
- عيون الحكم والمواعظ الليثي الواسطي
- شرح مائة كلمة لأمير المؤمنين (ع)ابن ميثم البحراني (قده)
- التواضع والخمول ابن أبي الدنيا
- الخصال ابن بابوية القمي (قده)
- مشكاة الأنوار الطبرسي (قده)
- الروضة البهية الشهيد الثاني (قده)
- نور البراهين السيد الجزائري (قده)
- روضات الجنّات الخونساري (قده)
- تعليم وتعلّم بالفارسية

- يادنامه علامة طباطبائي بالفارسية
- قصص العلماء التنكابني (قده)
- الشهيد الصدر (سنوات المحنةالنعماني وأيام الحصار)
- الفوائد الرضوية المحدِّث القمي (قده)
- علل الشرائع الشيخ الصدوق (قده)
- كشف اليقين العلامة الحلّي (قده)
- اللهوف في قتلى الطفوف ابن طاووس (قده)
- عدّة الداعي ابن فهد الحلّي (قده)
- جامع السعادات الزّاقي (قده)
- معجم ألفاظ الفقه الجعفري أحمد فتح الله
- معجم لغة الفقهاء محمد قلعجي
- الأربعون حديثاً الإمام الخميني (قده)
- مَضرّات الموسيقى
- مجلة طهران مصور بالفارسية
- تفسير القرآن القرطبي
- تفسير القرآن الشوكاني
- تفسير القرآن الآلوسي
- نقد العلم والعلماء ابن الجوزي
- سنن البيهقي البيهقي

ـ نيل الأوطار	الشوكاني
ـ الغدير	العلامة الأميني (قده)
ـ لئالئي الأخبار	التوسرگاني
ـ دعائم الإسلام	القاضي النعماني المغربي
ـ رسالة لقاء الله	الملكي التبريزي (قده)
ـ سيماء الصالحين	المختاري
تفسير القرآن	العيّاشي
ـ تواريخ الأنبياء	اللوساني
ـ المبسوط	الطوسي (قده)
عيون أخبار الرضا (ع)	الصدوق (قده)
ـ طب الأئمة	ابن سابور الزيات
ـ التربية الجنسية	
ـ الإقبال	ابن طاووس (قده)
ـ تفسير القرآن	القمي

الفهرس

مقدمة المؤلف ٩

مقدمة عن التقوىٰ ١٩

- معنى التقوىٰ ١٩
- التقوىٰ في القرآن ١٩
- التقوىٰ لدى المعصومين عليهم السلام ١٩
- لماذا يطلب السالك التفصيل في معنى التقوىٰ وفي سمات المتقين؟ ١٩

«مقدمة الكتاب» التقوىٰ ٢١

مع القرآن في نظرته إلى التقوى ٢٥

☐ التقوى طريق الوصول إلى الفلاح والفوز ٢٥

وأما المعصومون عليهم السلام فماذا يقولون عليهم السلام في التقوى؟ ٣٣

مدخل للشروع في ذكر سمات المتقين ٤٧

- إن الله خلق الخلق ٤٧
- غنياً عن طاعتهم ٤٧
- آمناً من معصيتهم ٤٧
- قسم بينهم معايشهم ٤٧
- المتقون هم أهل الفضائل ٤٧

«.. فقسم بينهم معايشهم ووضعهم من الدنيا مواضعهم» ... ٥٠
السِّمَةُ الأولىٰ منطقهم الصواب ٥٣
وفيها أبحاث ٥٣
☐ آفات اللسان ٥٣
تقييم اللسان سلباً وإيجاباً، وبيان شدة خطره إذا أطلق ٦٣
«الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان» ٦٣
☐ **آثار اللسان الوخيمة دنيوياً** ٦٦
☐ **آثار اللسان المهلكة أخروياً** ٦٧
الصمت... تقييمه... وعلة امتداحه ٧٠
الثمرات والفوائد الجليلة لتهذيب اللسان ٧٨
آفات اللسان ٨١
ـ الكذب ٨١
ـ النميمة ٨١
ـ الغيبة ٨١
ـ اللسانات والوجهان ٨١
ـ الاستهزاء ٨١
ـ أذية المؤمن وإهانته.. الاستخفاف به.. تعييره.. سبُّه.. ٨١
آفات اللسان الكذب ٨٣
ـ أسبابه ٨٣
ـ التغليظ في تحريم الكذب ٨٣
ـ عذاب القبر والصورة البرزخية للكذاب ٨٣
ـ آثار الكذب السيئة في الدنيا ٨٣
ـ لا يفرق في تحريم الكذب بين الصغير والكبير والجدّ والهزل ٨٣
ـ قول (يشهد الله) كذباً حرام ومن أعظم الذنوب ٨٣

- الكذب في الرؤيا محرَّم ٨٣
- ترك الكذب سبب ارتفاع الدرجات ٨٣
- مستثنيات الكذب: ٨٣
- **الكذب لدفع ظلم الظالم** ٨٣
- **الكذب لإصلاح بين المؤمنين** ٨٣
- **الكذب في الحرب** ٨٣

الكَذِب ٨٥

١ ـ التغليظ في تحريم الكذب ٨٨

ـ عذاب القبر.. والصورة البرزخية للكذاب ٩٢

ـ الآثار السيئة للكذب في الدنيا ٩٤

لا يفرق في الكذب بين أبيض وأسود.. صغير وكبير.. مزاح وجد.. فكل الكذب محرّم ٩٦

قول العبد «يشهد الله» أو «يعلم الله» كذباً، من أعظم الذنوب ١٠٠

اختلاق الأحلام، أو الزيادة والنقصان فيها، كذب محرم ... ١٠١

«مستثنيات حرمة الكذب» ١٠٥

آفات اللسان ١١٣

الآفة الثانية ١١٣

ـ معنى النميمة ١١٣

ـ ما دلّ على تحريم النميمة وشناعتها ١١٣

ـ النمّام لا يدخل الجنة ـ النميمة تمنع الدعاء وهي سحر . ١١٣

ـ النميمة توجب عذاب القبر والبرزخ ١١٣

ـ وظيفة من تنقل إليه النميمة ١١٣

النميمة ١١٥

تحديد معنى النميمة: ١١٦

ما دل على تحريم النميمة وشناعتها ١١٩

النمّام لا يدخل الجنة ١٢١
النميمة تمنع استجابة الدعاء ١٢٢
النميمة سحر ١٢٢
النميمة توجب عذاب القبر والبرزخ، وعذاب يوم القيامة إلى أن يدخل صاحبها النار ١٢٤
بواعث النميمة ١٢٤
وظيفة من تنقل إليه النميمة ١٢٥
آفات اللسان ١٢٩
الآفة الثالثة ١٢٩
ـ امتحان المؤمنين العسير ١٢٩
ـ بواعث الغيبة ١٢٩
ـ ما دلّ على حرمة الغيبة، والتغليظ في تحريمها ١٢٩
ـ الحدّ أو المعنى الشرعي للغيبة ١٢٩
ـ موارد جواز الغيبة ١٢٩
ـ تعامل العارفين بالله مع الغيبة ١٢٩
الغيبة ١٣١
أولاً ما دل على حرمة الغيبة وشناعتها، وعلى أنها من الكبائر ١٣٣
ثانياً: ما هي الغيبة؟ ١٣٨
موارد جواز الغيبة ١٤٣
تجوز الغيبة في موارد ١٤٣
أفات اللسان ١٤٧
الآفة الرابعة ١٤٧
ـ من أبغض الخليقة إلى الله تعالى ١٤٧
ـ متى يكون المرء ذا لسانين ١٤٧
ـ ماذا يصنع صديق المتعادين ١٤٧

- إن شر الناس الذين يكرمون اتقاء شرهم ١٤٧
ذو اللسانين ١٤٩
متى يكون المرء ذا لسانين؟! ١٥٠
آفات اللسان ١٥٥
الآفة الخامسة ١٥٥
- أدب الإسلام بدل السخرية: لا تطيلوا النظر إلى أصحاب العاهات ١٥٥
- عقاب المستهزئين يوم القيامة ١٥٥
- عقاب المستهزئين في البرزخ ١٥٥
- عاقبة المستهزئين حتى في الحياة الدنيا ١٥٥
السخرية والاستهزاء بالمؤمنين ١٥٧
فما هو عقاب المستهزئين بالناس يوم القيامة؟! ١٥٩
آفات اللسان ١٦٧
أذية المؤمنين ١٦٩
إهانة المؤمن ١٧٠
الاستخفاف بالمؤمن ١٧٠
استذلال المؤمن وتحقيره ١٧١
تعيير المؤمن ١٧١
- ذم المؤمنين وتتبع عوراتهم ١٧٢
- تأنيب المؤمن ١٧٢
- إذاعة سر المؤمن ١٧٢
- هدم مروءة المؤمن وشينه وإسقاطه من أعين الناس ١٧٢
- سباب المؤمن ١٧٣
- منابذة المؤمن وإضمار السوء عليه ١٧٣
لعن غير المستحق ١٧٣

تهمة المؤمن ١٧٤
إخافة المؤمن ١٧٤
الإعانة على المؤمن ١٧٤
ـ محاكاة المؤمن وتقليده في كلامه ١٧٥
السِّمَة الثانية «ملبسهم الإقتصاد» ١٧٧
ـ سيرة المؤمن القصد في كل شيء ١٧٧
ـ تحقيق معنى الإسراف ١٧٧
ـ ثلاثة عناوين للإسراف في الروايات ١٧٧
ـ التفريق بين الإنفاق على النفس والإنفاق في وجوه الخير ١٧٧
ـ لا سرف في الخير ـ (علينا تبديل اعتقادنا العرفي) ١٧٧
ـ الاقتصاد: الوسط بين الإسراف والتقتير ١٧٧
ـ التأدب بأدب الله (إذا وسع علينا وسعنا...) ١٧٧
العنوان الثاني الوارد في النصوص أنه إسراف هو: ما أضرَّ بالبدن ١٨٩
والعنوان الثالث الوارد كونه إسرافاً هو بذل المال في غير حق ١٨٩
التفريق بين الإنفاق على النفس والمتعلقات وبين الإنفاق في وجوه الخير ١٩١
خلاصة ١٩٣
السِّمَة الثالثة «مشيهم التواضع» ١٩٧
ـ عمدة التواضع أمران ١٩٧
ـ المتقون متواضعون في جميع أحوالهم ١٩٧
ـ المتكبر مجنون! ١٩٧
لم يرخص في الكبر حتى لخاصة الأنبياء عليهم السلام ١٩٧
ـ تواضع الرسول صلى الله عليه وآله ـ تواضع أمير المؤمنين عليه السلام والأئمة عليهم السلام ١٩٧

- تواضع الصالحين ١٩٧
- فضل التواضع في الآثار الشرعية ١٩٧
- علامات التواضع.. فلنعرض أنفسنا عليها ١٩٧
- فن التواضع ١٩٧
- قبسات من أنوار علمائنا التواضعية ١٩٧
السِّمَة الثالثة (من سمات المتقين) «.. ومشيهم التواضع» ١٩٩
المتقون مشيهم التواضع بل هم في جميع أحوالهم متواضعون ٢٠١
- تواضع رسول الله محمد ﷺ ٢٠٦
- تواضع أمير المؤمنين عليه السلام ٢٠٨
- تواضع الأئمة عليهم السلام ٢٠٩
- تواضع سلمان المحمدي ٢١٠
- تواضع محمد بن مسلم ٢١١
- تواضع النجاشي شكراً لله تعالى ٢١١
فضل التواضع ٢١١
أ - المتواضع محبوب الله تعالى ومحبوب رسوله ﷺ ٢١٢
ب - التواضع رأس العلم ٢١٢
ت - لا زهد إلا مع التواضع ٢١٣
ث - الحكمة لا تعمر إلا في قلب متواضع ٢١٣
ج - التواضع يجلب المحبّة ٢١٤
ح - بالتواضع تنتظم الأمور ٢١٥
خ - التواضع من صفات الشيعة الحقيقيين ٢١٦
د - التواضع حلاوة العبادة ٢١٦
● شبهة استلزام التكبر للمهابة والتواضع للاستخفاف ٢١٦
- التواضع لا يزيد صاحبه إلا رفعة ٢٢٥

علامات التواضع ٢٢٦
فَنُّ التواضع ٢٣١
* قبسات من أنوار علمائنا التواضعية * ٢٣٣
* العلاّمة الطباطبائي (قده) * ٢٣٣
* السيد الخوئي (قده) * ٢٣٤
تواضعه (قده) لأساتذته ٢٣٥
* الشيخ الأنصاري (قده) * ٢٣٦
* السيد حسين الكوه كمري (قده) * ٢٣٧
* السيد الگلبايكاني (قده) * ٢٣٨
* الشيخ عبد الكريم الحائري (قده) * ٢٣٩
مؤسس الحوزة العلمية في قم المقدسة ٢٣٩
* عالم كبير يرى تكليفه تعليم الصغار * ٢٤٠
السِّمَة الرابعة غضّوا أبصارهم عما حرَّم الله عليهم ٢٤٣
السِّمَة الرَّابعَة *... غَضُّوا أبصارَهم عمَّا حرَّم الله عليهم * ٢٤٥
العلاقة الوثيقة بين البصر والقلب ٢٤٥
- قد يكون النظر عبادة وقد يكون نبات الفسق ٢٤٨
- النظر إلى المظورات نبات الفسق ٢٤٩
- تأكيد الشريعة على إبعاد الأطفال المراهقين عن المشاهد المثيرة ٢٥١
- مثال الذي يثير الشهوة ولا منفس لها ٢٥٤
- العقوبة الشديدة على النظر المحرّم ٢٥٤
- حرمة النظر، لا تقتصر على الرجل ٢٥٥
- مبالغة الشريعة في التشديد على غض البصر حتى عن بعض المباحات أو المشتبهات ٢٥٦
العلاج المساعد على غض البصر وحفظ المخيلة ٢٥٧

دعوة إلى تعقيل الغريزة ٢٥٧
خلاصة هناك ثلاثة عناصر علاقتها وثيقة ببعضها البعض ٢٥٨
ـ عظة من الملك لأحد أفراد رعيته ٢٦٤
ـ غض البصر أمر شديد يحتاج إلى إيمان قوي ٢٦٥
ـ مكافأة الغاض لبصره ٢٦٥
السّمَة الخامسة وقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم ٢٦٧
ـ دائرة مسؤولية المؤمن بشأن السمع ٢٦٧
ـ المرحلة الأولى: كف السمع عن المحرّمات ٢٦٧
ـ المرحلة الثانية: تنزيه السمع عمّا لا فائدة منه.
(اجتناب اللغو) ٢٦٨
السّمَة الخَامِسَة * ... وقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم * ... ٢٦٩
الأمر الثاني الغناء ٢٧٩
ولنذكر أولاً الدليل القرآني بضميمة تفسير المعصومين عليهم السلام ... ٢٨١
ثانياً: الروايات الواردة عن أهل بيت العصمة عليهم السلام المُحَرِّمَة
للغناء ٢٨٢
حرمة الغناء لدى المذاهب الإسلامية الأخرى ٢٨٩
مفاسد الغناء ٢٩٠
قول البعض في مفاسده ٢٩٠
الغناء رقية الزنا ٢٩٢
الغناء يسلب العزم من الإنسان ٢٩٣
جزاء من نفسه عن الغناء في الدنيا ٢٩٤
**٢ ـ المرحلة الثانية من البحث: فيما يتعلق بحاسة السمع تنزيه
السمع عما لا فائدة منه (اجتناب اللغو)** ٢٩٧
المثال والتشبيه الأول ٣٠٢
التشبيه الثاني ٣٠٣

الحسرة على هدر الوقت عند رؤية ملك الموت ٣٠٤
الحسرة على تفويت العمر يوم القيامة ٣٠٥
فلنقل لأنفسنا كل يوم محاسبين ما قاله الشيخ الكفعمي (قده) في محاسبة النفس ٣٠٦
* فصل في حرص علمائنا الأبرار عملياً على الاستفادة من كل ساعة من ساعات عمرهم الشريف ٣٠٩
* آية الله البروجردي (قده) * ٣٠٩
* آية الله الشيخ محمد حسن النجفي (صاحب الجواهر (قده) * ٣١٠
* آية الله السيد محمد باقر الصدر (قده) * ٣١١
* الإمام الخميني (قده) * ٣١٢
* العلاّمة الطباطبائي (قده) * ٣١٢
* الشيخ نصير الدين الطوسي (قده) * ٣١٣
* آية الله الشيخ هاشم القزويني * ٣١٣
* الميرزا القمي (قده) * ٣١٤
ختام ٣١٤
فهرست المصادر ٣١٧
الفهرس ٣٢٣
هذا الكتاب الذي بين يديك ٣٣٣

هذا الكتاب الذي بين يديك

يتكفّل ببيان الصفات والسمات التي يجب أن يحصّلها المؤمن في نفسه وشخصه كي يدخل في عداد المؤمنين الأخيار..

وينخرط في سلك المتقين الأبرار..

ذوي المناقب والمكرمات..

العاملين للباقيات الصالحات..

ولكي يحصّلَ القلبَ السليم.. المنجي يوم القيامة من العذاب الأليم.

وهو أول شرح موضوعي مفصّل لخطبة المتقين لمولانا أمير المؤمنين (ع) وفي طياته أبحاث هامة، تعالج بعض مفردات الشاب المعاصر ومشاكله.

- اللسان في ميزان الشرع..
- ماذا يعني الاقتصاد في المعيشة.. ما هو الإسراف؟
- فن التواضع.. كيف يكون المتواضع؟
- علاقة النظر بالمخيلة وتأجيج الغريزة..
- مشكلة الفناء..
- مشكلة تضييع الوقت وهدر العمر..
- أهمية بذل الوسع للاستفادة من فرصة وجودنا في الحياة..

حارة حريك - شارع الشيخ راغب حرب - قرب نادي السلطان

ص.ب: ٥٤٧٩ / ١٤ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - تلفاكس: ١/٥٥٢٨٤٧

E-mail:almahajja@terra.net.lb

www.daralmahaja.com

info@daralmahaja.com